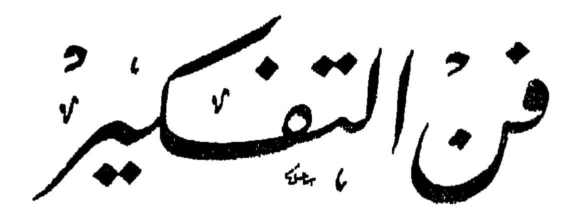
الألف كتاب (٦٤٨)



فن التفكير

بإشراف
الإدارة العامة للثقافة
بوزارة التعليم العالي

تصدر هذه السلسلة بمعاونة
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الألف كتاب (٦٤٨)

فن التفكير

تأليف
أرنست دمنيه

ترجمه
رشدي السيسي

راجعه
مصطفى حبيب

الناشر
مؤسسة سجل العرب
باشراف الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده
٢٦ شارع شريف باشا القاهرة
تليفون ٤٩٩٩٩ ٥٢٣٠٩

١٩٦٧

هذه ترجمة كتاب :

The Art of Thinking

تأليف :

Ernest Dimnet

محتويات الكتاب

لمطالعتك قبل النوم

يقول فيلسوف أمريكي كبير عن هذا الكتاب الذائع الصيت :

أود أن أقول للقارئ : « تذوقه ، اختبره بنفسك ، احتفظ به فى متناول يدك ، طالع منه صفحة أو صفحتين ، أو فقرة تقع عليها عيناك حين تفتحه حسبما اتفق ، طالعه لماما أو تباعا ، احتفظ به فى مخدعك وطالعه لتهدئة ذهنك عند المساء وتنشيطه فى الصباح » فهو مفعم بالحكمة التى جناها المؤلف خلال أعوام من دراسته لنفسه ولغيره من الناس .

ويجد القارئ ، فى هـذا الكتاب ، مقترحات لطرق يقوم بها خواص تفكيره . . . فقد عرض المؤلف ما لا يقل عن اثنى عشر مقترحاً . يؤدى كل منها لصقل الذهن وتحسين عاداته .

ولا يستطيع أحد أن يقرأ الكتاب ، دون أن يفطن إلى أن الترهل الفكرى ، والتواكل الطفيلى على الآخرين ، وبلادة حاسة الذوق الفنى ، وما يماثل هذا من عيوب خلقية ، تسبب من النقائص العقلية أكثر مما تسببه

ضروب العجز التى يتضح أنها ناشئة عن أصل غير وجدانى، وإذا كان ثمة قوم قد حالفهم الحظ حتى أصبحوا فى غير حاجة إلى أية نصيحة من نصائح المؤلف ، فإنى — على الرغم من ذلك — أحفزهم لمطالعة الكتاب بغية التعرف إلى شخص مختبر موفور الحكمة وكفى .

جون ديوى

تصدير

ترى أى هو ذلك الكاتب الذى يستطيع أن يدعى لنفسه قولة فولتير فى قصته « شيطان المسكين » بل يتجرأ على القول عن قارئه : « لقد اختارنى كى أمد له يد العون فى التفكير » ؟

حقاً إن هناك ملايين من الرجال والنساء يتلهفون على تلقى الدروس فى فن التفكير ، وإن هناك لفيفا غيرهم من الرجال والنساء يجازفون بإظهار القدرة على إعطاء هذه الدروس مهما يكن فيها من خيلاء .

ليس من الضرورى أن يتسم من يقدم على هذا العمل بالعبقرية ، ذلك أن العبقرية لم تكن فى الحسبان قط، إنها المعلم الصالح لأى فن من الفنون، ومن ثم فمن الخير ألا يكون معلم فن التفكير شخصاً لايعرف أى صعوبة فى التفكير، أو يبهر الناس بروائع أفكاره التى من شأنها أن تشعر قليل الخبرة بضآلة تفكيره فتثبط من عزيمته ، والواقع أن الطبيب الرقيق قد لايصلح لأن يكون مثالا على الصحة، على حين يستطيع أى حطاب أن يكون مثلاً على ذلك — صحيح أن الطبيب يمكن أن يقدم الطريقة المثلى فى الاستخدام الزكى البارع لرصيد صغير من الصحة والعمل على زيادته ، ومع ذلك فإننا نعرف أنه يستطيع أن يكون

أكثر نفعاً بسبب تفهمه للصحة المعتلة وتقديره لعلم الصحة ، ومن ثمة فنحن دائماً نؤثره على غيره، ويقينا أن مؤلف هذا الكتاب غير مستعد للزعم بأنه قد مارس، أو حتى أنه يمارس الآن نظرياته ولكنه بعيد عن التفاخر حين يقول إنه من المحتمل أن يكون إحساسه بقيمتها أشد من كثيرين من الناس الذين أشرفوا على العبقرية أكثر منه ، ألا يكفي هذا ؟ ثم أليست الرغبة الصادقة فى أن يكون المرء نافعاً مبرراً كافياً ليقوم بإسداء نصحه المتواضع؟.

وسيجد القارئ عاجلا أن هذا الكتاب ، على الرغم مما قد يشوبه من قصور، قد كتب من أجله فإن مايتسم به من جهد للوضوح والإيجاز ،وعزوف عن اللغة الفلسفية العصية، وتنكب لوسائل عرض البيانات الببلوغرافية المثبطة وغير المثمرة، وهى أمور تنبع جميعها من رغبة لإسداء العون لا لإثارة الإعجاب ، أن معظم الكتب تؤلف مستهدفة ، بقسط قل أو كثر أن تكون من روائع الفن ، أو بتعبير آخر أن تكون غاية فى ذاتها ، وأن تثير الإعجاب فى خاتمة المطاف ، والأنانية ، عند الكتابة عن أى فن ، خاصة فن التفكير ، تصبح جريمة ، ويمكن القول ، فى صدق وأمانة ، إن نصيبها فى هذا المؤلف قد تضاءل إلى أصغر حد ممكن .

وإذا فطن القارئ إلى التعاطف الذى بات حقاً له ، وإلى المحاولة المتواصلة لإسداء العون له فى جهاده للوصول إلى قمة الحسن من تفكيره وإلى ذروة النبل من حياته فحسبي هذا وكفى .

البابُ الأول

الفصل الأول

فى التفكير

منظر مألوف — الساعة الخامسة من أصيل يوم فى أواخر أكتوبر — الشمس الغاربة فوق الحديقة المحمرة — أنت واقف قرب رصفة الباب تنظر ، ولا تبصر ، مستغرقاً فى التفكير — يتسلل شخص ما عن كثب منك فتسمع هذه الكلمات همساً « درهم ثمن تفكيرك » فما جوابك ؟

وفى وقت متأخر من اليوم تستغرق ، أو تبدو مستغرقاً ، فى مطالعة كتاب ، ولكن وجهك لا يبدو كما يبدو عادة حين تحس السعادة فيما تقرأ : فجبهتك المتغضنة تكشف عن استغراق مسرف ، يزيد فى سرفه على ماتستلزمه مجرد المطالعة ، والواقع أنك ناء قصى ، وفى إجابتك عن السؤالين « فيما تفكر ؟ وأى كتاب هذا ؟ » لن تختلف قط عما قلته حين نزل عليك صاحبك فى أصيل هذا اليوم وقد انطلقت فى يقظتك إلى وادى الأحلام : «أوه ! لست أفكر فى شىء » أو « إنى أفكر فى كل شىء » ومن المؤكد أنك كنت تفكر فى أشياء كثرت إلى حد أنك كنت كمن لا يفكر فى أى شىء : ومرة أخرى كنت تشعر بأمر مارسته من قبل مراراً عديدة ، فعقلنا لايشبه حجرة ساطعة الإضاءة منسقة على أكمل وجه ، بل إنها شديدة الشبه بمقصورة مشوشة مكدسة

بالأثاث دون ترتيب ، وقد انتشرت فيها الهوام التى ولدت وترعرعت فى الأضواء الخافتة : أفكارنا ؛ وما نكاد نفتح الباب لنراها جهاراً حتى تختفى هذه الفراشات الصغيرة الداكنة .

ووقوفنا على هذه الظاهرة أمر مثبط للعزيمة دون شك ، وهذا يفسر ما نبديه عادة حين يعرض علينا درهم ثمناً لأفكارنا ، من حيرة بل وارتباك ، بل ومن رغبة فى أن يتركنا السائل وشأننا وألا يزعجنا بسؤاله أيضاً، فنحن نشبه الجرو الذى يقدم على النباح على خياله بالمرآة مرة ، — ويهجم عليها من الخلف فاغرا فاه ، ولكنه بعد المحاولة الثانية ، ينصرف عنها فى امتعاض وضجر ، ومع ذلك فبقليل من حب الاستطلاع وبعض المران ، قد لا يستحيل على المرء أن يحصل على لمحة عابرة من ذهنه ، وينبغى ألا نحاول هذا حين نكون مذهولين تماماً عما حولنا ، أو بتعبير آخر حين يفقد وعينا كل سلطان له على ذاته ، ولكن هناك سوانح مواتية: ونحن نطالع الصحف عندما تبدأ الموضوعات سريعة التعبير فى إرهاقنا دون أن تصل بنا إلى حد الإعياء التام؛ وحين تدفع حركة القطار أو العربة بأفكارنا إلى إيقاع معين قد يتحول إلى ذهول عما حولنا أو إلى ميل للنوم فلا يتعدى أن يكون خمولا فى عمليات العقل فحسب ؛ وحين تكون المحاضرة التى نسمعها ليست جيدة جداً فتشد انتباهنا إليها ، أو رديئة إلى حد يضايقنا ويثير أعصابنا ؛ عندئذ ، وكلما استمتعنا بهدأة فكرية ، تتاح الفرصة لنا كى نحصل على لمحة من عقلنا كما يشتغل على حقيقته وكما يكشف عن طبيعتنا فى أغوارها ؛ فعن طريق تجمد مفاجئ لوعينا ، وتطلع مستكشف سريع فى أغوارنا ، نستطيع ، كأمر واقع ، أن نجمد قسماً من مجرى النشاط العقلى الذى سيظل خلال ثلاث أو أربع ثوان معداً لفحصنا ، وإذا نجح المرء فى أن

يقوم بهذا مرة ، فمن المؤكد أنه سيشعر بمقدرته على القيام به مرة أخرى ، فليس ثمة اختبار للوعى بالغ الروعة فى إفادته مثل هذا ، وكلما ازداد تعدده وتردده ازداد يسراً ، وفى القليل خلال فترات معينة ، سيصبح أيضاً كذلك .

لماذا لا تفعل ذلك الآن ؟ درهم ثمن لأفكارك ! فيما تفكر ؟ . . . . .

إنك تتطلع وقد أخذتك الدهشة لما تعتبره عرضاً لذوق سقيم من كاتب .

« أفكر ! عجباً ، إنى أفكر فى كتابك ؛ ولعلك لم تجد فى كتابته مثل المتعة التى أجدها الآن فى قراءته ، فأنا شغوف بهذا الموضوع » .

« أجل، لقد رأيتك ملتفتا فى عكوف يدعو إلى الإعجاب، وهذا ما دعانى للتطفل عليك ، أما لو كنت مشتت الذهن ، لذهب المسعى أدراج الرياح ! وإذن فأنت شغوف بهذا الموضوع » .

« أنا كذلك دون شك ، وبودى أن يستمر ، فالكتب ينبغى ألا تتكلم »

« حين تقول إنك شغوف بهذا الموضوع ، تعنى أنه يمتعك ، وأنه يثير فى أعماقك شيئاً ما ، وبالاختصار أنه يجعلك تفكر » .

« بالضبط »

« يقيناً أن هذه الأفكار التى تساورك وأنت تطالع تخصك وحدك ، وهى ليست مجرد انعكاسات لما أقوله أنا ، وهذا هو السبب الرئيسى الذى من أجله تستمتع بها حين تنبعث من وراء عباراتى أليس كذلك ؟ » .

« محتمل جداً ياسيدى ، لقد بدأ هذا الحديث يستولى على لبى » .

« نعم ، فهو يدورحولك ، وقد عرفت أنك ستهواه ، وإذنفهذه الأفكار التى تخصك ولا تخصنى خارجة عن هذا الكتاب ، ألا تظن أنه من الممكن أن نسميها ضرباً من الانشغال ! »

«ليس هذا من الإنصافياسيدى، فأؤكد لك أننى أتابعك فى إصغاء تام ، ولكن لابد لى من الاعتراف بأننى لا أحاول استذكار ما تقول ، فهذا من شأنه أن يقضى على كل البهجة التى أجدها فى هذا ، بل إنى لراغب فىالاعتراف بأن بهجتى هى ملكى ومن ثمة يصح تسميتها كما تقول ، ضرباً من الانشغال أو الانصراف الذهنى ، فالواقع أننى كنت أفكر . . . . »

« آه ! هنا بيت القصيد ! كنت تفكر . . . . »

« بلى ، كنت أفكر فى ضيعة ، فى المين Maine كان بها مقصورة كالتى تحدثت عنها وفى فصل الصيف ، حين وجودنا هناك ، كانت رائحة ثمار التفاح الشتوى ماتزال تفوح منها ، وكنت أحبها وكنت أجلس فيها ، وأنا صبى ، ساعات وساعات : أفكر ، وهكذافها أنتذا ترىأننى كنت أفكر فى التفكير ، وواقع الأمر أننى كلما شاهدت الصورة التى تضفى على أعمق انطباعات التفكير السعيد — صورة أرازمس وهو يكتب — فكرت فى المقصورة القديمة، ولست أشك فىأننى فكرت فى أرازمس منذ بضع دقائق ، إذتضايقت حقاً لحظة حينتذكرترجلاً وقف مرة أمام تلك الصورة وسألنى قائلا : «من هذا الطاعن فى السن الذى يتطلع عبر أنفه الطويل ؟ ياللأبله الذى أبغضه ! لقد جعلتنى ذكرى هذا الشخص قلقاً غير مستقر فى مقعدى ، وكان على أن أقوم بجهد لأفكر فى شىء آخر . »

«ها أنت ذا ترى أنى لم أمعن فى الخطأ ، فقد كنت تفكر فى عدد من الأشياء التى لم ترد بهذا الكتاب ».

« بلى ولكن هذه الأشياء وردت لذهنى عن طريق الكتاب ، ولن تساورنى الدهشة إذا ما فكرت فى كتابك ، وتذكرت فقرات برمتها ، أعنى ، غداً خلال قيامى بمهام عملى فى مكتبى » .

« أشكر لك ، أكنت تفكر فى ذلك أيضاً ؟» .

« عبثاً ! من العسير ألا أفعل ذلك ، إن ما سأوقع عليه فى الغد يدور حول مبلغ قد أقضى خمس سنوات فى ادخاره ، على أية حال أكاد أثق أن كل شىء سيتم على ما يرام ، وأننى أستطيع أن أشترى لجيم المسكين النصيب الذى يريده من الشركة » .

« حالياً خذ هذا الدرهم الذى أنا مدين لك به ، فقد بدأت أن أقف جيداً على أفكارك ، وبدهى أنها برمتها تدور حولك ، وذلك كما ينبغى أن يكون ، ومن المؤكد أن ثمة أفكاراً تختبىء فى أغوار عقلك ، حتى لتعجز عن الكشف عنها مهما أنفقت من الجهد فى الحفر وإزالة الركام عنها ، ولكن ما من شك فى أنها ستكون أكثر قرباً لنفسك من تلك التى اكتشفتها خلال محادثتنا ، وأحياناً نشعر ، دون أى ترقب ، بشرايينا تنبض فى رءوسنا ، بل حتى نشعر بأننا أحياء ، وهذا الشعور المدرك لا جدوى منه لنا على الإطلاق ، اللهم إلا إذا ساهم ، بصورة ما ، فى حفظنا أحياء ، ولكننا نسرف حين تكون « ذاتنا » هدفاً لرهان أو عرضة لخطر ، لا تظن أننى أقرعك أو أوجه إليك اللوم » .

«إن فعلت ذلك تكون نا كراً للجميل ، وذلك لأنى قلت ، وهأنذا أكرر أننى قلما طالعت شيئاً استحوذ على لبى مثل هذا الكتاب » .

« بالتأكيد ، ولكن لابد أن تسلم بأنك وأنت تضفى اهتمامك على هذا الكتاب كنت تهتم بشىء آخر ، وهذا ما يحدث لكل إنسان ، أسمعت قط أنه حينما كان سير ولتر سكوت يقع على نواة لقصة جديدة تذكى خياله بطبيعتها، راح يطالع سفراً أثر سفر ، دون أن يكون لهذه الأسفار علاقة بموضوعه ، وذلك لأن المطالعة تشحذ ذهنــــه للعمل ؟ فتلك الكتب كانت تؤدى لقوى الإبداع عنده ما كانت الجماهير فى لندن تؤديه لقوى ديكنز ؛ وحين تقول إنك كنت تطالع هذ الكتاب فى عكوف وانكباب ، فأنت تعنى أن قوتك العقلية كانت تضفى نصيبا من وعيك — فلنقل خمسه أو فى الأكثر ثلثه ـ على الكتاب، بيد أن قوتك العقلية ليست إلا ضربا من كاتب رفيع يؤدى لك خدمات خارجية ، وأنت ، بنفسك ، لم تكف مع كل ذلك ، عن القيام بعمل هذه النفس، فهى قطعا أهم لديك من أية نظرية ؛ إن مايهمك هى المقصورة التى اعتدت أن تقضى فيها الساعات مفكراً متأملا ، ورائحة التفاح تعبق الجو من حولك ، وصورة أرازمس التى تحبها ، وبغضك ، الذى لايخبو أواره ، للرجل الذى لم يقدر تلك الصــورة ، ومستقبل ابنك والفرصة النادرة التى سنحت لتحسينه ؛ وطوال الوقت الذى كنت تتخيل فيه أن فن التفــكير كان يدفعك للتفــكير ، كنت تفكر فى جيم وأرازمس والأبله والمقصورة والعمل ، ودون شك أيضاً، فى عشرات من أشياء أخرى لم تستطع أن نتقصى أثرها فى منطقة لوعى عنك؛ تلك الأفكار التى تميل لأن تسميها انشغالات هى ما تفــكر فيه «ذاتك»

على الرغم من الكتاب ، ولأصدقك القول ، فالكتاب هو محط انشغالك ، بل من الممكن أن تكون الكتابة هى هذا المحط؛أتسمح لى أن أذكر لك مايجول بخاطر « ذاتى » حين يمسك الكاتب الرفيع بقلمى ؟ يجول بخاطرها أنه كان فى مقدورى أن أؤدى عملى فى هناءة مترعة غير مشوبة ، لو لم أكن قد شاهدت ، منذ ساعتين قطة ضالة مسكينة ، تضرب فى الطرقات ، على غير هدى ، تحت وابل من المطر ، وإلى جانبها قطيطتين مرتعبتين ؛ وبقدر ما تبغض أنت البلهاء فإنى شغوف بالقطط » .

والاستكناه الباطنى ، كما يسمى ، وهو فحص أغوار العقل فى أثناء نشاطه، سيرفع الغطاء دائما عن أشياء مماثلة ، ويتكلم علماء النفس عن « التيار العقلى » وهذا الاصطلاح وحده يحمل المعنى لتقدم هائل بمنطقة الفكر المتعلقة بالملاحظة الباطنية لدى مقارنتها بالتقسيم المضلل للروح إلى ملكات متفرقة ، وفى الواقع أن تتابع التغيرات فى ذهننا يحمل فى طياته صوراً — محفوظة فى الذاكرة أو معدلة — ومشاعر ، وعزائم ، ونتائج عقلية أو نحو ذلك ، فى ارتباك مبهم أو مضطرم ، وهذه العملية لا تتعطل أبدا حتى ونحن نيام ، أكثر مما يتعطل نهر عن الجريان، ولكن التيار العقلى أكثر شبها بنهير جبلى ، لاتكف الصخور عن اعتراض مجراه ، ولاتكف مياهه عن التلاطم وهى تجرى ، وحين ننظر إلى الباطن نشعر بالحركة الدائمة ، أما إذا لم نقتصر على مجرد لمحة خاطفة ننصرف فى أعقابها بأبصارنا بعيداً ، فسرعان مانلاحظ خروج مجموعات أو مواكب كاملة عن مألوف سيرها وعودتها للظهور فى نهج دائرى .

وهذه المواكب تنشأ عادة عن طريق صورة ذهنية ما تأتى الأولى فى أعقابها،

فهذا السيد الذى دار الآن هذا الحديث المثمر بينه وبينى يزدحم عقله بصور شتى — أفكار قليلة الأهمية ، خاطفة وغير متماسكة أيضاً ، ويستحيل الإمساك بها كتموجات الماء فى نهير صغير — ولكنه كان يشعر تمام الشعور أو بعضه بالقليل منها فقط ، وما ذا كانت ؟ حجرة فى منزل ريفى — صورة أرزامس للمصور هولبين — أبله — جيم ؛ ولتغيير التشبيه الذى استخدمناه — كلما زدنا منه اقتربنا من الحقيقة المتغيرة اللانهائية — نقول : إن هذه الصور الذهنية كانت مثل أكبر القطع وأشدها لمعانا داخـــــل منظار التشكيلات الزجاجية (Koleidoseope) وبين الفينة والفينة من لحظات قصار يكر ذهن السيد عائداً إلى هذه الصور .

ولا يكاد الأمر يستلزم القول بأن هذه الصور الذهنية أثرت عليه كما تؤثر علينا جميع الصور فبعضها يستهوينا والبعض الآخر ينفرنا ، وقد كانت حجرة التفاح القديمة مرضية للغاية ، وكذلك كان أرازمس ، لولا ذلك الرجل الأبله ، وحتى هذا الأخير كان ، فى وقت ما ، محتملا ، ذلك لأنه أثار ، إلى جانب شعور الضيق والغيظ شعورا، لطيفاً بالرفعة، أما فيما يتعلق بجيم فكان مبهجاً أن ترى وجهه غير الوسيم وقد غمره السرور حين سمع والده يقول : «حسنا ،أيها الرجل المسن ، كل شىء على مايرام » ولـكن عكس هذا كان حريا أن يحدث لو تخيله ، بعـد عام من الآن ، يحاول اللحاق بنفس القطار المبكر كى يؤدى نفس عمله الحقير ، ومن المحتمل أنه حينما تخيل السيد أنه يشم رائحة ثمار التفاح المتعفن ، كان جيم السعيد خلف الباب ، أما حينما سمعت كلمات الأبله الست ينطقها بصوت ناعم ينم عن الرضى ، فقد تراءت عن كثب محطة بلهام يتدفق إليها الأرقاء الصامتون وبينهم جيم المسكين ، أقول من المحتمل ، فمن يدرى ؟

ومن الممكن جداً أن ينشد المرء الخلاص من صورة بغيضة بالالتجاء إلى صورة أكثر لطفا، فالتيار يجرى سريعاً عميقاً بين حافتين وعرتين حتى ليستحيل رؤية أى شىء فيه بوضوح .

كل ما تستطيع قوله هو : (١) إن معظم عملياتنا العقلية غير منفصلة عن الصور الذهنية أو ناشئة عنها ، ونحن لانختلف فى هـذا عن الحيوانات العزيزة التى بجانبنا (إذا كان أى إنسان لايدرك أن دماغ الكلب يسجل موسوعة من الصور والأصوات والروائح تضاهى معجماً لغويا فى ضخامته ومحفوظة فى الذاكرة بطريقة أفضل جداً ، فإن سلوك الكلب يصبح مغلقاً على الفهم تماماً) . (٢) إن تلك الصور الذهنية تتسق تماماً مع رغبات أو منفرات ، مع أشياء نرغبها أو لانرغبها ، حتى إن هذه الرغبة أو عدمها تبدو الدافع الرئيسى فى توجيه حياتنا العقلية ، مع احتمال أن يكون لهذا صلة بالحالات البدائية فى وجودنا . (٣) إنه لا مناص من أن يكشف الناس ، فى أفكارهم وأحاديثهم ، فى نظرتهم للحياة وفى ضروب حياتهم دائماً ، نوع الصور التى تملأ عقولهم ، وإن فحص هـذه الصور الذهنية وتقويمها ، مع فحص صنوف ما نحب وما نبغض وتقويمها ، ليبين لنا قيمتنا من الناحية الأخلاقية بدقة تفوق حتى أعمالنا ، لأنها جذور العمل ، ولكننا سنعود إلى هذا فيما بعد .

ومن المؤكد ، على حد قولك ، أن ما وصفته إلى هذا المدى ليس فكراً ، ولزام أن يخلو ذهننا أحياناً من الصور ومن صنوف الهوى والكراهية ، ومن المشتهيات والمنفرات ، ولابد أن يكون هناك نوع رفيع من العمليات العقلية ، شىء غير مادى تنتج عنه أشكال مجردة ، فكيف تطورت الأنظمة الرياضية والفلسفية ؟ وماهو المنطق ؟ .

أجل ، فهناك لغات تختزل بلايين الاختبارات والتجارب ، وهناك مصطلحات علمية تملأ مكتبات بأكملها، ولقد كان عبقريا ذلك الفرد من أسلافنا غير المتحضرين الذى اخترع لأول مرة الفعل المستقبل بمزجه لفظ « الغد » أو « شروق الشمس » أو «الشوق إلى الصباح » مع « اسم فعل » ساذج ، بينما كان يخوض صراعاً مع الألفاظ الصوتية وقد كاد أن يملأه القنوط إذ وجد أنه لا يستطيع التعبير عن بصيص من المعنى ؛ وقد أنتج العمل العقلى مكتبات ، وهذه بدورها توفر العكوف الذهنى لأنبل العقول ، وهـذا كله يؤدى إلى التجرد ، ولكن دراستها تتعلق بعلم الفكر ، بينما أنه لا يهمنا هنا سوى فن الفكر ، ومع ذلك فمن المجدى ، حتى للغرض الذى ننشده ، أن نقول كلمة عن هذا الوجه غير العملى من الموضوع .

ونحن نظن أن الفكر — كما نظن خطأ عن حبات الماس — يمكن وجوده فى حالة نقاء ويمكن إنتاجه بدون صور ، ونثق أنه ليس من النادر أن ندرك النتائج الذهنية عملية كانت أو نظرية دون عون من الصور الذهنية .

آه . . ما هى ؟ ولكن ، قبل كل شىء ، هل هناك أية صورة ؟ وكيف نستطيع التأكد بأنه فعلا هناك ؟ فى كل مرة ننجح حقاً فى ملاحظة عمليتنا العقلية نكتشف وجود الصور ، وإنك لتقول « أفكار » « أفكار مجردة » وإنك لتتوهم أنك تقول هذا دون أية صورة مرافقة ، ولكن هل أنت مصيب أم مخطىء ؟ فحين تقول « فكر » أممكن أو غير ممكن أن تكون مشاهدا لرأس رجل أو جبهته أو باطن رأسه مصوراً ، لا كدماغ هلامى مفزع ، بل ربما ، كشبكة سلكية معقدة إلى حد كبير أو قليل مجهزة لتصنيف وحفظ النتائج الواردة فى مكانها ، أو كآلة ساعة تامة الأناقة والإتقان ؟ .

ولم تكن أسماء العمليات العقلية فى الأصل مجردة كما هى الآن ، فالرؤية والمعرفة فى اللغة اليونانية لهما لفظ واحد ، ولفظ « يعتبر » « Ponder » الذى يطن فى الأذن كفعل عقلى ، يعنى بوضوح يزن أو يقيس ، أما لفظ « يفكر » فهو الخلف الشبيه بالشبح للفظ أكثر خشونة جداً ومعناه « يتراءى » ؛ أما «منطق» و« كلام » فهما ذات اللفظ ، وأخيراً — وكضرب من الاحتجاج ضد الإغراق فى الكبرياء العقلى — فإن كلمة « الفكرة » و « الصورة » الذهنية لهما نفس المعنى .

ويمكن أن تكون الصورة الذهنية غائصة بالعقل الباطن أو منطقة اللاوعى من العقل، وأصعب فى التقصى مما يتوهم أولئك الذين لم يحاولوا ذلك، ونستطيع أن نشاهد بإحساسنا الباطن : فى جهاز السينما الذى بأغوارنا ، شريطاً للأنباء يدور ليكشف عن نفسه — مع اعتراضات مخبولة كثيرة — ولا نشاهد فى جلاء باطنى صورة ثابتة أخرى ، مرئية ، ولكن دون يسر ، فى ثنايا الفيلم ، وليس ثمة شىء أكثر حدوثاً من هذا الوضع المزدوج المتداخل لمجموعتين من الصور الذهنية تخطر بسرعتين مختلفتين ، وهذا يفسر النتائج غير المرتقبة التى نصل إليها حينما نبدو مركزين انتباهنا على أمور مختلفة تماماً ، ولعل سيداً احتشد عقله فى أثناء مطالعته بالصور الفوتوغرافية الدقيقة التى التقطتها ذاكرته يوماً ما لمنزل فى مين ، يسمع بغتة صوتاً صادراً من أغواره يقول له فى وضوح : « من خطل الرأى جداً أن تطالع دون احتياج لذلك » ، وقد يغلق الكتاب على الفور ، فلماذا ؟ إن عملية التجميد السابق ذكرها حرية بأن تكشف تحت فيلم مين الصورة الذهنية لدكتور ويلمر ، التى لم تكد تغيب ، منذ الزيارة

الأخيرة ، لحظة واحدة عن منطقة اللاوعى ، وثمة طبقات ثلاث من الصور الذهنية (وربما أكثر من ذلك) ستكون مرئية باطنيا فى اللاوعى ذاته وهى :

كتاب فى فن التفكير .

منزل فى مدينة مين .

طبيب للعيون .

وأحياناً نشعر بسلسلة من الصور الذهنية ترد متتابعة ، فى الواقع مقربة إحداها الأخرى ، كما لو كان بمنظار للأبعاد ، صوب نتيجة ذهنية مصاغة بسرعة غير عادية، ولعل نفس السيد الذى يؤسفنى أن جعلته الآن محلا للرثاء (ولكنه لن يصبح أعمى قط) وصل إلى هذه النتيجة الذهنية غير المرتقبة :

« أنا سأشترى ذلك المنزل فى نيو جيرسى !» غير معقول ! لا يمكن أبداً ، وسلسلة الصور الذهنية مقربة من بعيد يمكن رؤيتها فى وضوح على النحو التالى :

(أ) منزل فى مين + قطارات بطيئة + مواصلتان + فصول شتاء باردة + صبيان متعبون عن كثب = غير مرغوب فيه .

(ب) منزل فى ليكوود (يزكيه عميل) + قطارات مريحة = قريب + انعدام الناموس = نوم ؛ نوم + قرب + أشجار صنوبر + تربة رملية = رائع = ابتسام = أشترى .

وجميع هذه الصور الذهنية قد تتعاقب واحدة تلو الأخرى فى سرعة البرق، وإذ نظن عادة أن السرعة هى صفة للفكر، لذلك نسمى تسلسل الأشياء فكراً، ولكنها فى الواقع مجرد تتابع لصور ذهنية كالمعتاد .

وكثيرا ما نشعر بكلمات فرادى متقطعة تبرز فى غموض حينما يكون ذهننا منشغلا على هذا النحو ، وهى مثل البطاقات التى توضح أصناف الحرير بحقيبة التطريز لإحدى السيدات ، وأندر من هذا حدوثا أن نسمع أو نشاهد مجموعة متصلة من ثمانى أو عشر كلمات ، كما وقع للسيد ، فيغرينا هذا بأن نتخيل أننا نفكر فى كلمات ، وفى هذا تفوق على التفكير فى صور ذهنية ولكننا لا نفعل ذلك ، فالكلمات ومجموعاتها موجودة هناك بحكم العادة التى تدفع معظمنا إلى الهمس أحيانا بصوت مسموع : « زائد خمسة وسبعون » حين عدنا للنقود أو « يلزم ألا يحدث هذا مرة ثانية » حين نسدى النصح لأنفسنا ، فهذه الكلمات الآتية من الأغوار هى مجرد ترقب لما سيأتى فى الأعقاب .

وهكذا فنحن نواجه صورا ذهنية ، ومزيداً من الصور الذهنية ، وهكذا دواليك ، ولما كانت المعانى المجردة نتاج الصور الذهنية ، فلا مناص من أن تستعيدها الذاكرة ، وأنه لمن المتعذر أن يفكر المرء فى التاريخ دون أن يستحضر إلى ذهنه صور عظماء الرجال أو حقبة تاريخية هامة ، وإنى لأشك فى استطاعتنا أن نذكر العلم دون أن نتذكر تجاربه الشهيرة ، ومن المؤكد أن كلمات قليلة هى التى تتسم بالروحية مثل كلمة « حق » ولكن حين نسمعها منطوقة، فإننا نقرنها إما بنموذج من التقديس للحق ، وإما ببحث معين يجعلنا ندرك جمال الحق ، ومرة أخرى تعود للظهور أحداث طارئة محددة ، ولسنا فى حاجة إلى أن نبين مدى الصلة الوثيقة التى تربط بين الصلة وعلم الهندسة ؛ أما فيما يتعلق بعلم المنطق فهو لا يعنى شيئاً إذا لم يكن قائماً أصلا على اتساق الفكر أو تناقضه، فلم لا يكون الاتساق أو التناقض قائماً بين صورتين فى الذهن أو مجموعتين

من الصور مصحوبين بعبارة مجردة ؟ الواقع أننا نشعر دائماً أن الأمر يتم على هذا المنهج .

وقد يثار سؤال : أليس ثمة شيء فى عقلنا هو طبيعته بالذات ، وبدونه لن يكون هناك عقل على الإطلاق ؟ .

أفهم ما تقول ، فأنت قد سمعت عن نظرية « الإدراك » المجرد ؛ حسناً طالع ما كتبه الفلاسفة ، وأخبرنى ما إذا كنت قد ازددت انفعالا أو استنارة أو انسياقاً صوب الفكر ، حين أخبروك أنك عندما ترى كرة بليارد وتدفع بأخرى متحركة سراعاً، فإن «عقلك» يسجل أنه ما من شيء يحدث بدون علة أو بدون سبب كاف ؛ وأن ما يسوقه «كانت»، أو حتى أحد علماء ماوراء الطبيعة ذوى الميول العلمية مثل سير وليم هملتون، عن طبيعة قوى العقل، قد يمثل مجهوداً عقلياً قوياً ، ولكن النتائج لا تتناسب معه ، ونستطيع أن نحصل على لمحة خاطفة من عمل عقلنا، غامضة ولا تزيد فى جودتها على ما كانت عليه لوحة أشعة إكس منذ عشرين عاماً ، ولكن يرجح أن تظل طبيعتها سراً ضمن أسرار كثيرة ؛ وهذه الفكرة ، مضافة إلى الواقع وهو أننا نعالج فناً عملياً ، لا فلسفة مجردة ، حرية بأن تجعلنا نغض الطرف عن جهالتنا .

الفصل الثانى

كيف يقوم الفكر

قد يبدو من العسير الكشف عن طبيعة تفكير إنسان ما بسبب الطبعات المختلفة التى عادة ما يكون الفكر الحقيقى مختفيا تحتها ، بيد أننا إذا استخدمنا الاستكناه الباطنى زالت كل صعوبة ظاهرة ، وستوضح تجربة أو اثنتان أن مقاييس التقويم لفكر إنسان هى أولا الصور الذهنية التى تمرن عليها نفسها ؛ وثانيا ضروب الحب والبغض المتعلقة بهذه الصور ؛ وأخيراً الطاقة العقلية التى تجعل فى استطاعتنا أن نصل القرائن العقلية بنجاح أكثر أو أقل .

وواضح أن الشخص المفعم عقله بصور ذهنية للمتعة التافهة ، والراحة ، والطعام الجيد ، والملابس الفاخرة ، والرقص ، والأسفار ، والصحبة المسلية ، وبالاختصار للهناءة المادية ، أبعد جدا عما ندعوه بالفكر من الشخص الذى ستستحوذ على لبه وخياله المناظر الرائعة — مثل مناظر إيطاليا الطبيعية — ذات العناصر النبيلة ، وغرابة الأثريات وعراقتها ، والكنائس ، والمتاحف المليئة بنماذج الجمال ، وذكريات ضروب الحياة الفنية فى كل مكان ؛ وليس ثمة نزاع

فى تفوق الفنان على رجل المجتمع وسيدته اللذين لا يتميزان بأى شىء آخر ، وهذا ناتج عن علة واحدة فقط هى تفوق صنف من الصور الذهنية على الآخر ؛ وأيضا حينما يصبح عقل إنسان مثل رسكن أو وليم موريس مأهولا ليس فقط بصور ذهنية للجمال الحسى ، بل برؤى عن جنس بشرى أسعد وأفضل ، فإننا نوقر الصور الذهنية التى تزيد فى نبلها على تلك التى تبهج مجرد الفنان ، وليس من العسير ارتقاء سلم القيم الأخلاقية المتصلة بالصور الذهنية ذات الجاذبية ، عن طريق الاستعادة للذاكرة فى تتابع تلك الصور المميزة للشخص المحب لوطنه ، وللمصلح الاجتماعى ، وللمصلح الأخلاقى ، وللقديس أو المفسر الدينى العظيم ، وتزداد هـــذه الصور الذهنية تساميا أكثر فأكثر ، ولـكنها واضحة مليئة بالحياة للصوفى كما هى للفنان ؛ ترى أية رؤى تتسرب فى عقولنـا خلال استراحتها ، وأية مناظر ترد من أغوار ذواتنا إلى مخيلاتنا ! ينبغى أن نعرف ذلك لأنه لا مناص من أن تأتى تجربة فى أعقاب مجـرد الوصف للاستكناه الباطنى ، ومن ثمــة نستطيع أن نـكون قضاة لأنفسنا ؛ فالفـكر ليس بالشىء الذى يستهان به .

ومن المؤكد أن ضروب حبنا وبغضنا تتماثل من حيث الوضع مع الصور الذهنية المتصلة بها وسيكون من المرهق مواصلة الموضوع إلى أى مدى ؛ ومن الواضح أن أية صور ذهنية لا تهيىء لنا من الحق ما يبرر افتخارنا بها ، لن يكثر ترددها على عقولنا إذا قوبلت بمنطوق الحـكم ؛ غير مرغوب فيها ، غير مستحبة .

ومن الناحية الأخرى ينبغى أن نلاحظ أن معظم الناس أكثر إحساسا

بما ينفرهم مما يتفق مع رغائبهم ، فالثانية ضعيفة بينما تتسم ضروب النقص بالقوة ؛ فإنه لمن معالم الطبيعة البشرية المذلة أننا نشعر بالمرارة إزاء توافه قليلة تصادفنا فتضايقنا أكثر مما نقدر العديد من الأمور التى ينبغى أن تملأنا بالشكر وعرفان الجميل ؛ وفى الاستطاعة تعديل وجهة نظر مسافر ما على أساس بعيد تماما عن الإنصاف لأنه ، خلال الأيام القليلة الأخيرة من سفرته ، أوقعه سوء الطالع بين خليط من الأجلاف الأوغاد والبلهاء ، ولكن أحيانا يؤثر لقاءهم ، لأنه يجد متعة فى المظالم ، وتوافقا مع أسباب الإثارة والتغيظ ؛ وأى ناقد أدبى يشعر بالرغبة فى تقريظ كتاب ما سيهجوه وهو مبتهج إذا كان آخر فصوله معاديا لفكرة أثيرة إلى نفسه ؛ ولا يكاد يكون ثمة خلاف فى شعور التفاؤل الذى يملأ قلوب كل من تسامت أخلاقهم من الرجال والنساء الذين وهبوا طبائع طيبة دافئة ، حتى حين يتحققون من تفاهة العالم وعفونته ، ولكن ما أقل عددهم ! ومن الرائع أن نذكر أن أنطوان ـ البلجيكى المعالج بالإيمان ـ ذاع صيته فى أوربا بدعوته إلى محبة الأعداء ، وهو مبدأ تقليدى (نظريا) بين المسيحيين ؛ ومن حسن الحظ أن آلافا من الناس أخذوا هذا المبدأ على أنه دعوة جديدة وتحمسوا لها تبعا لذلك .

وثمة عارض آخر أو علة أخرى لنزعة التشاؤم تبدو فيما يوجد بعقلنا الواعى أو الباطن من العادات الفعلية الكثيبة التى يسميها أتباع فرويد بالعقد ، وسنعرج عليها فى الباب الثانى من هذا الكتاب ، ولكن علينا أن نلاحظها هنا فى الحال ، إذ من غير المستطاع أن نغض الطرف عن آثارها فى تقويم لطبيعة تفكيرنا .

ومن المستطاع الإضافة إلى الاستكناه الباطنى وضبطه عن طريق مصدرين من المعلومات لا نكاد نستطيع تقييدهما بالريبة والتظنن هما : وسائلنا الخاصة ، وأهم منها حديثنا ، وكلاهما متفتحان لكامل ضوء الوعى المتيقظ ، ولا يعوزهما التقصى من خلال عملية أكثر توغلا فى علم النفس ؛ ماذا نسمع أنفسنا تقول ؟ أنحن راضون وقانعون بمجرد التعبير اللفظى عن الصور الباطنة أو الظاهرة ؟ (« هذه العربة مسرفة فى سرعتها » . . . « كنت أود الحصول على عربة من طراز ستودبيكر » . . . « أحس أنى مستعد تماما لتناول الشاى ») بالطريقة ذاتها ، أليست رسائلنا مفعمة بالأحاديث التافهة والتفاصيل الرخيصة ، وهى لا تختلف عن رسائل الطاهى إلا بمزيد من قواعد اللغة وصحة التهجى ؟ ثم أليس إقبالنا على النقد بسرور أوفر من سرورنا بالتقريظ يبرز فى كثير من العبارات التى نستهلها بكلمة « أكره » . . « أمقت » « أحتقر » « لشد ما أنفر من » . . . وهكذا ؟ إذا كان الأمر كذلك فلن نستطيع الإفلات من الحكم الذى نصدره على أنفسنا : عاديون .

والعنصر الثالث الذى يلزم أخذه بعين الاعتبار إذا أردنا أن تكون قائمتنا التفصيلية كاملة هو استعادة خواصنا العقلية لطبيعتها دون تغيير ، ويستطيع المرء أن يخادع قوة الملاحظة فى مبدأ الأمر ، ولكن لا لأمد طويل ، عن طريقة نعومة اللفظ ، والثقة ، مع ذاكرة حافظة تمكن صاحبها من الإفضاء ، فى يسر بمعرفة سهلة المنال ، بل وأحياناً مسروقة دون تورع أو حياء ، وكقاعدة نستطيع أن نوازن بين رجلين ونعرف أيهما أوفر نشاطاً من الناحية الفكرية ، كما نستطيع أن نحكم ، فى حوض للسباحة ، على أسرع السباحين ؟ ، وفيما يتعلق بتقويمنا لمرونتنا العقلية ، فهى مسألة أمانة مجردة ، لا يعوزها سوى أبسط

ضروب التقصى ، فإذا كان عقلنا أفضل قليلا من مجموعة الصور المذكورة آنفاً ، فلن نفكر أكثر مما تفكر فيه إحدى المرايا ؛ إذا كنا نسأم أى موضوع أعلى من تلك التى تغذى ضروب كراهيتنا الحقيرة ؛ أو حتى ضروب محبتنا التى هى أحقر منها ، فإننا لا نفكر ، وإذا كنا حالما يثير كتاب أو صحيفة سؤالا يتطلب مزيداً من المعلومات أو التدبر ، نتثاءب ، ولا يقر لنا قرار ، ثم ننصرف عاجلا إلى شىء آخر ، فإننا نمقت التفكير ؛ وإذا كنا حالما نحاول إمعان الفكر ، نشعر فى الحال بتعب أو برغبة فى النعاس أو ميل لتكرار الألفاظ فقط ، فإننا لا نعرف ماهية الفكر ، وإذا كنا نعرف ماهيته فعلا ، ولكننا على حد قول مونتين « Montaigne » مسرفون فى الكسل إلى حد العجز عن معالجة مسألة ما بأكثر من «شحنة ذهنية أو شحنتين» — فنحن مفكرون مهزولون؛ إذن فما نحن حقاً ؟ .

قطط مهجنة ، عبيد أذلاء يقلدون سادتهم ، فحينما يزور مسافر الولايات المتحدة لأول مرة لا يسعه إلا أن يشاهد ظاهرة غريبة ، فعملية « الأمركة » ، أو أخذ الطابع الأمريكى — تحويل عدم التجانس الأجنبى إلى تجانس أمريكى — لا تتم ، كما تتوهم مراكز الأمركة ، عن طريق الاستعاضة بمجموعة من الآراء الجديدة عن أخرى قديمة ، فالأمر يتم بقدر أوفر من البساطة واليسر ، فقبل أن يبدأ المهاجر الجديد فى تحصيل اللغة التى يسميها الأمريكية بزمن طويل ، بل قبل أن يغير اسمه من سلفيو إلى سليفان ، فإنه يحاول أن يكون أمريكياً على قدر ما تسمح له به موارده البسيطة ؛ فيزيل شاربه ويقص شعر رأسه على أدق طراز عسكرى ؛ ويتردد على الملاعب وسرعان ما يتعلم صيحة تشجيع اللاعبين ؛ وكذلك يشرع عاجلا فى كبت ما هو معروف عن قومه من سرف

عاطفي ، فلا يبدو له أثر على وجهه ، ويستعيض عنه بتثاقل مرموق ، وإنك لتراه تسع مرات من عشرة ، يحاكي الأمريكي في تردده قبل أن يتكلم ، مع حركة صامتة بالشفتين كثيرة الانتشار بين الأمريكيين من طبقته ؛ ولا يجد صعوبة في الاعتياد على التحية باليد ؛ التي يحتمل أن تكون أمريكا قد استعارتها من أسلافه الرومان،وكان البعض قد ذكروا له قبل قيامه من نابولي، أن الشطر الأكبر من الأمريكي المحترم يتكون من الملابس الفاخرة ، ولذلك يضع فيها أول مبلغ يصل إلى يده ، ولا يساوره أي شك في أن بلاداً يحصل فيها صبي في الثامنة عشرة من عمره ، على مائة وخمسين ليرة في اليوم الواحد ؛ لايمكن إلا أن تكون بلاد الله الخاصة، وهذه الفكرة تجعله يتقزز من روائح إيطاليا ، وحينما تحل الساعة التي يستطيع فيها أن يكتب لأهله بالوطن بأنه يتكلم « الأمريكية » الآن ، يصبح مستعداً لكي يؤمن العالم ، بأي ثمن ، بالديمقراطية والمرأة الأمريكية ، ثم يضيف قائلا: إنه ينبغيأن تعطى له أوراقه دون تعطيل مدة أسبوع آخر ؛ وقد جاءت العملية برمتها من الخارج ؛ ولعل عنصرها الأساسيكان تحرك الشفاه الصامت ؛ وهو علامة على ضرب رفيع من الاستيحاء الذهني .

ماذا يفعل معظم الناس الذين ليسوا مهاجرين مساكين بل مجرد« ناس»؟ ألا يتكونون من ملابس؛ وصنوف طراز ؛ وأنواع سلوك ، واصطلاحات لفظية ، (أنصت لما تسمعه في الأوبرا أو في معارض الفن) ؟ أليست مواقفهم من الحياة بل حتى قبل الحياة نسخا من نماذج متفق على تعميم مستواها ؟ أليست حيواتهم جميعاً متماثلة ؟ .

إن معظم هذا الاستجواب من النوافل ، فنحن نعرف أن تسعة عشر رجلا من عشرين، لايفكرون ولكنهم يعيشون كما يعيش الإنسان الآلى ؛ وقد أنبت مرة ، مستر أرنولد بنيت، إذ وضع لأحد كتبه عنوان :« كيف تواصل الحياة أربعاً وعشرين ساعة فى اليوم؟ » فواضح أن هذا العنوان يوحى بكتاب لقوم محمومين ذهنياً ، ومن ثمة يبحثون عن وسيلة يحشرون بها ثمانى وأربعين ساعة فى أربع وعشرين ؛ ولكن الكتاب ، على النقيض ، وضعه مؤلفه للمتبطلين من الناس ، بغية دفعهم لأن يعيشوا أربعا وعشرين ساعة فى اليوم ، ومن ثمة كان ينبغى أن يكون العنوان الصحيح : « كيف تعيش أربعاً وعشرين ساعة » أو « ساعة » أو « عشر دقائق » فى اليوم ؟ ؛ ذلك لأن معظم الناس لا يعيشون حتى هذه الفترة فى اليوم ، وكان سفر مستر بنيت جديراً بأن يكتب .

الفصل الثالث

التفكير الصحيح

يدخل مفكر .... وجميعنا شاهدناه منتصبا وسط لفيف من غير المفكرين الذين كثيراً ما يتسمون بالبلاهة ، وقد غمرتهم الدهشة وران عليهم الشك وعدم التصديق ؛ وأحيانا يكون رجلا ممعنا فى بساطته، ميكانيكيا يخرج متريثا من حظيرة السيارات التى يديرها ؛ وحول السيارات رجلان أو ثلاثة رجال ، ما زالوا مستغرقين فى الكلام بانفعال ظاهر ، وقد راحوا يتكهنون بالعطب دون جدوى، حين برز إليهم الرجل المقتصد فى كلامه ، وكانوا قد قضوا ساعة كاملة يتكلمون ويجادلون ثم أخفقوا ، فيكفون عن الكلام وما من أحد بعد ذلك ينبس ببنت شفة ، ويروح الصانع الفنى ، بعينيه المتوقدتين الذكيتين ، ويديه الماهرتين غير المتخاذلتين ، يفحص أجزاء الآلة ، وفى غضون ذلك نفطن إلى أن ذهنه يستعرض عشرات الافتراضات التى تبدو لنا مجرد ألغاز أو أحاجٍ ، وسرعان ما يستكشف العطب ، وأحيانا يداعب الابتسام شفتى الرجل ، علام ؟ وممن ؟ هذا ما يثير حيرتى دائماً ، ولكننا شعرنا ، على أية حال ، بوجود عقل مفكر .

هالك فراش يلتف حوله نحو عشرين طالبا من طلبة كلية الطب ، وقد قام بفحص المريض ثلاثة أو أربعة منهم ، ويقوم الآن بهذا الفحص طبيب امتياز ، وذلك لأن حالة المرض ممعنة فى طرافتها وأهميتها ، وقد تُدْرَج بالمراجع الطبية. وبين الفينة والفينة يتفوه الطبيب اليافع بكلمات قليلة، سرعان ما يسجلها العشرون بأقلامهم ، ولكن هزة تسرى فى أوصال الحشد الصغير ، فقد أقبل أستاذهم النابغة وهو بينهم الآن ، لسماعه عن هذه الحالة ورغبته فى أن يراها بنفسه، وفى لحظات قليلة ينحنى الرأس الرائع نحـــو المريض ، ويبدأ منظر لا ينساه أولئك الذين شاهدوه مرة ، ويخيم الصمت حتى لكأن الطير على رءوس الأشهاد ، ويستقر الآن ذكاء الطبيب الذائع الصيت فى أذنه ؛ وراح النابغة ينصت وقد أغلق عينيه ، وارتسمت على محياه علائم الاستيحاء الذهنى ، وفى فترات قصيرة يبدو عليه تألق مستبشر يبين أن الفحص يسير فى الطريق السوى : وكل صوت مهما دق ، وكل انقطاع فى الصوت ، لا يمـــر دون تريث وتمحيص : فالطلبة يدركون أنه حتى الطية فى تجويف الصدر (Pleura) تصبح مرئية لهـــذا النابغة حين إنصاته متسمعا، ويمر نصف ساعة دون أن يمل هذا المنظر أى شاب من هؤلاء ، على الرغم من صمت الطبيب الكبير واستغراقه فى التفكير : الذى يعتدل أخيرا ويعود من رحلته الفكرية الطويلة : لقد تكشف المرض كما لو كانت جميع الأعضاء على منضدة التشريح — كما سيحدث لها ، مع الأسف بعد أيام قليلة — وفى كلمات قليلة يشخص المرض : إن العقل الذى لا يقهر قد اخترق حواجز الصدر الصلبة ، متغلغلا إلى أغواره ، متمما عمله الملهم .

أتعرف صورة سيزان التى رسمها لنفسه ، فهى أعجوبة تمت بوسائل بسيطة ميسرة قد يحصل عليها المصور من جزيرة قاحلة ؟ ولو أنك تطلعت إليها عشر

ثوان فقط ، فلن تنسى العينين قط، فهما صافيتان ، جامدتان ، جافيتان ؛ باردتان ، قاطعتان كالصلب ؛ فالفنانون عادة لهم تلك العيون التى فطرت على ألا تحب الحقيقة، على حد قول الناس ، بقدر ما تؤثر التغافل إلى أغوارها ؛ وكانت عينا «ديجا» من هذا الصنف تماما ، وقد رأيت تلك العينين ، منذ زمن غير بعيد ، فى رأس مصور يافع ، كئيب ، أنيق الملابس ، فاسترعى اهتمامى ، وتبادلنا نظرات حادة كالسيوف الصوارم ، قصية فوق منطقة المجاملة الخالصة ؛ وهذه العيون ترى حيث لا ترى عيون غيرها ؛ وما هى قوة نابليون أو حتى موسولينى ؟ ليست مجرد « قوة » بل جاذبية ، والجاذبية أقرب إلى الذكاء منها إلى العنفوان؛ ورجال كهذين « يرون » ضرورات حقبة ما ، والويل للناس الذين لن يرونها مثلهم، فاحتقار النسر لأصغر المخلوقات الزاحفة فوق الثرى أقل من احتقارهم لهم.

وإنى لأذكر مرة أخذت «أنجلييه Angellier [1]» على حين غرة، إلى حجرة استقبال كانت علية القوم تملؤها باللغط الناعم الصادر من العدم الأنيق فجلس وأرهف أذنيه للسمع ؛ وكان له رأس لا تلمحها عين ، مهما كان احتشامها دون أن يستوقفها ، فهو رأس يستقر فى اعتدال ، فوق كتفين رياضيتين ، توهمان الناس بأنه فارع العود ولكنه لم يكن كذلك ، ولكنه كان يتمتع ، فوق كل شىء ، بقدرة على الانتباه ، مرئية فى عينيه الغائرتين العميقتين ، حتى بدت كما لو كانت تلتقى بالفعل شبا كا حول العالم الخارجى ؛ ولم يتيسر التغاضى عن ملاحظة عدم التوافق بين ما بدا كما لو كان أنجلييه يتوقعه ؛ وما لقيه من معاملة فى أصيل ذلك اليوم ، ومع ذلك فبعد دقائق قليلة أصبح الحديث أكثر

(١) أوجست أنجلييه ، أستاذ الأدب الإنجليزى بجامعتى ليل وباريس ، ناقد أدبى وشاعر ، وقد مهد له طريق الشهرة كتاباه عن روبرت بيرنز ، ومقطوعاته الشعرية الغنائية « Sonnets » بعنوان : (إلى الصديقة المفقودة) ؛ وكان نفوذه الشخصى يفوق المعتاد .

أصالة ، كل لفظ منه موجه إلى هذا الرجل المجهول ذى الوجه المترقب ، ولذلك سرعان ما جاء الجزاء الحسن ، فقد ركب أنجليبيه شيطانه وراح يفيض علينا من بدائعه : سلسلة من العبارات المتألقة التى سربلتها استعاراته الشكسبيرية فى وهج سحرى ؛ وكان منظراً فريداً أعاد إلى الذاكرة وصف أنجليبيه لروبرت بيرنز فى غرف الاستقبال بمدينة أدنبرة .

وعظماء الرجال ، على حد قولك ، هم جميعا ممن أحرزوا الشهرة بقسط كبير أو ضئيل ! وهذا حق ، ولكن هل ثمة كائن بشرى واحد لا يعرف ، بين جيرانه الأقربين ، رجلا أو امرأة موهوبا بقدرة على الرؤية العقلية ، تعلو فوق المستوى إلى حد رائع مرموق ؟ أهناك قرية لم تقم فيها نجمة قروية بالدور الذى مثلته برتويل برونتى فى هاروث ؟ وهل هناك أسرة واحدة ، أو حلقة اجتماعية صغيرة ، بدون مفتيها ، الذى يقال عنه ، كلما برزت مشكلة أو استعصى الرد على سؤال عسير ، أوه ! سيلم بكافة أطراف الموضوع ويهتدى لحله ؟ وقليلة تلك الأحاديث التى تمر دون أن تصدر عنا هذه البادرة العقلية : لم أفكر فى ذلك ؛ وهذا يعنى أن شخصاً ما ، ولعل هذا بمحض الصدفة، كان من زمرة المفكرين، وبعد الثورة الروسية ، عام ١٩١٧ ، بوقت قصير ، راح لفيف من ستة أشخاص ، بأحد أندية باريس ، يزجون الوقت بالتحدث فى موضوع الساعة آنذاك ، وهو عقد مقارنة بين قيصر روسيا ولويس السادس عشر ، وبين القيصرة ومارى أنطوانيت، وبين كيرفسكى والجيرونديين الفرنسيين، وغير هذا من موضوعات ، حتى يتيسر تقصى مستقبل روسيا فى يسر من تاريخ الثورة الفرنسية ؛ ورفع شخص عقيرته قائلا : « أوه ! تظنون أن الأزمة قد انتهت ، أليس كذلك ؟ ولكن ما هذا المجلس الذى ينعقد من جنود وعمال

بمحطة فنلندة ؟ انتظروا ، فسترون ماذا يسفر عنه ذلك» . وكان حدسا ملهما متألقا ! لم تمر بضعة أسابيع حتى بدأت الوقائع تثبت صحته .

هذه الاختبارات مألوفة لنا جميعاً ، وغالباً ما تترك خلفها أثراً عميقاً ؛ ونحن نحن إلى أن نرى المفكر حين ينشط للعمل ، ذلك لأن شخصيته ، مقترنة بعدم توقع تصرفاته، تذهب فى تأثيرها علينا حداً يفوق حتى الفكرة الملهمة التى يمدنا بها ، وما من أحد ينكر أن الفكر ، كالخطابة ، يزكو باستقائه من النبع ؛ ولم يقدر الملكيون شيئاً فى بسكال مثل تقديرهم لما أطلقوا عليه اسم « فصاحته » : ولم يكن اللفظ ليحمل إليهم من المعنى مثل ما يحمله لنا ، وهو البلاغة الساحرة ، بل قدرة الإفصاح ، الحاضر غير المتلكىء ، عن أفكار يتعذر صياغتها من ألفاظ ؛ ومن المحتمل أن يكون اهتمامهم بالمذكرات التى يكاد يستحيل قراءتها ، والتى خلفها الفيلسوف من بعده ، ينحصر فى الأمل بأن هذه القصاصات من الورق تعيد للحياة طابع إبداعه ، ولا يشك قراء بوزويل فى أن جونسون كان متحدثاً بارعا من طراز غير مألوف ، ولكن ما أقل عدد طلاب الأدب الإنجليزى الذين لديهم فكرة واضحة عن أنه كان فى الاستطاعة تسمية حقبة عشر سنوات من القرن الثامن أو حقبتين بعصر جونسون لو أن الأمر كان مقتصرا على المرجع اللغوى الذى وضعه ، وراسلاس وحيوات الشعراء ، فعبقرية جونسون كانت فى حديثه لا فى كتبه ، ويقول ليون دوديه ، مشايعا لمارسيل براوست ، بأننا نهوى حديثا «مليئا بالزهور والنجوم» فالنجوم هى الأفكار النادرة والزهور هى الصورة الساحرة للتعبير عنها .

ومع ذلك فإننا ، من حين لآخر ، نجد أن انتشار آراء مفكر ما يتم دون

تدخل منه ، إما لأن المفكر لم يكن فصيحا، وإما لأن أفكاره كان من العسير فهمها ، وإما لأن الرجل نفسه ظل غامضا مغلقا على معاصريه ، هـذه الظاهرة لا يسعها إلا أن تعطينا صورة رائعة عن عظمة الفكر ؛ ضع فى الميزان ديكارت ، اللاجىء إلى هولندا ، أو تلميذه سبينوزا ، الصانع الفنى ، أو كانط ، ذلك الطراز الإقليمى للأستاذ الجامعى ، أو كارل ماركس ، بأن توازن بين شخصياتهم ونفوذهم ، فالتناقض بين ضروب حياتهم المتواضعة والوهج العقلى الذى خلفوه من نقدهم لما يثير العجب العجاب ؛ وإن إشراقة واحدة تسطع داخل عقل بشرى ، وعلى الرغم من انعدام النفوذ البشرى تماما ، وعلى الرغم من طبيعة المبادئ المغمورة ، على الرغم من اختفاء الموهبة الأدبية ، فإن تيار البشرية العقلى برمته سيتغير طوال بضعة أجيال ، وتصبح العملية أكثر تألقا وإثارة للدهشة والإعجاب حين تكون شخصية الرجل قوية كنفوذه (يوليوس قيصر ونابليون) ولكن هذا ليس بالأمر الذى يفوق المألوف ، وفى الاستطاعة القول بأن الفكر هبة إلهية لأنه مبدع خلاق .

* * *

أية سمات تميز الفكر ؟، واضح أن أولى هذه السمات هى الرؤية : الكلمة التى تقوم أساسا على كل سطر من الأوصاف الآنفة الذكر ، فالمفكر قبل كل شىء رجل يرى حيث لا يرى الآخرون ، ذلك لأن جدة الأشياء التى يقولها ، وطبيعتها كضرب من الإشراق الملهم ، والسحر المقترن بها ، كل هذا يصدر من الحقيقة القائمة وهى أنه يرى ، وهو يبدو كما لو كان يعلو فوق الجماهير برأسه وكتفيه ، أو أنه يغذ السير فى طريق مرتفع ، بينما غيره يسير فى تثاقل أسفل الطريق ، والاستقلال هو اللفظ الذى يصف الظاهرة الأخلاقية لهذه

المقدرة على الرؤية ، فليس ثمة ما يثير الدهشة أكثر من انعدام الاستقلال العقلى عند معظم الكائنات البشرية : هم يتماثلون فى الرأى ، كما يتماثلون فى السلوك ، وهم راضون تماما بأساليب المجاملة المعادة المتكررة ، وهم إذ يفعلون هذا ، يتطلع المفكر حواليه ، مطلقا العنان لحريته الفكرية ، وقد يرضى بالإجماع المعروف بالرأى العام ، ولكن هذا الرضا لن يكون مبعثه عمومية الفكرة ، بل إن هذا الشىء الذى تحميه هالة من القداسة ، المسمى « الذوق السليم المشترك » لا يكفى سببا لحمله على المشاكلة مع نمطية الجماهير ، وأى شىء كان فى الاستطاعة أن يبدو أكثر صلة بالجنون ، فى القرن السادس عشر من إنكار حقيقة — لأنها كانت حقيقة — أن الشمس تدور حول الأرض ؟ ومع ذلك فلم يكترث جاليليو : وينبغى أن نقف مبهورين أمام شجاعته الأدبية أكثر مما قد تبهرنا شجاعته البدنية ، ولكن بعد ذلك بثلاثمائة عام ، لم يكن الموقف بأقل صعوبة على هنرى بوانكاريه أن يقرر أن الفكرة القديمة كانت تحمل من الحقيقة العلمية قدر ما تحمله نظرية جاليليو ؛ وإنكار أينشتين لنظرية استحالة تلاقى المتوازيين ، إنما هو دليل باهر آخر على الاستقلال العقلى .

كم من الناس ــ فى أغسطس عام ١٩١٤ ــ هزوا رءوسهم إزاء يقين العالم بأن الحرب لا يمكن أن تستمر أكثر من ثلاثة أو أربعة شهور؟، قليلون جدا ، ومئات من الناس ، فى أوربا ، يحاولون حماية المشاة من سائقى العربات ، ولكنى لا أعرف سوى واحد فقط هو الذى فكر فى الإجراء الأصيل العملى الذى من شأنه وحده أن يرغم السائق على الإبطاء وتخفيف السرعة : وهو أخذ آلة التنبيه منه ! وكل إنسان يسخر من الخطب الرنانة الجوفاء التى تردد قاعات المجالس النيابية أصداءها ، والمهيأة دون شك للتأثير على بعض دوائر

انتخابية قصية ، وثمة طريقة سهلة لتقليل هـذا الشر إلى حد كبير ، وذلك بإرغام الخطباء على الـكلام وهم جلوس ، ولـكن من ذا الذى يفكر فيها ؟ ، وكم عدد الأمريكيين الذين يدركون أن بلادهم ليست ديمقراطية ، ولـكن تديرها أقلية من رجال الحكم الأقوياء ، وأنها مدينة لهذه الحقيقة بالنصيب الأكبر مما تتمتع به من استقرار وثبات ؟ ، وكم عدد الفرنسيين الذين يرون — إذ يمكن رؤيته — التناقض بين طراز مبانيهم الحديثة ، والآثار النادرة أو البالغة حد الروعة ، المبعثرة فى شتى أنحاء بلادهم ؟ ، ومن المؤكد أن العالم يعيش على الكلمات التى لا يكف عن ترديدها حتى ينبرى مفكر ، أو خبرة متكررة (خبرة تحطم الغباء) فيصنع ثغرة فى حائط التماثل الصلب البليد .

ويبدو أولئك الذين يفكرون لأنفسهم بمظهر المتعالين الراضين عن ذواتهم، لأنه يتعذر عليهم أن يكونوا غير راضين أو أن يكونوا من الضالين العابثين ، لأنهم يحطمون الأصنام ، ولا يسعهم إلا أن يستمتعوا بهذه الرياضة؛ والرجال الذين من طراز مستر برنارد شو العقلى سيأسفون حقاً لو أصبح جميع البلهاء من الناس بغتة عاقلين مثلهم، والازورار عن الضعف الخلقى والتلاعب به دون إشفاق ، هما ضرب من المران الصحى للمواهب العقلية : ويعج الكتاب المقدس بالأمثلة على هذا؛ ويحتمل أيضاً أن يتشبث المفكرون بأفكارهم وفرضها على الآخرين إلى حـد العنت والاستبداد ، وعلة ذلك أنهم إذ يرون الحق — الذى يطلق عليه اسم آخر وهو الخلاص — ويعلمون أن غيرهم من الناس لن يروه ، فإنهم يعاملونهم كما ينبغى أن يعامل الراشدون الأطفال ، ومرة أخرى يمكن استخدام موسـوليني كمثال فى هذا الشأن ؛ ولـكن المفكرين ، فى أغوار طبائعهم ، معلمون من الطراز الأول ، وإنه لمن الصالح لهم أن يكرسوا حياتهم للدعوة إلى الحق الذى

يرونه ، وبعضهم يفعل هذا فى خطب أو كتب رائعة ، وآخرون فى لغة الفنان النابضة بالحياة ، ولكن مهما كانت وسيلة التعبير ، فإن التعلق بالحق يظل مرئياً واضحاً ، ويتراءى بعض رجال الأدب كمبتكرين بسبب طبيعة تعبيرهم الممعنة فى غرابتها ، ولكن أقل جهد فى سبيل اختزال أروع صفحة من إنتاجهم لاستخلاص ما فيها من إصلاح الفكر المجرد سيبين أنه ليس لديهم ما يقولونه سوى القليل : فلعدم استطاعتهم أن ينبروا كمعلمين ، ولا مناص من أن يقنعوا بتقليد « البهلوان » الذى يلقى خطاباً وهو واقف على رأسه ، مؤكداً كلامه بحركات من ساقيه بدلا من يديه ورأسه ، رجال كهؤلاء سيجدون مقلدين لا أتباعا ومريدين ، فى حين أن المفكر — سواء شاء أو لم يشأ — قائد وزعيم .

الفصل الرابع

استطاعة إيجاد فن للتفكير

أى رد فعل يصدر عنا فى حضرة مفكر ما ؟ هو بالذات ما يصدر عنــا فى حضرة إحدى الحسناوات : فالدهشة تغمرنا فى مبدأ الأمر ، وفى أعقابهـا يأتى الإعجاب ، بيد أن الإعجاب عند بعض الناس يصحبه خمود الهمــة ، بينما هو عند البعض الآخر يغمرها ويزكيها ، وصفوة رجال الأدب الذين يسرفون فى التفـكير فى بواعث الإعجاب يخطف بصرهم بريقه فلا يتحركــون ، وهذا على نقيض ما يفعله القوم العاديون ، أما الذين يتسمون بمزيد من الثقــة فتفكيرهم لا يكاد يعتوره أى تغيير : «عار على ألا أتـكلم مثل ذلك لعلنى كنت أفعل هذا ! لو أنى فقط أحرزت الفرص التى أتيحت لهـذا الرجل وتعليمه ، وخبرته فى الأسفار، وعلاقته بالناس التى عودته على أسلوب رفيع فى الحديث، أو حتى على موسوعة لفظية طيبة ، إذن لمـا كنت الشخص الأبكم المتبلد الذى يتراءى للناس قطعاً فى إهابى » وهم يظنون فى أعماق قلوبهم أن التميز موجــود غير مكتسب ، ويعودون باللائمة على القدر ، وآخرون تأخذهم الريبة بأن وراء هذا كله «وصفة» لايعرفونها ولـكن من الميسور أن يتعاموها ؛ ثم يبدو عليهم أنهم

يقولون : « أخبرونا كيف ! » ولا يساورهم أى شك فى أنهم لو حصلوا على «الوصفة» لجاءت النتائج فوراً فى الأعقاب ، وإذا صرفنا النظر عن بلهاء السامعين الذين ينظرون إلى متحدث بارع كما ينظر فرنسى بخيل طاعن فى السن إلى أمريكى سخى ، أعنى أن يعتبره أعجوبة غير سوية التكوين ، فإن الناس يشعرون بصلة قرابة تربطهم بنماذج البشرية الموهوبة ، والفارق الوحيد الذى يرونه بين هؤلاء وبين أنفسهم هو عارض يعود للصدفة المجردة ، ويحتمل أن يزول فى لحظة : وبعبارة أخرى فإنهم يؤمنون بفن التفكير .

ولماذا يفعلون ؟ فى بساطة ، لأن معظم العاديين منا يذكرون لحظات ، يلمحون خلالها ذات مناطق العقل التى يعكسها الحديث البارع ، وأى شخص متصل بالريفيين ويألفهم ، حتى أقلهم تثقيفاً ، يعرف أنهم ممن يستهويهم جمال فطرى ، منظر طبيعى ، آخر بسمة يفتر عنها ثغر الخريف لغاية ما ، غروب الشمس ، مروق طائر برى ، كما يستهوى فناناً أصيلا أو شاعراً محترفاً ، وكل ما يعوزهم هو الألفاظ ، أو فى الأرجح ، هو الثقة ، ويؤثر الكثيرون منهم عدم التحدث عما يضطرم فى أعماقهم من ضروب الحب كما يؤثرون عدم تغيير لهجات حديثهم .

ويكف البلداء من الناس عن بلادتهم ، حين يسمعون خطاباً رائعاً ، أو يطالعون كتاباً من الصنف المحتمل أن يستثير إمكانياتهم النائمة المعطلة ، ولعل واحداً فى الألف من البشر لا يستهويه سحر الموسيقى على الإطلاق : أما الباقون فلا يستطيعون ، مهما كانوا أجلافاً ، سماع نشيد عسكرى ، أو أغنية عاطفية ، أو موسيقى منفردة ، دون أن تعروهم نشوة لا تختلف إلا فى درجتها ،

عن الحالة العقلية التى أنتج فيها شلى قصيدته « الهزار »، وغير خفى على الرجال والنساء ذلك الفيض العجاج من الانطباعات العقلية النادرة ، مع إحساس بدفء غير مألوف حول القلب ، وكلنا ندخر ذكرى مثل هذه اللحظات ، ولا يحدث قط أن تتكلس أو تتبلد ذواتنا نتيجة الحياة وتأثيرها الصلد ، ومن ثم نتمنى عودتها .

كذلك ما من أحد إلا ويشعر بفترات ساحرة يكون عقله خلالها فى أحسن حالاته ، ويعمل بسرعة وبغير خطأ ، وينتج الأرق ، قبل أن يصل إلى حد الإعياء ، صفاء ذهنياً ، لا يعوضه أى قدر من التأمل العادى ، ولفظة رجال الأدب تثبت هذه الحقيقة ، وعلى النمط ذاته تؤثر العزلة الطويلة مصحوبة بالصوم الخفيف ، وهذه الحالة أيضاً معروفة لرجال الأدب جميعاً ، وقد اعتاد ديكنز أن يسير طويلا مخترقاً شوارع لندن خلال الساعات المتأخرة من الليل ، حين لا يستطيع أن يقابل سوى رجال الشرطة الذين يغالبون النعاس، أو القطط الضالة، ويعلم معظم الكتاب أن مؤلفاتهم مسطورة فقط ، ولا تنبض بالحياة ، حين لا يستطيعون أن يفصلوا أنفسهم من أسرهم ، وينشدون الهدوء ببلدة قديمة أو بفندق ريفى بعيد حيث لا يخاطبهم أى مخلوق ، وإذا حاول إنسان ما تجربة اجتياز المحيط على ظهر سفينة هادئة دون أن يتخذ لنفسه رفيقاً من المسافرين ، فسيجد بعد ثلاثة أو أربعة أيام أنه قد أحرز نمطاً فى التفكير غير النمط القديم، فمثل هذه التجربة تسفر عادة عن عشرة أيام، أو حتى ثلاثين يوماً ،من العكوف الصامت على مزاولة الصلاة وبعض الطقوس الدينية .

وفى استطاعتنا جميعاً ، حتى بدون أن تتكرر عودة اللحظات المليئة بالنشوة التى تقطع حبل حياتنا التقليدية غير المتغيرة ، أن ندرك ما يجول بذهن المفكر

بأن نستعيد للذاكرة عهد طفولتنا ! فجميع الأطفال ، تحت سن التاسعة أو العاشرة ، شعراء وفلاسفة ، وهم يدعون أنهم يعيشون معنا ، ونحن نتوهم أننا نطويهم تحت سلطاننا حتى تصبح حياتهم ليست إلا انعكاساً لحياتنا ، ولكن الواقع أنهم منطوون على ذواتهم مثل القطط، وأنهم دائمو الاستغراق فى غمرة النشـــوة السحرية التى تحتويهم إزاء ما يرونه فى أغوار نفوسهم ؛ وثروتهم العقلية تفوق المألوف . ولا يستطيع أن يعطينا بعض الفكرة عن هذه الثروة إلا عظماء الفنانين والشعراء ، الذين يماثلون الأطفال دون شك ؛ وقد يكون طفل صغير ذهبى الشعر ، وهو يلعب بالحديقة منهمكاً يؤلف منزلاً صغيراً من قطعه الخشبية ، شاعراً طوال الوقت بغروب الشمس ، فى حين يدعى أنه لا يتطلع إليها؛ ... وقالت الحاضنة يوماً وهى تخاطب (فليسيتيه دى لامينيه) وهى طفلة فى الثامنة من عمرها: « هيا بنا ! لقد تطلعت طويلا إلى تلك الأمواج والجميع آخذون فى الانصراف » فكان الرد : « إنهم يتطلعون إلى ما أتطلع إليه ، ولكنهم لا يرون ما أرى » وهو رد لم يقصد به التفاخر بل مجرد رجاء للبقاء . ومن يستطيع التكهن بما شاهده أربعة أطفال برونتى الصغار أو لم يشاهدوه ببرارى بريطانيا التى كانوا يذرعونها ، يوماً بعد يوم ، وأيديهم متشابكة ؟ وأنت ألا تستطيع أن تتذكر بحثك عن تهاويل خيالية فى مجرد بقعة حمراء بصفحة من الورق أو بصندوق ألوانك الصغير ؟ إن معظم الأطفال الأذكياء ، كما كان الحال مع نيومان ، تساورهم شكوك الفلاسفة عن وجود العالم ، فأنت تراهم ينظرون إلى حجر وقد غمرتهم الدهشة وحب الاستطلاع ؛ فتتصور أن «الأطفال هم هكذا مضحكون» وهم طوال الوقت يريدون أن يعرفوا ما إذا كان الحجر خالداً وما هو معنى الخلود ؛ وإن أنسى لا أنسى طفلة صغيرة فى التاسعة من عمرها سمعتها تقاطع حديثاً لأساتذة جامعيين كانوا يتحدثون عن

لا شيء ، كى توجه هذا السؤال المربك المحير : « أمى ، ما هو الجمال ؟ وما الذى يصنعه ؟ » .

ويظل تفوق العقل هذا يلح حتى تبدأ نزعة التقليد عند الطفل تعمل من الخارج للباطن ؛ وحين يبدأ الطفل جاك فى محاكاة طريقة والده فى تحريك رأسه أو هز كتفيه ، تبدأ روحه الصغيرة المسكينة أيضاً فى الرضا بطرد الأسئلة ؛ وسرعان ما ينحسر ذلك المد الرائع من الاهتمام الذى يملأ روح الطفل ليتركها جافة قاحلة ، وقد يصدف أن تتكرر عودة هذا المد ؛ وحين يقوم صبيان المدارس بتحرير موضوع إنشائى ، ترد على خواطرهم أفكار يدركون أنها ما يسمى بالأدب ، ولكنهم لا يجسرون على تدوينها . والإلهام الذى تساء معاملته ، بدوره ، لا يجسر على العودة ، وصوب هذه اللحظات من الإلهام نعود بأبصارنا فى يأس ، نحن الذين اتخذوا الأدب مهنة لهم ، متسائلين عما أحضر حصاداً من الأفكار الفجة المعادة لتحل مكان إلهام مبرز اعتاد أن ينساب بالفطرة دون عناء ؛ وليس بمتعذر أن يدرك المرء طريق العبور من الطفل إلى الفنان اللامع أمثال بليك أو هويتمان فى إنتاجهما .

وينسى الناس طفولتهم ، دون شك ، وهذه خسارة لا يمكن تعويضها أو تلافيها ، مهما حاولوا تصغير شأنها ، ولكنهم يظلون يتذكرونها زمناً طويلاً ، ويحاولون تخفيفها عن وعى قل أو كثر ، ولا مراء أنه لا يجول بخاطر واحد فى الألف بأنه كان أكثر ذكاء وهو فى الثامنة منه الآن وهو فى الخمسين من عمره ، ولكن لا يقل صدقا القول بأن العلاقة التى نحسها بين أنفسنا وبين الرجل الذى يبهرنا مؤسسة على ذكريات ساعات عظيمة أو على ذكريات الطفولة ؛

وقد يفكر الفرد منا فلا يجافيه الصواب ، ويروح يقول لنفسه : « لقد تخلفت وقل شأنى » أو « إنى ضحية ، فلقد جافانى حسن الطالع » وكثيراً أيضاً مانسمع، عقب هذا الاعتراف الآتى من الأغوار شعوراً أكثر استبشاراً يغمغم قائلاً : « إن أسلوب حياتى يصعب تغييره ، أعلم ذلك ، بيد أنى إذا حاولت القيام بأى جهد ، كأن أتقدم خطوة واحدة وأقول لنفسى : « منذ الآن فصاعداً لن يكون حديثى ضرباً من الهراء قط ، ففى لحظة أستطيع أن أخرج من قطيع غير المفكرين لأصبح واحداً من القلائل الذين يقودون هذا القطيع » وقد تكفى أتفه الأشياء ، كطنين ذبابة أو اصطفاق باب ، لتشويش هذه الحالة الذهنية وإعادة الأفكار العادية بكامل قوتها ، ولكن لا يقل عن هذا فى صدقه القول بأننا ، خلال دقائق قليلة ، انفصلنا من حياة عقلية رفيعة برؤية أدركنا أنها كانت فى متناول يدنا ، وبجهد لم يبد أنه مصدر للإرهاق .

كل هذا يرق بنا للقول إن لدينا اعتقاداً فطرياً بوجود فن للتفكير .... وبعض الناس حائزون عليه والبعض الآخر غير حائزين ، ولكن على هؤلاء الأخيرين ألا يلوموا سوى أنفسهم .

أهذا حدس حقيقى ؟ وهل علينا حقاً أن نعتقد أن فورة الفكر والشعور الدائمة فى الجسم الفقير من الأرواح تذهب أدراج الرياح كما تذهب أمواج البحار؟ وهل كان جراى على حق فى تفكيره :

كم من جوهرة تخطف الأبصار بأصفى الأشعة وأبهاها ،

مستكنة فى أغوار المحيط المظلمة التى ليس لها قرار ؛

وكم من زهرة استقامت على عودها لتتفتح فى الخفاء ،

مضيعة شذاها العطرى مع سافيات البيداء .

* * *

ومن يستطيع الشك فى هذا ؟ ألم يتخلص روبرت بيرنز من الأمية بالصدفة المجردة ؟ ومن ذا الذى لا يتبين عنصر الحظ فى حياة شكسبير ؟ ألا تشير حياة ريمبو إلى أنه فى استطاعة رجل أن يكون رجلين ؟ فالقوم الذين عرفوا مسيو ريمبو ، فقط كرجل للأعمال بأفريقيا الشرقية ، لابد أن تكون الدهشة قد عقدت ألسنتهم حين علموا أن هذا هو ريمبو ، ريمبو العبقرى ، ريمبو الذى كتب شعراً خالداً قبل أن يبلغ التاسعة عشرة من عمره ، ولكنه انصرف عن الأدب فى ازدراء بعد ذلك ؛ ماذا حدث لبلزاك ؟ هنا كان رجل ، ظل ما بين العشرين والتاسعة والعشرين من عمره ، يكتب التفاهات دون انقطاع ، وبعد ذلك لم ينتج سوى روائع الأدب . أليس جلياً حتى لمن يدرس تطوره دراسة عابرة أن عمل عقله السليم عاق فى مبدأ الأمر محاكاته لكتاب القصة الإنجليز ، الذين لا تجمعهم به إلا أقل روابط الفكر ، ولم يشرع فى العمل بحرية إلا حين معالجته للواقع والقرائن فى مجال خبراته الخاصة ؟ كيف يستطيع مؤرخ الفن أو الأدب تعليل النمو العجيب لحقبات تاريخية مثل عصر بركليس أو القرن الثالث عشر بدون ظروف محمودة استثنائية تمنع تبديد الموهبة وضياعها هباء ؟ مثل هذه العهود تقوم شهادة على وجود ، لا القدرات الفائقة حدود البشر فى مئات قليلة من الأفراد ، بل على توافر المناخ السعيد الذى يساعد على نمو الكثيرين ؛ والأعمال المجهولة المؤلف فى القرون الوسطى تقوم دليلاً آخر على انتشار المواهب

فى تلك العهود المحدودة الحظ ، ويظن أن للروسيين قدرات نادرة على تحصيل اللغات . ألا يكون من الأفضل القول بأن معظم الشعوب ينظرون إلى تحصيل اللغات بفزع يشل إمكانيات الفرد ؟ لقد رأيت على الأقل اثنين من الفرنسيين ، المولودين بروسيا ، يبديان مخائل هذه النجابة الروسية المزعومة فى تحصيل اللغات ، ولن تغمر الدهشة أى إنجليزى ، لم يوفق قط فى تحصيل أكثر من مائة كلمة باللغة الهندوستانية، حين يرى أطفاله يلتقطون ثلاث أو أربع لهجات هندوسية فى أسواق رانجون. هيئ ظروفاً مواتية معينة ، وأنت حرى عندئذ أن تنتج فن التفكير . والمشكلة هى كيف نهيئ تلك الظروف المواتية، ولكنها ليست بأى حال مشكلة تثبط العزيمة .

الباب الثانى

معوقات الفكر

عجالة تمهيدية

واضح أن المعوق الرئيسى للتفكير هو البلاهة ، أو بتعبير آخر ، عجزخلقى عن التفكيرمنذ الولادة ؛ ومهما كانت الأحوال فلن نعالج فى الصفحات التالية أية حالة مرضية شاذة ، ومعظم الناس الذين يلجئون للتحليل النفسى ، فى إيمان وطيد كامل مؤملين تحسين أنفسهم ، ينفرون من الواقع وهو أن جميع أفراد مدرسة فرويد لا يبدون فعلا أى اهتمام إلا بالحالات الطبية ، والرجل الذى ليس لديه ما يبرر الشك بأنه سوى ، ولكنه يشعر ، ككل واحد منا ، بتلك المخاوف الوهمية التى جرى العرف الآن بتسميتها عقد النقص ، ويريد التخلص منها ، ينصرف متقززاً عن الإيضاحات الطبية المليئة بخبرة المستشفى ، وهذا الكتاب موضوع للعقل ، ذىالمستوىالعادى ، البعيد عن العبقرية التىلاتعرف المعوقات ، وعن البلاهة التى تعتبر كل شىء من المعوقات ، وهو يفترض مسبقاً أن ضروب الحياة السوية تتهيأ لها الفرص العادية ، ولا تلاقى إلا الصعاب العادية .

وعلى هذا النمط ، فلن يوجه أى اهتمام إلى العلة الرئيسية فى الأخطاء البشرية ، وهى : « السو ة العاطفية » وببدو لأول وهلة أنه من غير المنطقى

أن نضع جانباً حب الذات والتحامل والضروب العديدة من الحب والبغض التى تمنعنا من رؤية حتى الحقائق كما هى ، أو أن نستنتج منها نتائجها الطبيعية، بيد أن موضوع هذا الكتاب هو إنتاج الفكر وليس إرشاده . وكل فصل من هذا الكتاب يفترض أصلا أننا أمناء فى رغبتنا لإنتاج تفكير خالص من كل الشوائب .

الفصل الخامس

الانحصار الفكرى أو عقدة النقص

إننا جميعاً نعرفها ، فكلما نشعر بحالة مزدوجة فى العقل ، نرى خلالها ، خلف شىء ساحر ، شبحاً مهدداً أو مثبطاً للعزم ، يعمل جاهداً للقضاء على الأثر الصحى الحميد الذى نتمنى ألا نفقده ، فعلى سبيل المثال قد نجد شخصاً نعرفه منهمكا فى حديث بالفرنسية مع أجنبى ، ما أروع الفرنسية الواضحة الجيدة التنغيم ! وما أشد الانسياب الذى يغدقه على اللغة ذلك السلطان غير المقيد لحرف (E) الصامت ، وذلك التلطف غير المكترث لأصوات حرف (N) ! عجباً ، تلك الفتاة تتحدث كما لو كانت فرنسية ! ما كنت أعرف عنها ذلك ، فليس ثمة أثر لعناء أو جهد يبدو من جانبها ، وهذا الفرنسى لا يبدو عليه أنه شاعر بأنه يتحدث إلى أجنبية ؛ حقاً إن هذا عجيب ؛ يالشد حماقتى إذ انصرفت عن اللغة الفرنسية ! ما زلت أطالعها دون كثير من العناء حين أضطر لذلك ، ولكن ليس فى كثير من الأحيان ، وإنى لأعلم أننى إذا انسقت للحديث فسأكون مبعثاً للسخرية ؛ حقاً لا بد أن أفعل شيئاً ، وسأبدأ هذا المساء بالذات ، وقد اعتادت مدرستنا الفرنسية القول بأننا لو حفظنا عشر كلمات كل يوم ، وهذا ميسور جداً ، لقارب

محصولنا من اللغة أربعة آلاف كلمة فى العام ، وهذا يبدو كبيراً ، لم لا أفعل هذا ؟ بالتأكيد سأفعل ؛ وبعد عام ونصف سأذهب إلى تور أوجرينوبل لأتمرن على استخدام أربعة أو خمسة آلاف الكلمات التى حصلتها مع الفرنسيين المنسجمين؛ وهذا حقاً حرى بأن يزاوله المرء بدلا من مشاهدة المسرحيات السخيفة .

وفى العاشرة مساء ، تزدحم على المنضدة مراجع لغوية فرنسية ، وموسوعات رهيبة المنظر وهى مجلدات تبدو كئيبة خالية من السحر الذى سبق أن أغدقته تلك الحادثة الشيقة ؛ وهذه المراجع تبدو بعيدة عن كل ألوان الفتنة ، ولكن لا مناص من دراسة قواعد اللغة وازدرادها بأفعالها ومشتقاتها جميعاً ؛ ها هى ذى التصريفات الأربعة للأفعال، لم تنقص واحدة منها عن آخر مرة فتح فيها الكتاب ، وما زالت كما كانت مجردة من الرحمة (تدخل أشباح كئيبة كأشباح الموتى) لا شك أن ذوى الذاكرة القوية الحادة يستطيعون حفظ هذه الأفعال ، أما أنا فذاكرتى ضعيفة ؛ عشر كلمات كل يوم ليست شيئاً ، هــذا ما اعتادت المدرسة قوله ؛ فلماذا إذن لم تحفظهـــا أية فتاة آنذاك ، أو أخذت فى حفظها بعد ذلك ؟ لقد خيل إلى الجميع أنها ستفعل ولـكن الواقع أنه ما من أحد فعل ذلك ؛ لست من المثابرين ؛ لست كفلان وفلان ؛ تعوزنى المثابرة ؛ لذلك لا جدوى من المحاولة ، وأيضاً أمن الضرورى أن أعرف الفرنسية ؟ كل شىء تتم ترجمته ، وعند مقـــدم الفرنسيين سوريل وجويترى تستطيع دائماً الحدس قليلا وادعاء المعرفة قليلا، ومادام الجميع يفعلون هذا وما دمت أفعله،وإن عرفت الفرنسية، فلن يصدق أحد أننى أعرفها ، فالأمر إذن سيان ، وبعد كل هذا فهناك أشياء أخرى نافعة بجانب الفرنسية ؛ فمنذ أيام ذكر ذلك المحاضر بحق أننا لا نـكف عن التحدث عن شكسبير ، ولـكننا نطالعه بقدر ما نطالع الـكتاب المقـــدس ؛

فصل واحد كل مساء وأنتهى منه خلال خمسة أو ستة شهور ؛ سأتم قراءة هذا الكتاب الممتع التافه ، ولكنى شأشرع ، عقب ذلك مباشرة فى مطالعة « تيطس أندرونيكس » .

« ذاكرتى ضعيفة . . . . تعوزنى المثابرة . . . ما جدوى ذلك ؟ . . . . فلان وفلان يستطيعان هذا ولكنى لا أستطيع » . . . كل هذه الهواتف الصغيرة المثبطة للعزم هى ما اعتادت شخوص قصص الآنسة أوستن أن تسميها « هواجس الاكتئاب » وهى ليست أفكاراً سوداء بل زرقاء قاتمة ، كما أنها ليست بالضبط انحصارات ، ولكنها معوقات طفيلية ، تندفع برمتها لتهاجم أى عمل إرادى ناشىء محاولة تحطيمه والقضاء عليه ؛ فإذا انبرى للقتال متثاقلا لرغبته فى أن يصبح عزما وطيداً كرت الأشباح المعادية راجعة وقد ازداد عددها سبعة أضعاف وراحت تجدد هجماتها حتى ترسخ دعامة عقدة النقص : « لا أستطيع أن أفعله ، لا يمكن فعله ! » .

وإذا انسقنا قليلا فى غمرة من الاستكناه الذاتى وجدنا عقلنا مأهولا بانحصارات فارغة تزيد فى عددها على الأفكار ، وأن وجودها هو ، إلى حد كبير ، العلة فى عجزنا .

وليست عقد النقص دائماً غراس وجود أشباح كتلك التى ذكرتها الآن؛ ويكفى أن يبرز غرض أو رغبة ، غريبة عن الفكر أو احتمال لفكر نتتبعه ، حتى تتعطل عملية التفكير المثمر ؛ وكثيرون من الناس يعيشون حياتهم اليومية متقمصين شخصيات غير شخصياتهم ولذلك فإن عمل عقولهم يفسده الجهد الدائم ويبعده عن الطريق السوى ؛ وقليلون جداً هم الإنجليز الذين ، بعد تشذيب

لحاهم فى هيئة إدوارد السابع وجورج الخامس، لم يعودوا بعد ذلك قط لما كانوا عليه ، فأفكارهم وألفاظهم وأفعالهم أرخت عليهم صورة الممثلين ؛ وقد اعتدت وأنا فى باريس أن أقابل رجلا يشبه ألفريد دى ميسيه شبها عجيباً ، ولكنه لم يكن للأسف الشديد ألفريد دى ميسيه ، وإذا كان قد أقنع نفسه بأنه لم يعد ديبو أو ديرا فقد فنيت شخصيته تماماً ؛ وكثيراً ما يعمد السياسيون إلى القيام بأدوار شخصيات تاريخية ، ومن ثمة تصبح عدم أمانتهم التاريخية عشرة أمثال ما كانت عليه ؛ أما القوم الذين يبدءون فى تحصيل اللغة متوهمين أنهم أجادوها إلى حد يكفى لاستخدامها كما يستخدمها أصحابها ، فمن الممكن جداً ضبطهم متلبسين بتمثيل التدفق الإيطالى ، أو المرح الفرنسى ، أو الاتزان البريطانى ، وقليل من الطلاب الذين ارتبطوا تماماً بلغة أجنبية هم الذين تلافوا تلك الظاهرة غير المشرفة ، وهم على يقين من أنهم ، طوال فترة هذه الظاهرة ، لم تكن أفكارهم خالصة تماما ، بل انعكاساً لطراز متخيل إيطالى أو فرنسى أو إنجليزى ؛ ولا يستطيع المرء أن يسرف فيما للغة الإنجليزية الأمريكية من أثر كبير فى « أمركة » الأجانب .

والاتصال الاجتماعى باحتياجاته وإشباع رغباته — بنفاقه إذا أردت التسمية الصحيحة — مؤد لعدم الإخلاص المعطل للفكر ؛ فكم عدد أولئك الذين يجرؤون على القول بأنهم لم يطالعوا الكتاب الذى راح أربعة أو خمسة أشخاص فى حجرة استقبال يناقشون موضوعه فى لغة سائغة غير متحيزة ؟ كم عدد أولئك الذين لديهم الشجاعة الكافية فلا ينضمون لزمرة المقرظين حين يقولون « أوه ! أجل ، إنه كتاب رائع ! » وهى عبارة لا تخدع أحداً ، ولكنها تقوى العادة المهلكة للروح الخاصة بقول شىء ما حين لا يكون لدى

المرء ما يقوله ؛ وثمة طريق شائن آخر يصل بين الخداع والإخلاص يتألف من شراء الكتاب حتى ولو لم يفتح قط ؛ والفحص العرضى لأرفف مكاتب البعض تضئ النور وتكشف الأمور ، فقد تجد كتباً شائعة ، من طبقة معينة ، ما زالت متصلة الأوراق لم تمس ؛ ولست أشك قط فى أن نجاح أحد الكتب الفلسفية التى راجت منذ زمن بعيد ، عائد إلى أنه من الصنف الذى لم يمس .

ويقوم بتمثيل المهزلة ذاتها شبان مرد صغار يتسربلون بطيالسة قائمة من ادعاء معرفة كل شيء وإتقانه ، فيعمدون إلى محاكاة لهجة التخاطب الخاصة بالعلوم والفنون التى لا يعرفون عنها شيئاً ، وما الذى يسمعه الإنسان فى معارض الصور أو بعد حضوره لحفل موسيقى ؟ لا يتورع أقل الناس معرفة بالتصوير والموسيقى عن الخوض فى مناقشة أصولها دون تورع أو حياء !.

إن الرغبة فى الظهور ، بدلا من الوجود حقاً ، تستطيع أن تفسد حتى عملية العقل الشرعية الأصيلة ، وفى استطاعتنا أن نفترض مثلا ، أن رجلين استخدما عقليهما ، فى عكوف متساو ، لمشكلة أسباب الحرب العظمى ، فإن أراد أحدهما أن يعرض ، فى معالجته لهذه المشكلة ، وطنيته أو شعوبيته ، فإنه سينتج فكراً من صنف أدنى من تفكير الرجل الآخر الذى يقتصر هدفه على اكتشاف الحقائق ، وعلة ذلك أنه فى كل خطوة يخطوها إلى الأمام فى أثناء بحثه للأمر ، يجد الأول نفسه مستخدماً المعلومات التى حصلها لتوه ، والرؤية ، ككل شبح دخيل ، تضعف لأنها تقسم قوة تفكيره . ومن قبيل ذلك أيضاً استمع لخطاب أو طالع شعراً بقصد حفظه واستذكاره : لاشك فى أنك ستحقق قصدك أو بعضه ، بيد أن أثر الخطابة أو سحر الشعر سيتضاءل بسبب مثل هذا الشاغل الخارجى المسبق .

وإذا تجاورت فكرتان فى العقل جنباً إلى جنب ، فإنهما يعطلانه دائماً ، وإنك لن ترى صورة على حقيقتها إذا كان البعض قد أخبرك من قبل أنها نسخة منقولة مع أنها فى الواقع أصلية ، وفى اللحظة التى تسمع أنها ليست منقولة ، تعود الصورة إلى ذهنك فى جدة نابضة كانت تعوزها منذ لحظات قليلة، والمقارنة الوحيدة التى تبدو مناسبة لهذا المقام توضحها دهشتك حين تستكشف أن ما توهمته شرخاً فى زجاج النافذة هو فى الواقع حدأة كبيرة فى الجو : وفعلا ترى النقيطة الدقيقة قد كبرت عشرة أمثال عما كانت عليه من قبل ؛ وبالضبط تستطيع نفس الظاهرة أن تحل فى عقولنا ، ويحدث أن نعرف أن أحد الناس أكبر منا سناً ، وتظل هذه المعرفة سنين كثيرة دون ، تحقيقها ، أو بعبارة أخرى دون رؤية وجه هذا الشخص ، وفى يوم ما نرى هذا الوجه بغتة، فنصدم إذ نجده متغضناً مسناً .

إننا نعيش على الأفكار التى نكونها لأنفسنا ونحيا بها ، رأيت رجلا ذكياً ، بل متألق الفكر أحياناً ، يذبل ويذوى لأنه اعتاد فى مبدأ الأمر أن يدخر كل فكرة بارعة تساوره ، لفرصة أفضل ، وبالتدريج أصبح يضن حتى بإنتاج مثل هذه الأفكار ، كما قد يضن السمك الرعاش Torpedo Fish عن تفريغ شحنته الكهربائية مقتنعاً بأنها لابد ستصيبه بالإعياء ، وكان تسجيله لكل عملية عقلية يشعر بها ، تدخلا فى سيرتها جميعاً ، حتى حل وقت أصبح فيه مجرد حطام ، ومن المعروف جيداً أن الإسراف فى السير على نهج واحد منظم يسفر عن آثار متماثلة لأنها تصبح شراً ملازماً للإنسان كظله . .

* * *

وقد يبدو أنه ينبغى على الكتاب المدربين مهنيا ملاحظة طريقة سبر عقولهم ، والذين يجد المرء حتما فى مخطوطاتهم مادة خصبة لإنشاء فن التفكير ، ينبغى عليهم أن يكونوا أكثر الجنس البشرى تحررا من تلك الأشباح المروعة ؛ ولكن الأمر ليس كذلك ، فمعظم الكتاب ذوى المواهب الأدبية الحقيقية ، لا يسيطرون على أعصابهم ، أو فى كل الأحوال ، ذوو حساسية فائضة ، تؤثر على أخيلتهم كل الانطباعات دون قيد ، وكثيراً ما تكون فى قسوة ؛ وكان الخياليون من رجال الأدب والفن يفاخرون بهذه الحساسية ، ويرهفوننا بإسرافهم فى الإشارة إليها ، ولكنها موجودة بذات الصورة ، حتى فى العقول الواضحة العنفوان ؛ والواقع أنها من سمات المهنة الأدبية وهى قاصرة على الميدان المهنى ، وثمة لفيف من رجال الأدب يجدون راحة لأعصابهم فى الرسم ويفعلون هذا دون شعور بمعوقاتهم العادية ؛ ومن الناحية الأخرى فإن الحرية الطليقة بل الجسورة التى يتميز بها كثيرون من الفنانين ، حين يلجئون للكتابة ، كثيرا ما تثير حسد إخوانهم ذوى الميول الأدبية الخالصة .

والكاتب رجل وطد العزم على أن يعرض حياته الباطنية للفحص العام : وما لم يشعر بالقوة الكافية لأن يجتاز هذه المحنة فهو عرضة لأن يفكر فى إدراك لهذا التعريض الحتمى لنفسه ، وهذا الإدراك شبح يأتى معه بالضعف والخور ؛ وليس هناك من يعرف جيداً مثل ما يعرف الكاتب بأنه ينبغى عليه ألا يفكر فى شيئين فى وقت واحد ، ولكن ليس ثمة من هو أشد ميلا منه لفعل هذا ؛ حتى لقد لاحظ هذه الحقيقة ذلك الجماع المثالى للحقائق المجردة ، بل ذلك الإهاب المتجسد لفيض المعرفة المكين « فارو العجوز » وهو يقول فعلا ، بلغة

لاتينية ناضجة : إن الرجل الذى يحصل لنفسه على المعلومات كى يعيد روايتها على الآخرين ، هو ضحية ، حين يفعل هذا ، لعقدة نقص .

والكاتب محاط بالأشباح على الدوام ؛ وكان « تين » فريسة لرغبة ملحاحة فى أن يقع على معادلة أو وصفة تعكس له صور العالم ، حتى شفته دراسة التاريخ من هذا النزوع المتلهف ، باستبداله بتلخيص مبسط لما يعلمنا التاريخ من أن المؤلف كان ، فى مبدأ الأمر ، مستنكفاً منه ، وثمة شبح ذو قربى هو الخوف من أن يرى المرء وجهاً واحداً من الموضوع الذى يدرسه ؛ وقد اعترف كارليل بأنه عرف هذا الخوف الوهمى وألزم نفسه بأن يقوم بجهد يائس للتغلب عليه ؛ ولا يخاف الكاتب من مجرد نقاط الأدب — فهم ينتسبون إلى مهنته الخاصة وهو متأهب لأن يقاتلهم بكل الأسلحة المهنية بما فى ذلك الاحتقار — ولكنه يرهب بسمة القراء الوهميين ، رجالا أو نساء ، الذين لم يقابلهم قط ويحتمل ألا يكون لهم وجود ، ولكنه يراهم ، بعين عقله ، كتحقيق لكل ما يتمنى أن يكون من إتقان موضوعه ، كما لو كانوا من العمالقة ؛ ويزداد الخوف الوهمى سوءاً حين يعرف أن القارئ الصعب المراس له وجود حقيقى ؛ وقد أصبح معظم تلاميذ أنجلييه من الكتاب ، ولست أعرف أحداً منهم لا تفزعه ضروب النقد الأدبى المثمر غير الأنانى ، الذى يوجهه أستاذهم ، إذ يشعرون بقسوة هذا النقد لأنه يبين فى وضوح أمانة قصور نظرة التلاميذ الخارجية ، ومع ذلك فأنجلييه نفسه لم يكن عملاقاً كما كان يبدو : ففى اللحظة التى كان يفكر خلالها فى مؤلفاته كان يكثر من إظهار القلق بل والاكتئاب محاولا التعرف إلى أى مدى ارتفع به إلهامه فعلا ، كان يفكر بغموض وضجر ، لا فى كل ما هو بالغ القوة والعظمة فحسب ، بل أيضاً فى أقل الأشياء ذات

الفوارق الطفيفة المبهمة فى المعنى وغير المعنى ، خشية أن يتخلف فى المرتبة عما شعر أنه قد وصل إليه فى أول إنتاج عظيم له « الصديقة المفقودة » غير واثق مما إذا كانت الموضوعات التى جذبته إليها عالجها وهو فى أحسن حالاته ، وخلال سنوات عديدة — إلى أن استرد شطرا من عقيدة والدته الدينية — أودع كل أمله فى الخلود على دعامة هزيلة من بقاء بعض قصائده الشعرية فى ذاكرة الأجيال المقبلة غير المضمونة .

ولا يستطيع أحد أن يذكر كم من المهن الأدبية الأصيلة قد تعرض للخراب نتيجة للأخذ بفكرة أنه لا جدوى من تكرار ما لا بد أنه قد قيل مرات كثيرة فى الماضى ؛ والحق أن رجالا مثل إميل ، أو من قبله ! مثل جوير ودودان ، لم يفلتوا من هذا الشبح إلا بكتابة أشياء خيل إليهم أنها لن يطالعها أحد قط سواهم ، وفى المرات القليلة التى كتبوا خلالها للجمهور تجلى الأثر المعرقل فوراً للعيان .

ويمكن ألا تكون ثمة نهاية لقائمة تلك المؤثرات التى تعرقل تفكير رجل موهوب ، بل لا يسعنى إلا أن أضيف أن رجلا ، مثل جول لميتر ، رغم تحرره عن وعى من كل المعوقات يسلم بأن أية محاولة لاستعادة صور الماضى يمكن أن تصبح وهما متسلطاً ، وضحية هذا الوهم يسير مخترقاً باريس القديمة ، بعراقتها البهيجة غير المألوفة ، ولكنه لا يرى شيئاً منها ؛ وفى تأثر من هذا الوهم المتسلط ، سيرى جنبا إلى صورة العمال المشتغلين حالياً بتغليف الكتب ولن يرتشفوا نبيذهم الأبيض بعد ظهر يوم دافئ ، صورة العمال الثائرين فى « الآلهة ظمأى » وكل من الصورتين تبطل أثر الأخرى فتتلاشيان من الذاكرة ؛

وكم من فرنسى لم يعد فى استطاعته قط أن يسترد أول أثر خلاب لباريس، عليه بعد مطالعته لمؤلفات المركيز دى روشجيد Marquis de Rochegude استبدل هذا بعادة رينان أو سنيو فيريرو العقلية فى رؤيتهما للماضى كما لو كان هـو الحاضر، ومن تحدثهما عن أسواق المال الرومانية القديمة بمصطلحات وول ستريت « Wall Street » سوق أمريكا المالى حالياً، وكل شىء سيتكشف جلياً فى لحظة، ولـكن عندئذ يختفى ذلك الشىء الذى يبين الفرق بين رجل المال الرومانى القديم وضريبه فى العصر الحديث، التعويذة المتصلة بالماضى السحيق.

وعمل الـكتابة نفسه منتج للأشباح وذو خطـر على الإنتاج الشرعى للفـكر؛ وينبغى ألا يكتب أى إنسان مالم يستمتع بالـكتابة؛ بيد أن لفيفاً من الـكتاب المحترفين يزيد شعورهم بالجهد على شعورهم بالمتعة؛ ومع ذلك فالإفصاح عن الذات مبهج لـكل إنسان، وكثيراً ما اتضح أنه ضرب فريد من التخفيف عن النفس وإراحتها، أما العلة فى أنه ليس دائماً كذلك قد يكون عدم إتقانه للغة المستعملة أو قلة اهتمام بالموضوع المعالج، أو أى من الأسباب المتعددة التى جاءت بالصفحات السابقة، ولـكنها فى الأصل شبح نشأ فى أيام الدراسة، هو عادة التفـكير فى الأوراق الخالية من الـكتابة الرابضة تحت الصفحة التى نقوم بتحريرها، مع نفورنا من عرضها وطـولها، وتلهفنا لمعرفة الوسيلة التى يمكن بها كتابتها برمتها.

ويتوهم بعض الناس أن عليهم أن يضعوا كتاباً، كما كان عليهم، وهم فى الخامسة عشرة، أن يدبجوا مقالاً، سواء صادف هذا هوى من نفوسهم أم

لا ، وطوال الوقت الذى يحررون فيه فصلا من الكتاب ، ينبغى أن يستحوذ على كل انتباههم ، فإنه يساورهم قلق فيما يتعلق بالفصول المقبلة التى لم تحدد معالمها بل ولم ترد على الخاطر بعد ، ومن ثمة يقع ظل القلق على الصفحة الجارى تحريرها ، وما دام المؤلف لا يأخذ بعادة « وضع كتابه إلا بعد إتمامه فى عقله » على حد قول جوبر ، أو أنه لا يستطيع أن يقول بأمانة مثل راسين : « لقد تمت مأساتى ، وما علىّ الآن إلا أن أكتب أبيات الشعر » فسيكون فريسة لغلطة تلميذ المدرسة ، وليس ثمة شىء مثير مثل محاولة تصيد الأفكار والوقائع بقصد توضيح مسألة نظن أنها حيوية لنا ، وأن بهجة الكتابة حين تسفر محاولتنا عن النجاح هى مكافأة فريدة لأمانتنا العقلية ! تخلى فقط عن الحاجة الملحة أو الرغبة البراقة فى وضع كتاب وكل المتعة تذهب مع الريح .

وبعض الناس ، الذين يفكرون فى حرية وبطريقة جذابة عندما يتحدثون ، يبدون وكأنما قد وضعوا عقولهم فى قفص خانق ، حين يشرعون فى الكتابة وقد اعتاد أذكى رجل عرفته فى حياتى وأسرعهم بديهة أن ينتج خطابات فجة مملة ، يعكف على كتابتها ساعات وساعات ، وثمة زميل سابق لى اقتصرت دراسته وميوله على الأدب فقط ، أبدى على الرغم من ذلك ، اهتماما بالفلسفة ، ودون أن يقرأ لأى فليسوف راح يتحدث بإفاضة فى المشكلات الأساسية ، بأصالة تثير الدهشة ، وقد اعتاد زميل آخر أن يدعوه « روبنصن كروزو الفلسفة » ، وكل مرة كان يضطر فيها هذا العبقرى للكتابة ، تضاءل وتهاوى عائداً إلى حالة العقل التى اعتاد أن يكون بها ، قبل ذلك بأعوام ، حين كان يتقدم لتأدية الامتحانات بالسربون ؛ فأصالته فى الفكر أو التعبير أفزعته ، ونتائج

جهوده ، أو ينبغى أن أقول لعلها عذاباته ، كانت صفحات باردة معقدة ، تعيد إلى الأذهان مقدمات المراجع اللغوية للطلبة .

ومعظم الكتاب عبيد لنماذج معينة من التعبير ، ويمكن أن نحذف من ملايين الجمل العبارة الأخيرة المبتدئة بواو العطف، التى قد تكون غير ضرورية : إذ كثيراً ما تكون مجرد تكرار أو تلخيص أضيف فقط لتحسين خاتمة الجملة ويكاد يشبه هذا فى الانتشار عادة استعمال ثلاثة أفعال أو ثلاث صفات ، حيث يصح أن يكفى فعل واحد أو صفة واحدة ؛ والكاتب العادى لا يرشده بل يسوقه مرغما توقيع رخيص متصل به اتصال لاعب النادى بالخطيب قبل القرون الوسطى وهذه الجهود التعسة من شأنها أن تعوق تفكير المرء .

ولا يستطيع الكتاب الحائزون على قدر أكبر من الموهبة الفنية أن يتخلصوا من الفكرة بأن اللغة التى يستخدمونها أدنى — إلى حد الضياع — عن الأسلوب الأدبى الرفيع للأجيال القديمة ، وتبعاً لذلك فإن ما ينتجونه حرى بأن يبدو صورة للانحلال ، غير ذاكرين ملاحظة جوته المدعمة الوجيهة بأن « الإنسان الذى ينم عن زمنه هو فى الحقيقة تعبير عن كل الأزمان » وهذه الفكرة قمينة بأن تفتح باب القفص لهم ، ولكنهم يواصلون نطح القضبان برءوسهم .

والكتاب الذين تعوقهم أشد ما يكون التفوق من شواغل الذهن العارضة ، وتفسد عليهم حتى مخايل الإخلاص فى بدايتها هم نقاد الفن ، وازن بين كتاب «المحاضرات» لمؤلفه رينولد ، أو كتاب راسكين «المصورون المعاصرون» أو كتاب «الموجز الأمين» باللغة الفرنسية لمؤلفه دى ميل وبين المقالات عن الفن ، التى

تظهر فى معظم الصحف فسرعان ماستحس أن هؤلاء النقاد المزعومين يتظاهرون بأنهم يعرفون ما يكتبون عنه، ويكتبون عن هذا القدر السلبى فى أسلوب تام التكلف؛ ويثير دهشتى دائماً أن أرى كاتب قصص خيالية أصيل يستعمل فى معالجته للصور، أسلوباً رتيباً ثابتاً لو استعمله كاتب آخر لأثار ازدراءه، لركاكته وتكلفه، والسبب هو أن الكاتب القصصى المتحول إلى ناقد للفن لم لم يعد هو نفسه بعد ذلك وإنما أصبح رجلا آخر، والوعى المزدوج يشبه محاولة رجل يريد أن يرى شيئين فى وقت واحد.

إذن فعقلنا مثل عيننا، لابد أن يكون منفرداً، فالأطفال، والبسطاء من الناس، والقوم القديسون، والفنانون، وجميع من يستحوذ عليهم هدف متحكم لا يدع مجالا لشواغل ذهنية دنية، والمصلحون والرسل، والزعماء أو الأرستقراطيون من كافة الأنواع، يخلبون ألبابنا بصراط رؤياهم العقلية المستقيم. وعلى النقيض من ذلك أولئك القوم المتهيبون، المتخاذلون، الضعفاء والقوم الذين فطروا على الاسترشاد لا الإرشاد، والقوم ذوو الحساسية المهتمون بأثر تصرفاتهم على الآخرين المتشككون فى عمل قواهم العقلية ولا يكفون عن محاولة التأكد منها، جميع هؤلاء لهم مقدرة قاصمة على إقحام أفكار دخيلة أو طفيليات عقلية، تسد فى مبدأ الأمر طريقها ولكنها تتحول بالتدريج إلى خوف وهمى، يعطل رؤياهم، وفى النهاية يخلف فيهم ذلك الإحساس المزمن بالنقص، الذى يصفه المصطلح «عقد النقص» بوضوح فى كل الأحوال، للجيل الحاضر؛ ولو كان فرويد وأدلر لم يفعلا شيئاً سوى الكشف عن وجود مثل هذه العقد، وتعميم الاعتقاد بأن فى استطاعة المعالجة السليمة حلها، فإن أثرها ينبغى اعتباره حميداً.

كيف تنشأ الطفيليات العقلية

(أ) المحاكاة والمعاشرة

قلت فى الباب الأول من هذا الـكتاب إن جميع الأطفال يتمتعون بضع سنين برؤية مباشرة وانطباعات فورية تظل أشد اللحظات حدة فى حياتهم المقبلة متصلة بها ، ويمكن مقارنة هذا المدخل السحرى للحياة بسحر الفجر فى المدينة الـكبيرة، فخلال فترة حالمة قصيرة يتراءى كل شيء نضرا كما لو كان قد برز للوجود لتوه ، ولـكن سرعان ما تفسد ثرثرة وصخب مجرى الحياة المعتادة الرتيبة هذه الصورة الأولية الرائعة وتطويها الرتابة المملة ثانية .

والأطفال الصغار يفهمون الرجال والأشياء دون أى وسيط ، ويكون أول انطباعاتهم عنهم قويا إلى حد لا يحتاجون معه للعودة إلى مصدر الانطباع الرئيسى ، ولهذا يقع كثير من الآباء فى الخطأ إذ يرفضون التسليم بما للطفولة من قوة الملاحظة ؛ وحـــوالى السنة العاشرة تصبح الأشياء مختلفة ، فيتعرف الأطفال على المتقدمين عنهم فى السن ويحاكونهم ؛ وفى شهور قليلة ، وأحيانا فى بضعة أسابيع ، تستطيع ملاحظة التغيير : رجـــل صغير ، امرأة صغيرة ، حركات مسنين ، ضروب سلوكية معينة فى النطق أو التعبير اللفظى ، ظهور اهتمام مزيف بأشياء معينة أو عدم اكتراث متعمد نحو الآخرين ، وقد لا يبدو

التصنع على تعبير الوجه ، ولكنه يكف عن أن يبدو طبيعيا بريئا ، والغلمان أكثر ميلا للظهور بمظهر الخشونة والاستهانة بكل شيء – وأحيانًا يكونون أسوأ من هذا إذا تصادف وجودهم فى بيئة حوشية — أما البنات ، فعلى النقيض من هذا ، فهن يستعدن للذاكرة عروس الثالثة عشرة التى اعتاد القرن السابع عشر على التسليم دون اعتراض بحديثهن السابق لأعمارهن وبرسائلهن البادية التكلف؛ وفى حالات كثيرة يعجز الناظر عن أن يلاحظ أى جهد واع من جانب براعم هذا الشباب المتفتح للأمل ، ولكن لا يسعه إلا أن يشعر بانخفاض ملحوظ فى الفتنة وعدم التكلف ؛ فالأفكار المفصح عنها ، والموقف إزاء الحياة بل حتى إزاء الحزن ، خالية من المتعة ، بل خالية من السرور ؛ ومرونة الروح وقدرتها على استرداد سماتها أو فيما اعتادت أن تكون عليه ، فإنك ستجد غلمانا فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرهم يقومون ، دون تأثر عاطفى ، بتجربتهم الأولى فى المحيط أو فى غابات كندا أو فى روما أو فى مصر ، فهذه الكائنات الصغيرة الغضة برمتها التى كانت حتى عهد حديث جدا مثل سحب الصيف الوليدة الخفيفة ، التى تشعر بكل نسيم وتعكس كل صورة ، أصبحت الآن سلبية تماما ، وبمرور الأعوام ، ما لم يساعدهم شعور نبيل على الصعود إلى قمة الجبل ثانية ، فإنهم سيزدادون شبها بالجماهير أكثر فأكثر ، فيستعيرون من الملايين ، فى كسل ، أفكارهم وتصرفاتهم ولغتهم .

ماذا ينبغى عمله ؟ هذه هى المشكلة برمتها ، ذلك لأن أى شيء يستطيع أن ينقذ الطفل من المشاكلة من شأنه أن يجعل كلامنا قادراً على أن ينتج أفكارا خاصة به ؛ ويلزم تعليم الأطفال ، ولكن بجانب هذا يلزم تركهم ليقوموا بتعليم أنفسهم ؛ وفى أمريكا من العبث أن يميل الآباء بالسليقة ، وأن تزداد المدارس

اتجاهاً ، لمنح الأطفال كل الحرية العقلية التي يستطيعون استخدامها ، فالسلوك الجماعي متأصل تماما حتى ليستحيل أن يفلت منه إلا العبقري، وفي فرنسا بل وفي كل أقطار العالم القديم يطرون المحاكاة مع قدر معين من النفاق : « انظر إلى والدك — تصرف مثل الوالد — فكر في الآخرين لا في نفسك — دعهم يتحدثون ؛ سيحبونك إن فعلت — لا تصرح دائماً بكل ما تفكر فيه ؛ ستؤذي المشاعر ولن يحبك أحد» ولا شك في أن النموذج المقترح للمحاكاة ليس هو السيد لسست ولكنه السيد فلنت ؛ ومن المؤكد أن فلنت ليس غبيا ، فثمة ، لمحة من السخرية ، مخبأة فيه تعود فقط إلى تقدير سليم للبشرية . ولكن من ذا الذي يستطيع أن ينكر أن لسست يرى حقائق من صنف أسمى ؟ .

ولا حاجة للقول بأن معظم الأطفال، بإعطائهم العالم على ما هو ، قد أشقاهم الحظ في البيئة المحيطة بهم أكثر مما أسعدهم ؛ فحين يكونون فقراء ، ويشعرون برثاثة ملابسهم ، وسوء تنشئتهم ، وبصفة عامة أدنى شأنا من غيرهم ، فإنهم حريون بأن يخضعوا صاغرين للسلوك الجماعي ، دون اعتبار لما قد تكون عقولهم متسمة به من تفوق ؛ وحين يكون لهم آباء أغبياء فأسئلتهم ، إن كشفت عن أية أصالة ، سيساء فهمها وتقابل بالسخرية ؛ كذلك ليس من غير المألوف أن نسمع أن الدين ، وهو المنبع الأصيل الذي يسمو به الإنسان فوق ذاته ، يستخدمه الكبار كوسيلة لتحطيم الأطفال وإخضاعهم للسلوك الجماعي ، وإذا فطنوا إلى الواقع ، وهو أن المسيح والقديسين لم تتطابق تصرفاتهم تماما فسرعان ما يساقون لإدراك أن المسيح والقديسين في عالم منفصل ، وأنه ينبغي على الأطفال الصغار الطيبين أن يقنعوا بتنفيذ ما يطلب منهم عمله ؛ وهكذا فاتحاد

ميول الإنسان الفطرية للمحاكاة ، بكراهية الجماهير للتفوق والبروز ، يعمل حتما على طحن الفكر واستئصاله مخلفا وراءه جهاز الحاكى البشرى فحسب .

* * *

والمعاشرة غريزة تكاد تكون صنوا للمحاكاة مع ميل لإذكائها ، وهذا لايبدو جلياً مثل ما يبدو بالولايات المتحدة ؛ ولعل مرجع هذا أن الرواد الأوائل أتو معهم بسجية التعاون الفطرية عند الجنس الأنجلوسكسونى ولكنهم عجزوا مدة طويلة عن استخدامها بسبب اضطرارهم للحياة فى وحدة نسبية ، ونتيجة لهذا فقدوا الميل مسبقاً لممارستها على أكمل وجه حالما أتيحت لهم الفرصة ، ومع ذلك فحلفاؤهم أكثر الناس ميلا للحياة الاجتماعية على وجه الأرض ؛ ويتقابل الفرنسيون فى المدن كما يتقابلون فى القرى ، أيام الآحاد « عقب الانتهاء من صلاة القداس الإلهى » — مصطلح اجتماعى مميز — ولكن بعد تخصيصهم عشر دقائق للأسئلة المتممة لفحص العظة الشامل يعودون لمعالجة شئونهم الخاصة ؛ ولايزهد الأمريكيون قط أحدهم الآخر ؛ فالنادى لايكفى ولابد من وجبات منتصف اليوم كملحق له ؛ بالإضافة إلى اجتماعات من كل نوع ؛ كتغيير موظفين أو تدشين هيئات ؛ أو استقبال هذا أو حفل تذكارى لذاك ، أو حفلات دجاج أو ظباء ، ولا داعى لذكر حفلات الموسيقى والمسرح وهى مجرد تكأة لا أكثر ، وإذا لم يتهيأ لصديقك الأمريكى الاجتماعى ما هو أفضل استخدم على أكمل وجه قاعة الانتظار أو « حجرة التدخين » بفندق ، وأكون ناكراً للجميل إذا أنا ازدريت هذه الأخيرة التى أدين لها جزئياً بمعرفة القليل من أخطاء الأمريكى والعديد من سجاياه ، وكلمة «موصل»

Joiner التى لاتشير فى إنجلترا إلا إلى النجار، تعنى فى أمريكا شيئاً أمريكياً صرفاً كنطقها الذى يوحى بالتعاطف والتفكه معاً .

ومعروف جيداً أن الديمقراطيات تنتج التماثل الموحد ، وكذلك الحال مع المصغرات الاجتماعية للديمقراطيات ، والإسراف فى الفردية يصل فى التقدير إلى حد عدم تأدية المهمة ؛ وحين يكون الناس جمعية لحماية المصالح العامة أو رعاية الأذواق السائدة فمن المؤكد أن نرقب تشجيعها للأشياء المتماثلة وترقيتها ، فتبتدع التصرفات ، وتؤكد المواقف ، وتوزع الشعارات التى تضع طابعاً موحداً على الناس الذين لولا هذا لاختلفوا ، واختلاف الرأى حيث يوجد الكثير مما يمكن ترقيته بالاتحاد فقط يصبح أسوأ من الهرطقة ويستحيل إنجازه عملياً ، ولا تكاد المقاومة العقلية تقل عن ذلك ، والأمواج التى تطغى على الهيئات فى أوقات الانفعال الشديد أو الكوارث المدلهمة تجبرها جميعاً وتطمس بصرها إلا ما كان منها بالغ القوة ، بيد أن التأثير المتواصل غير المرئى للوعى الجماعى يسفر عن النتائج ذاتها ، ولقد استرعى نظرى بضع مرات فى أمريكا أن وجدت المستوطنين من بنى جلدتى يظهرون ضد الزنوج نفس التحامل الذى يملأ الأفق من حولهم والذى لم يكن لديهم أية فكرة عنه قبل هجرتهم ؛ وليس هنا تكلف أو ادعاء ، فالمعاشرة فى كل درجاتها تجعل التفكير الفردى ، أى التفكير الحقيقى الوحيد ، عقبة كأداء .

وفى الاستطاعة إثبات هذا بتقديم مئات من الأمثلة ، وليس ثمة شاهد على سلطان المعاشرة أكثر روعة من التفاتنا لتقسيمات الزمن ، والتقويم الزمنى والساعة لهما السلطان الأعلى ، فإذا اختفيا انهارت المدنية كما نعرفها ،

ولكنهما وإن كانا يمكناننا من اللحاق بالقطار وتحصيل قيمة قسائم الأسهم والسندات المالية فإننا أيضاً ضحاياهما ؛ وليست فقط الثوانى الضئيلة النشطة ، على حد تعبير موباسان ، تقرض كالفأر حياتنا ، ولكن فى كل عام ، يقع علينا عيد ميلاد آخر ، كجلمود صخر ، بينما تكون فكرة السن ، كنقيض للشباب، شبحاً عملاقاً ؛ ويقول أوسكار ويلد إن مأساة السنين من الناس هى فى إحساسهم بأنهم شباب ، أعنى أنهم يشعرون حقاً كما قد يشعر الشباب إذا قدر أن جعلتهم تعويذة سحرية يتخيلون أنهم من الشيب ، ولا توجد هنا تعويذة شريرة ، بل فقط ساعات وتقاويم زمنية وأعوام ميلادية على كل مستند بشرى نمسه ؛ وإذا تيسر محو هذه ، أمكن تغيير الأشياء فى الحال ؛ فكر فى بسمة زنجية ماريلند العجوز المشرقة التى تسألها بسخف عن سنها ، فهى لاسن لها ؛ ولكن الأمر يكلف رجلا أبيض جهداً يصل إلى العبقرية للتفكير بمنأى عن سخافات الأعياد السنوية .

وتنتج السخافات كل يوم عن الجهل أو المعرفة الناقصة،وسرعان ماتنشرها الصحافة ؛ ووجودها توازن إيجابى ، فهى تجعل التفكير مستحيلا حتى تشير الوقائع إلى أن الفكرة المرضية فى ظاهرها كانت نتيجة معلومات ناقصة ؛ ويقول الناس إنه لا مناص من نشوب الحروب لحين تأسيس عصبة للأمم ، كذلك يقولون إن السلام لايمكن تعكيره بعد الآن حتى يدفعهم إخفاق مؤتمر لعدم التسلح إلى اتخاذ سياسة أخرى ، فعبارة قصيرة حاسمة من شأنها أن يعمد لتكرارها قوم يتلهفون لبعض التصنيف فى الوقائع التى يشاهدونها ، وفى بضعة أيام قد تحول الصحافة هذه العبارة إلى شعار لفظى يقف وراءه صف كامل من

النتائج العملية ؛ ومن ذا الذى يستطيع أن يذكر عدد حالات الطلاق التى سببها ذكر عبارة « اقتفاء أثر السعادة » كحق أولى فى كل كتاب مرشد للطفل الأمريكى إلى التاريخ القومى ؟ .

(ب) التربية والتعليم

أليس من المفارقة ، إلى حد فساد الذوق ، أن يتحدث المرء عن التربية والتعليم كمعوق للتفكير بدل أن يكونا عونًا له ؟ ثم أليس الواقع أننا نستطيع التمييز بين رجل متعلم وغيره ، ليس فقط عن طريق سلوكه ولغته ، ولا حتى عن طريق معلوماته ، بل أصلا عن طريق قدرته على مقاومة فكر رجل آخر ودفاعه عن آرائه الخاصة ؟ أليس صدقًا أننا لا نعجب قط حين نلاقى شابًا متألقًا ، ونسمع أنه تلقى تعليمه بإحدى المدارس الإنجليزية العامة العظيمة ، أو إحدى مدارس الليسيه بباريس ، أو بإحدى مدارس (الجنازيم) الألمانية أو البولندية الشهيرة ؟ والواقع أن كل الفلاسفة من أفلاطون إلى هربرت سبنسر ، تضم فلسفاتهم فذا للتفكير مع بحث فى التربية والتعليم ، وبهذا يتبين أن ثمة ما يجعل أحدهما متعلقًا بالآخر ؛ وقد أنتج هوراس مان وتشانتج فى الولايات المتحدة سلالة هائلة من الناس مقتنعة بأنها تستطيع فقط رفع ديمقراطية بلادها إلى الوعى الصحيح عن طريق التربية والتعليم ، وكلما فكر الإنسان أكثر ازداد تقبله للتفكير ، ولا جدوى من التربية إذا لم تكن هى الإبداع المنهجى لعادة التفكير .

وعلى وجه التحديد، فالتربية من الوجهة النظرية هى تدريب عقلى يستهدف

مزيداً من المرونة الذهنية ، بيد أن المشكلة هى ما إذا كانت التربية من شأنها ألا تنهك العقل بدلا من أن تدربه ، وهل الناس بوجه عام راضون عن التربية التى تلقوها هم أنفسهم أو يرونها تعطى لأطفالهم ؟ ألا يشتكون منها طوال الوقت ؟ إنه لما يسترعى النظر أن رابليه ومونتانى ولوك وفنيلون وروسو ، وكذلك معظم رجال التربية الذين ظهروا فى القرن التاسع عشر يقفون ضد المعلمين ، ولعل هذا راجع إلى أن معظم هؤلاء النظريين لم يحصلوا على أية خبرة قط عن هـذا الشىء الصلد غير الأليف ، وهو الفصل ، وأنهم يتصورون أن ما هم عليه الآن كانوا عليه فعلا وهم فى الثانية عشرة أو الرابعة عشرة من العمر ، ولـكن هذا عائد أصلا إلى أن تفوقهم العقلى يعزو ما يحسونه من ضروب العجز إلى الوسائل الرديئة التى كانوا ضحية لها فى طفولتهم ، والمعلمون الذين يسفهون — ولهم كل الحق — المصلحين الذين تستحوذ عليهم فكرة سخيفة بأن الفصل شىء آخر عدا الشخص غير المختبر الذى لم يساس قياده يوافقون ، على الرغم من هذا ، على أن وسائل التعليم القائمة غير جيدة ، وأن محاولاتهم واختباراتهم وإحصاءاتهم التى يستخدمونها لإثبات وجهات نظرهم تملأ مكتبات برمتها ، ومادامت هذه هى الحقيقة فمن الصعب دحض النتيجة بأن التربية ليست هى فن التفكير كما ينبغى أن يكون .

ومع ذلك فالرأى عندنا أنها قد تكون أسوأ من ذلك ، ففى سن المرء حين تكون الانطباعات غائرة كما هى خفية مؤذية ، يمكن أن تنتج التربية غير المربية طفيليات عقلية ، وهذه حرية بأن تسفر بعد حين عن عقد نقص أو — أسوأ من ذلك — تستطيع أن تشوه نظرتنا برمتها إلى الحياة : وللتربية فى كل قطر أخطاؤها التى قد تملأ البحوث التى تثيرها مكتبات بأكملها ؛

ولزام علينا أن نضع حدوداً لأنفسنا ؛ ولكن الأمر لا يستلزم وقتاً طويلا لإظهار أن التربية بالولايات المتحدة مسرفة فى إصرارها على أن تكون عملية لا نظرية ، وأنها تخلف فى ذهن التلميذ فكرة بغيضة بأن الثقافة إنما هى ضرب من النفع أو لون من التسلية للقلة من الناس ؛ فى حين أن التربية فى فرنسا هى نقيض ذلك وهى ترق بالثقافة فوق العمل إلى ارتفاع تبدو معه متع العقل المجردة أكثر أهمية ، إلى حد بالغ ، من الواجبات العملية للحياة ، وفى الحالين تتشتت القدرة على التفكير السليم ، وقد يصبح من الضرورى قضاء عمر بأكمله لتصحيح هذا الخطأ الأولى .

وما زالت التربية فى أمريكا على نطاق واسع ضرباً من تربية الرواد أو أبناء الرواد ، وقد يثير هذا التأكيد دهشة من يعيشون بمدن أمريكا العملاقة ولكن ، حتى هناك ، لايزال فى الإمكان العثور على آثار لطرق الرواد أو آراء الرواد ، فالطريقة العشوائية التى تستخدم للتعريف بأسماء الشوارع أو أرقام المنازل أحياناً باستخدام عارضة خشبية أنقذت من حطام سفينة ما ، دليل واضح على بقاء هذه الروح ، ومن هذا القبيل أيضاً صناديق البريد الفريدة القائمة فوق أعواد بأعظم الأقسام رقياً فى لونج أيلند المسرفة فى مدنيتها ، وليس لدى أى شك بأن الفكرة المنتشرة فى الولايات المتحدة ، والتى تعج بالنتائج ، عن ندوة النساء ، إنما هى من مخلفات تلك الأيام الخوالى حين كانت النساء نادرات حقاً وحين كان المهاجر الذى يحصل على زوجة تنتفخ أوداجه مفاخراً كشاب من قدامى الرومانيين عائداً إلى الوطن ومعه فتاة من شعب السابيين .

وغالباً ما تكون المدارس الأمريكية فى الريف ، لأن الحياة الأمريكية

البدائية كانت حياة ريفية وكان المهاجرون الأوائل قد رأوا المدارس فى الوطن مقامة فى مدن صغيرة أو فى أقسام بالضواحى الطاقة مثل وستمنستر ، وهى مدارس قصد منها أقصى التفوق فى تنشئة القوة البدنية ، وصنوها الروحى ، قوة الإرادة ، وحيث اعتاد الأسلاف قطع الأشجار بالأماكن القريبة من الهنود الخطرين ، وعين كل منهم على بندقية الصيد المعدة دائماً للانطلاق ، يقوم الآن غلمان جروتون والقديس مرقس والقديس بولس بتنشئة أبدان رائعة ، وقدرة على الدفاع عن أنفسهم ، ونزوع لحياة المعسكرات الطلقة ، وروح مستقلة تذكيها غريزة التعاون دون أن تقلل من شأنها ، وما زالت الألعاب الرياضية ، وستظل كذلك صراحة ، القسم الأساسى من الحياة المدرسية ، وإن أنس لن أنسى أننى حين تقديمى لأول مرة إلى إحدى المؤسسات الآنفة الذكر ، سرعان ما أخذونى إلى قمطر حيث تستقر فى داخله كرات « بيسبول » فخمة فوق حلقات من الفضة وجعلونى أؤدى فى احترام شعائر ولائى الجاهل لهذه الأصنام المعبودة : وأنباء المدارس فى أمريكا هى أنباء الرياضة ، ومن المؤكد أن « نوتردام » كلية كاثوليكية ، ولكنها معقل لكرة القدم أكثر مما هى كذلك .

ومن المؤكد أن اللياقة البدنية هى ، بقدر ما ، فن من الفنون ؛ وكثيرا ما تزيد النساء قيمة هذا الفن برشاقتهن ، وحين يفعلن هذا فإنهن يحصلن على نتيجة فنية حتى ولو كن جاهلات مثل أميرات القرن السابع عشر السكسونيات ؛ ولكن لياقة الأبدان ليست ثقافة ، والشكايات التى نسمعها دائما فى أمريكا عن التربية والتعليم تبرز من استحالة التوفيق بين السرف فى اللياقة البدنية وبين الثقافة ، وكثيرا ما يوجه إلى الناس هذا السؤال : « لماذا

يبدو على شبابكم أنه متقدم كثيرا فى المعرفة عن شبابنا ، وأن استخدامه لهذه المعرفة فى حديثه أشد أثراً وأوفر جدوى ؟ » وتغمرنى الدهشة دائماً حين أراهم يحملقون استغرابا وأنا أجيبهم قائلا : « لأن الحياة المدرسية فى فرنسا معناها النهوض من الفراش فى الخامسة صباحاً والدراسة حتى الثامنة مساء مع ساعتين فىغضون ذلك للاستجمام والراحة ، لأن كلمة « شغل » فىالفرنسية Travailler معناها « دراسة » فى حين أن كلمــة « شغل » فى الإنجليزية To Work تستخدم للدلالة على الشغل بملعب كرة القدم أو على صفحة النهر ، فغلماننا لهم جباه عريضة ولـكن صدورهم هزيلة ، أما غلمانكم فلهم مناكب عريضة ولـكن أحاديثهم صبيانية» — «أليس هناك حل وسط للعمل ؟» — «أجل ، ستجده وستجد الوفير منه ، فى سميث ، أو فاسار ، أو برين مور ، أو بمعهد ثيليم العالى فى برنستون » — « آه ! إنك ترفع من شأننا حين تقول إن غلمانكم لهم صدور مهزولة . أه ! » — « بلى ، حتى يخدمون عاما أو عامين بفرقة عسكرية ، إننا نحب أن نراهم هناك ، ليس فقط لأنهم يحافظون على الروح العسكرية القومية والتعطش للدماء بل أيضاً لأن الجيش يتيح لهم فرصــــة تعريض مناكبهم » .

وإن سيادة الرياضــة البدنية وعلتها فى المدارس والحياة العامــة والصحافة لا تؤدى فحسب إلىاستبعاد ما هو أهم أو ما ينبغى أن يكون كذلك ، ولـكنه يخلق جوا تبدو فيه هــذه الأشياء الهامة تافهة ، أو حتى توصف بلغة سوقية بالغة التحقير ؛ أما ما يبدو هاما فهو حياة الهرج والمرج ، مع نشوة تشديد الهجوم على الآخرين أو عكس ذلك ، وقهر أحد أو شىء خلال هذا الهجوم ، وكل هذا ، داخل حدوده ؛ طريقة بارعة للنظر إلى الحياة ، ولـكنه ليس ثقافة ،

ومرة سأل أنجلبيه طالبا عن المآسى المسرحية التى يفضلها : أهى تلك التى كتبها راسين أو التى كتبها فكتور هيجو ؟ فكان الرد : « مآسى هيجو، فهى تعج بحياة أوفر » فراح أنجلبيه يفكر فى نفسه متمتما «بل تعج بصراع أوفر» — وإمعان الفكر ، وهو أرفع أشكال الحياة ، لا يتفق مع الصراع إلا فى معنى بيولوجى عميق يبلغ من التعقيد حدا لا يتناوله هذا الكتاب العلمى ، والحقيقة العارية هى أن الصبى الذى يظهر أكبر قدر من النشاط والأصالة بميدان اللعب ليس هو دائما بأى حال من الأحوال الشخص الذى يوجه أذكى الأسئلة ، وهو فى الغالب لا يوجه أسئلة على الإطلاق ، وموقفه هو : « قل لنا » وهو الموقف الذى اعتادت مدام دى متنتو أن تسنده فى احتقار لفتيات سان سير والذى أخبرنى بعض أساتذة الكليات الأمريكية أنه من المحتمل إعادة ترجمته، فى لغة إنجليزية قاصرة على الكليات الأمريكية ، إلى هذه العبارة العادية : « مهمتك أن تقول لنا » .

والمدرسة مكان عليك اجتيازه قبل دخولك الحياة ولكن التعليم فيها لا يؤهلك للحياة، وما نسميه بالثقافة عرضة لأن ننظر إليه ، فى مثل هذه البيئة على أنه ضرب من التخصص وليس من مستلزمات الحياة التى لا غنى عنها بأى حال من الأحوال ، وقد تكون المعرفة المتحصلة لونا من الرياضيات ، وهذا ما يعالل الواقع وهو أن الأمريكيين بصفة عامة ، وهم لا يطيقون تفوق الأجانب عليهم فى أى شىء آخر ، لا يهتمون قط بهزيمتهم فى ميدان الفكر أو الفنون فمن ذا الذى يقلقه أن يكون جاره أفضل منه فى وزنه للكواكب ؟ ويمكن قياس المدى الذى يصل إليه عدم الاكتراث هذا مما هو حادث فى الصحف الأمريكية فليس ثمة واحدة منها على الإطلاق تنبىء قراءها عما إذا كانت

الخطابة التى تسوقها غثة أو سمينة ، ففن الخطابة حقيقة منفردة والملايين لا تهتم إلا بالحقائق ، وعلى الرغم من هذا فالأمريكيون يحبون الفصاحة .

لطالما سليت نفسى بأن تخيلت ظهور شيشيرون فجأة فى أمريكا، وتحدثه فى فندق بلتيمور ، مع اثنين من الصحفيين ، أحدهما فرنسى أو بريطانى ، تغمره ذكرياته المدرسية وتستبد به نشوة الانفعال ، لمجرد تفكيره فى رؤية «الخطيب المصقع » ، والآخر أمريكى ، راح يعد أسئلة تتعلق بمنع المسكرات وتحضير الأرواح ، وتحيره حقا فكرة ما إذا كان نهر « الإله أخيلوس » يمكن الآن أن تجتازه القوارب البخارية ، وما إذا كانت حقول « إليزيا » الأسطورية مسجاة جيدا بقضبان حديدية متقاطعة .

والخلاصة أن فكرة الثقافة فى العقل الأمريكى كثيراً ما يطمسها شبح انعدام الفائدة . والتفكير مع مثل هذه العقبة المعوقة ، صعب دون شك .

أهكذا هو الحال دائماً ؟ أهذا جزء من أسلوب السلوك الأمريكى الخاص الذى لا يمكن تعديله ؟ إن أى شخص رجع إلى ملفات الصحف والمجلات الأمريكية الأولى لا يتردد فى الإجابة عن هذا السؤال بالنفى ، والناس لا تكف عن القول بأن أمريكا شعب حديث السن أو شعب من الشباب ، وقد اعتدت أن أكون على حذر إزاء هذه العبارة التقليدية فقد لا تكون ، على ما أظن ، سوى غطاء يمكن بسطه ليغطى جميع الصناديق ، وشيئا فشيئا انتهيت إلى الرأى بأنها صحيحة إلى حد كبير ، ولكنها صحيحة فقط فيما يتعلق بأمريكا الحديثة ، أما أمريكا الأولى فلم تكن حديثة السن بل

تامة النضوج ، ولم يكن أى رجل ممن رفعوا إعلان الاستقلال ليدخل فى روع أى عضو من أعضاء البرلمان الإنجليزى بأنه لم يبلغ من السن أرشده ، فالعكس كان هو الواقع المحتمل ، ولـكن لا يسع أى واحد من أولئك الرجال أن يظهر فى ساحة أية مدرسة لخلفائهم فى بنسلفانيا أو فرجينيا أو ماريلند دون أن يهز كتفيه إزاء الجد الذى يظهرونه الآن نحو اللعب المجرد ، وقد عادت أمريكا شابة خلال الشطر الأخير من مجرى حياتها ، ولـكن هذه «الأمريكا» الشابة شيء مختلف عن الولايات المتحدة ذات التاريخ المجيد، والخاصة الأمريكيين يدركون هذا ويحز الأسى فى نفوسهم . وإن المجهود الخارق فى سبيل نشر التعليم الذى يراه المرء فى أمريكا حيثما أقبل أو أدبر ، إنما هو رد الفعل الحيوى لمجتمع يشعر بأنه مهدد فى عناصر وجوده؛ ولـكن مقاومة الجماهير غير الحصيفة بالغة السرف ومطالب هـذه الجماهير ما زالت تشكل وسائل التربية والتعليم بدلا من أن تـكون هذه الوسائل سبباً فى تشكيل الجماهير ؛ وليس ثمة أى قدر من الاختبار أو المحاولة أو وضع النظريات يستطيع أن يغير هذا الوضع المجافى تمـاماً للفـكر السليم ؛ فالجماهير تريد وسائل ميسرة ، وهكذا باتت الوسائل ميسرة ، وهى تريد نتائج عملية فورية ، والاتجاه العملى أول ما يؤخذ بعين الاعتبار .

وتبدو الوسائل الميسرة كما لو كانت عقيدة لا تحتمل الجدال عند المتأمركين؛ فالميسرة أو السهلة هى الـكلمة التى يسمعها المرء كل حين فيما له علاقة بفن التعليم ؛ ولقد وضعت ، منذ سنوات قليلة ، كتابا مدرسياً نشر فى نيويورك بعنوان « جعل قواعد اللغة الفرنسية واضحة » وقد سمعت هذا العنوان ينطق خطأ ، عشرات المرات ، على أنه : « جعل قواعد اللغة الفرنسية سهلة » .

وليس فى الاستطاعة جعل قواعد اللغة الفرنسية سهلة ، ولا قواعد اللغة اللاتينية ؛ إنما فى الاستطاعة ، بل ومن الواجب ، جعل قواعد كل منهما واضحة وممتعة ، ولكن ليس ثمة محاولة ما لتوضيحها بأى ضرب من الصور تستطيع أن تزيل بطريقة سحرية أواخر الكلمات أو تصاريف الأفعال ؛ وأفضل توجيه نفسى هو إقناع التلميذ بأن المئات والآلاف من الناس غير المفرطى الذكاء قبله قد قهروا تلك البدايات الجافة بالمثابرة فحسب ، والواقع أن صغار القرويين الذين يقوم بتدريبهم للوظائف الكهنوتية قساوسة ريفيون بسطاء ، لا يحلمون قط أن يسموا أنفسهم دارسين ، يتقنون دائماً دراسة تراكيب اللاتينية فى ثلاثة أو أربعة شهور ؛ وقد شاهدت ، أكثر من مرة القسيس المجاور يأتى صدفة خلال الدرس ، ويروح يتلاعب بدارس اللاتينية الصغير كما يتلاعب ساحر التويلرى بطيور الخطاف ؛ وقلما تفوت الشاب المحمر الوجه كسرة واحدة من حالات الصفة أو أزمنة الفعل التى يقذف بها فى خبث ؛ ولم تغرس فيه أية عقدة نقص فيما يتعلق بالألفاظ المجردة ، فهو لا يفكر فى المقاطع التى تصادف أواخر الألفاظ كشىء صعب أو كشىء سهل ، بل كشىء على كل إنسان أن يتعلمه وهو فعلا يتعلمه .

ومن ناحية أخرى طالع الإرشادات التى أصدرها مجلس التربية والتعليم بنيويورك فيما يتعلق بتعليم مبادئ اللغة اللاتينية ، فالشخص الذى وضعها واضح تماما أنه أسير الفكرة بأن كل شخص ملزم بأن يسوى فى تفكيره بين التراكيب اللاتينية والحروف الأشورية القديمة من حيث انعدام التشويق ، وأن كل ما يمكن عمله هو أن يأخذ الموضوع ميسراً ، بمعنى أن يأخذه على دفعات صغيرة جداً ، فيفترضون أن بضعة شهور تلزم لأن يتقن الطالب المقاطع الثلاثة

الأولى التى تضاف لأواخر الألفاظ ، ثم يمنح الطالب فترة راحـــة طويلة كما لو كان يعد لجولة ذهنية أخرى أشد سوءا ، وبعد ذلك يعالج الطالب المقطعين الأخيرين ، أو بعبارة أدق ، يلهو الطالب بهما .

فما هى الدعامة الأولية النفسية التى يحتمل أن تخلقها هذه الوسيلة التى يعوزها النشاط والتشويق ؟ جلى أنهـا ستسفر عن فـكرة أن مقاطع أواخر الـكلمات اللاتينية إنمـا هى ضرب من الجثام ولـكن المقطعين الأخرين أشد هولا من المقاطع الثلاثة الأخرى ؛ أما الذى حدث معى فهو أن معلمنا ، الذى لم يكن لديه فـكرة ما عن أية إرشادات لـكـنه كان ذا خبرة وفطرة سليمة ، قال لنا فى ثقة مطمئنة تامة : « لما كان المقطعان الأخيران هما البساطة بعينها ، فإنـكم ستدرسون فى المرة التالية هذين الاثنين معاً بدلا من واحد فقط » وكانت النتيجة أنه لم يعد أحد ، حتى ولا بطيئو الفهم من التلاميذ ، يتهيب من دراسة مقاطع اللغة اللاتينية ؛ سل معظم الأولاد والبنات الذين درسوا منهاجا فى اللغات القديمة ، وستجد أن تراكيب اللاتينية غامضة فى أذهانهم مثلها مثل اللغة اليونانية فى سوء تعليمها بأوربا ؛ ويذكر القوم فى أمريكا أنهم درسوا كتابا أو كتابين لقيصر ، وكتابا أو كتابين لفيرجيل ، وخطبة أو خطبتين لشيشيرون ، ولـكن فـكرتهم عن اللاتينية كلغة أنها ترف جامعى ، كما تبدو اللغة السنسكريتية لمعظم الناس ، بمعنى أنها شىء ليس من المتوقع أن تلم به ؛ ولشد ما كانت دهشتى حين رأيت شاعراً أمريكياً ممن يبدون غير قليل من دعوى المعرفة والرسوخ فى العلم ، يضع لإحدى قصائده هذا العنوان « Pueribus I » وهذه هى النتائج التى يسفر عنهـا جعل اللغة اللاتينية سهلة .

والنتيجة الحقيقية هى أن أربع أو خمس أو ست سنوات من هذه الدراسة المزعومة لا تخلف سوى الأثر بأنه « لا أحد يعرف اللاتينية ؛ لا أحد يستطيع معرفتها» ؛ وثمة نتيجة أخرى أعمق وأشد خطورة هى أنه من السخف أن يقضى المرء أى وقت فى مثل هذه المهمة المعدومة الرجاء ، ولا شك أن فى إرغام شباب المواطنين الأمريكيين على دراسة رتيبة بالية لا جدوى منها على الإطلاق أمر يدعو للسخرية والرثاء بل أمر يعوزه الخلق القويم ؛ حاول أن تلعب دور ساحر التويلرى مع واحد من صبية المدارس هؤلاء ، فسيطالعك قدر كبير من السأم أو عدم التصديق فيما يفصحون عنه ، فهناك إما أن تجد عقدة نقص رابضة تنفث سمومها ، وإما أن تكون قد ركلتها خارجا ، مع الحكمة العتيقة ، قدم بربرى شاب يرفض أن يكون أضحوكة للآخرين .

وتلحق النزعة النفعية فى التربية والتعليم بالثقافة من الأذى قدر ما تلحقه تلك الوسائل السهلة المزعومة بالدراسة ؛ وإن إيثار الفروع العلمية التى يمكن تحويلها إلى مستند مالى معجل هو بالتأكيد ظاهرة لهذه الروح النفعية ، ومثل هذا تلك الطريقة العملية المجردة لتعليم اللغات الحديثة المنتشرة بمعظم المدارس ، وكذلك انعدام كل ضروب التعليم الفلسفى بالمدارس العليا .

ولكن يزيد على هذا إثارة تلك الطريقة التى تتحول بها الجهود الأدبية الواضحة التجرد إلى انتفاع خالص ؛ ولشد ما هزنى ما وقفت عليه ، خلال المرات القليلة الأولى التى أطلعونى فيها على صحيفة مدرسية ، إذ علمت أن لفيفاً من الصبيان يرأسهم محرر صبى ، يعود إليهم الفضل فيما تقدمه الصحيفة من إنتاج ممتاز نسبياً ، ولم أتحقق إلا تدريجياً — على الرغم من قصائد الشعر التى

ينتجها غلمان وبنات الأنجلوسكسون بسهولة أوفر من الطلبة الفرنسيين — بأنه لم يكن هنا تدريب أدبي بل تدريب صحفي؛ فالصحيفة المدرسية صحيفة جيدة، بيد أن هذا ثناء ملعون، ذلك لأن الصحيفة الجيدة لا تكون ذات طابع أدبي، أما الصحيفة المدرسية فينبغي أن تكون في الذروة من ذلك؛ وينبغي أن يحتفظ المحرر في ذهنه بأديسون أو كوبيت أو برناردشو حين يقدم على تحرير مقال ما؛ بل الواقع أنه لا يفكر فيمن يحاكون مستر منكن: فالصحيفة المحلية الصغيرة هي حد الامتياز عنده؛ ولو نسج المحرر على منوال أديسون لأسفرت المحاكاة عن نتائج يرثى لها ولكنها أدبية؛ أما والحال كما هو، فإن النتائج ليست أدباً حتى وإن بدت مقبولة.

ويمكن أن يقال نفس الشيء عن القصص القصيرة، أو المسرحيات ذات الفصل الواحد أو السيناريو، مما تنتجه مدارس القصص الدرامي أو الخيالي بكثير من الكليات الأمريكية؛ فالتعليم من الدرجة الأولى، والوسائل أكثر تأصلا وشمولا من تلك الوسائل المستعملة في المناهج الأدبية المحضة، والرغبة في النجاح والسعي في سبيله لا يمكن نكرانهما؛ فما هي النتائج؟ لامراء أنها أعلى، في براعة الصنعة، من «مرتفعات وذرنج» على سبيل المثال؛ وإنك لتنبهر بل وقد تتخاذل إزاء الإيجاز الحاسم والسرعة والموازنة، وفي الوقت المناسب تكتشف أن هذه الصفات هي من لوازم بل حتى من ابتداع رغبة حارة في إنتاج سلعة «رائجة» وعندئذ تدرك علة تضاؤل الحق المزعوم في اعتبار هذه القصص الممتازة في صنعتها ضرباً من الأدب كلما ازداد اطلاعك عليها، فالأدب ليس بارعاً بهذا المقدار، فهو يصارع الحياة، وغالباً ما يقهر، ولكن الصراع ينتزع تبجيلنا ويشعر بهذا كل من حصل على تعليم أدبي؛ أما إذا تحول التعليم

إلى العدو وراح يسوق الوسائل التجارية ويحشو بها العقول فإنها ، حتى ولو كان أصحابها من النخبة الممتازة ، ستستبد بهم طفيليات النفعية بأى ثمن، ومن ثمة تتبدد قدرة التفكير فى مصطلحات الجمال .

ويغادر الغلام الأمريكى المدرسة بفكرة ، تتفاوت شدة أوضعفا من حيث رسوخها ، بأن ما يدعى ثقافة إنما هو ترف ، أو بتعبير آخر ، نافلة من النوافل، فهو لم يتعلم أن ينظر إلى اللغة اللاتينية كتحفة فنية من الموزايكو ، أو إلى الإنشاء الإنجليزى كجهد للتسامى فوق نفسه ، فكان أن تعرقل خياله بدلا من إذكائه ، وهو ، من الناحية الثقافية أدنى بكثير من الأمريكيين الذين عاشوا منذ ثمانين عاما .

* * *

وعلى النقيض من ذلك تماماً فإن المدارس الفرنسية تخرج شباباً مقتنعاً بأنه لا شىء جدير حقاً بالاحترام سوى ما يحرزه العقل ، ويجد الرجال والنساء الفرنسيون المتعلمون ، الذين لا تؤدى الحقائق الروحية معهم عمل الثقل المضاد، صعوبة لأن يأخذوا نظرة عملية عن الحياة بسبب شبح أو وهم نشأ خلال سنى تكوينهم : الاكتفاء الذاتى بالعقل .

ومن بين كل عشر مدارس فرنسية تقع تسع بالمدن ؛ وأشهرها فى باريس ولا يزال الكثير منها تستخدم أبنية الأديرة القديمة وهى تختلف كثيراً عن مدارس أمريكا الشبيهة بالقصور ؛ وهذه الآثار التى تعود إلى القرون الوسطى هى ، فى كثير من الأحيان ، خلف مدارس الرومان الغالية ، فثمة تقليد من الثقافة منحدر عبر قرون عديدة يتعلق بهذه الأسوار الرمادية ؛ ولكن منظر

الأفنية المزدحمة الحبيسة بين المنازل المرتفعة تكشف عن عدم اعتبار ، لا ، بل عن جهل تام ، بالاحتياجات البدنية .

وكثير من الفرنسيين الذين لا يزالون على قيد الحياة لم يمارسوا خلال حياتهم المدرسية من التمرينات البدنية سوى السير الدائرى الكئيب المصرح به للمسجونين بالإصلاحيات ، والمسيرة الموحشة إلى الضواحى والعودة منها مرتين فى الأسبوع ؛ وإن الذكريات الأولى للكتاب أمثال : تين ، ودوديه ، وبورجيه ، تعج بالشفقة الذاتية ؛ ولكنهم يسلمون بأنه بينما كانت أجسامهم عاطلة عن العمل ، كانت عقولهم لا تكف عن أدائه ، وقد حفظت حيوية هؤلاء الأولاد المساكين عن طريق انفعالات الاكتشاف فى الفكر أو التعبير ، وكذلك تصادم الآراء التى تجعل الحديث الفرنسى شيئاً شبيهاً بالمغامرة .

وحالياً يذهب تلميذ الليسيه إلى الملعب يومياً ، وفى أيام الأحد أو الخميس تتاح له الفرصة فعلا للعب كرة القدم أو التنس ؛ ولكن لا يزال عمله اليومى الرتيب يبين أنه يصرف ساعتين فى اللعب مقابل إحدى عشرة ساعة فى العمل ؛ ويصبح بطل الألعاب الفرنسى ، حين وجوده فى الملعب مثار العجب لا الإعجاب .

وليس معنى المدرسة فى فرنسا : الأولاد ، إنما معناها المدرسون والكتب ؛ ولقرون سلفت كانت الكتب قاصرة على آداب اللغتين اللاتينية واليونانية اللتين تعلمان للتخاطب بهما ، أو فى القليل للكتابة ، كما لو كانتا لغة الطالب الأصلية ، ووجه الانتباه إلى القليل عدا هذا ، ولكن شخصيات التاريخ القديم أصبحت مألوفة ، وكانت الخطوط الأساسية تستنتج حتى دون اكتسابها بالتعليم .

واليوم قد أزاح الأدب من طريقه جميع منافسيه ، حتى العلم على الرغم من تأليهه ، وهذه هى الحال فى المدارس كما هى فى الحياة ، فالمؤلفات الأدبية فى اليونانية واللاتينية والفرنسية موضوعة فوق مكاتب تلاميذ المدارس بجانب الكتب العلمية والتاريخية ،ولكن الكتاب الوحيد الذى سيعرج عليه بالفطرة، الكتاب الذى ستلمسه يده بالغريزة فى لحظات الفراغ ، إنما هو كتاب مرشد التاريخ الأولى لأى من الكاتبين لانسون أو دجرانج ؛ وقد يكون ميالا للرياضيات ويدرك أن عليه أن يواجه أعواما من الجهد الشاق قبل أن يتيسر له دخول مدرسة الهندسة ، بيـــد أن التاريخ الأدبى لن يكون أقل جاذبية بالنسبة له .

فما الذى يجنيه من هذه الرؤية الفسيحة للتطور الأخلاق الذى يكاد يقتصر فى أى مكان آخر على المتخصصين الراشدين ؟ يجنى خليطا من الغث والثمين ، فمن المؤكد أنه سيحرز نزعة فلسفية بملاحظته لتشابك الأفكار تسلسلها ، والأنظمة أو ضروب الترجيع العاطفى التى تؤسس تاريخ الأدب : فيصبح عقله معتاداً على منطق الوقائع ؛ وعاما بعد عام يزداد ابتهاجه بالوضوح الناتج من رؤيته للأسباب والنتائج ؛ ولكن قبل مرور وقت طويل من توافر الفرصة اللازمة له كى يفعل أكثر من أخذ فكرة عاجلة عن مخلفات الأدب العظيمة يكون قد نال معلومات عامة عنها ؛ فقد أحرز اللهفة الفرنسية الفظيعة لتلخيص حقائق مركبة فى معادلة واحـــدة ، وإذا كان قوى العقل فستسعفه موسوعته اللفظية، أما إذا لم يكن كذلك فإن الألفاظ المحفوظة وخطوط الإيضاح المتألقة فى ظاهرها ستمده فقط بتعال رخيص فوق أولئك الذين لم ينالوا تدريبا

مثل تدريبه ، بل ستمده بما هو أسوأ وهو الزيف ؛ ذلك لأنه، فى أعماق قلبه، يدرك أنه يسرف فى الكلام مع عجزه عن تحديد أو تحقيق ما يقوله .

بل إنه لأكثر حدوثا أن يبتهج الصبى الفرنسى بمطالعة ما يكتب عن التطور الشخصى لكاتب ما ، ولشد ما يفعمه بالسرور أولئك القصصيون الخياليون ، خاصة ، من روسو إلى لوتى ؛ وإمكانية قضاء حياة غنية بالعاطفة متسامية بالإلهام تبدو له الهدف الوحيد المنشود، وإن أردت أن تقف على مدى الدمار الذى تسببه مثل هذه العقبة الهائلة التى تبرز عند مبدأ الطريق إلى التفكير المعقول السليم ، فاقرأ قصة « Dominique » لمؤلفها (فرومنتان Fromentin).

ولعلك تسألنى : « ألا يصحح المعلمون الفرنسيون أبدا هذا السرف والإغراق ؟ » والجواب أنه ليس من المحتمل أن يستأصل المعلم الفرنسى وعلى الأخص فى باريس هذا السخف، ذلك لأنه هو نفسه ضحية له ، عدا المدرسين فى المدارس الإنجليزية وبنوع خاص الأمريكية ، الذين ينشرون كتبا ، كيف يستطيعون ذلك ، مع أنهم حينما لا يكونون مع التلاميذ يعلمون ؛ فإنهم يكونون معهم يلعبون ؟ ، أما المعلم الفرنسى فهو رجل قد ألف كتابا ، أو يقوم بتأليفه ، أو راغب فى تأليفه ، ومحتمل جداً أن يكون هذا الكتاب قصة أو مسرحية ، والرأى عنده أن الشهرة الأدبية هى المجد الوحيد الجدير بالسعى فى سبيله ، وأن قدوته ، وكذلك وجهة نظره التى لا يسعه إلا الإفصاح عنها ، تعمل على أن تغرس فى العمق من خيال تلاميذه ، الوهم بأن الأدباء ، من رجال ونساء ، هم الأبطال الحقيقيون ، وتتكرر كلمة « العبقرية » بالمدارس الفرنسية حتى

لا يستطيع التلاميذ أن يفلتوا من الاقتناع المزدوج بأنها الشيء الوحيد الجدير بالحصول عليه ، وأنهم لن يحصلوا عليه قط .

ويبحث الغـلام الفرنسى فى لهفة عن تجسدات العبقرية الحية ، وعاجلا أو آجلا يجسد لنفسه واحدا من اكتشافه الخاص ، وفى غضون ذلك يستسلم تماماً لنفوذ معلمه ، وأحيانا للتلميذ رائد فصله ، وهذه عادة فرنسية متأصلة لا يستطيع أى تلميذ إنجليزى متعجرف أن يعطى فكرة عنها ، ولست أظن أن الألفاظ الفرنسية الساخرة التى تميز بقسوة بين رأس الفصل « Tête » وذيله « Queue » موجودة فى أية لغة أخرى ، وهى تدفع الذيل التعس لأن يذعن فى ذلة لمن يظن خطأ أنه أعلى منزلة وتقضى على احترامه لنفسه ، أما فى البلاد الأخرى فإن التفوق الرياضى أو المغامرات ، أو بعض البوادر بأن يكون التلميذ من رجال الأعمال أو الإدارة البارزين ، تضفى على الغلمان ، المزعوم تخلفهم ، شعورا بالقوة التى تخاصهم ، ولـكن التفوق العقلى بالمدارس الفرنسية لا يقبل التحدى ، وعقدة النقص التابعة له حرة فى أن تملأ النفس التى غزتها يوماً ما .

والنتائج العملية فى حياة الشعب نفسه قاصرة على الإغراق فى رؤيتها ؛ وإن نزعة الفرنسيين الشغوفة بالأفكار تجعلهم يتصورون أنه عنـد الإفصاح عن فكرة ما ، فإن خصائصها ستكفى لتحقيقها ، ومع التحليل السليم يصبح ميسوراً أن يتقلص هذا السخف لتبرز الفكرة بأن شخصاً عملياً سيقوم بأداء ما نتعالى نحن عن إنجازه ، ومن ثمة تأتى الرؤية الدائمة والعرض المتألق للإصلاحات مصحوبة بهجو مرير للمساوئ ، الأمر الذى تتسم به الأحاديث الفرنسية ؛ وقد صحبت

مرة زائراً أجنبياً إلى منزل صديق لى، حيث كان الإصلاح الاجتماعى هو الشغل الشاغل له ولمن يترددون على منزله ويؤلفون ندوته ، ولقد بلغ التأثر بهذا الشاب الجاد كل الجد ذروته ، وراح يقول : « إن عمراً بأكمله لن يكفى لتنفيذ كل المشروعات التى بدت خلال حديث هاتين الساعتين ميسورة التحقيق» وفى يوم الأحد التالى صحبته للندوة ذاتها ، فلم يهتم أحد بمجرد التنويه بأية واحدة من الإمكانيات التى بدت قبل أسبوع واحد هامة مجلى ، وبدلا من ذلك ابتدع الحاضرون مجموعة جديدة تماماً من المقترحات وراحوا يناقشونها متحمسين ، فاستبدت الدهشة بالشاب ، وقد أقلقنى بعض الشىء كنه رد الفعل عنده ، ذلك لأن الجد لا يزدهر بجوار التألق الفكرى .

وتساور الحيرة ، بصورة متشابهة ، أولئك الأجانب الذين يقضون فى فرنسا مدة تكفى لأن تجعلهم يتأثرون شخصياً بضروب النقص العديدة فى حياة الشعب الرسمية فهم يتساءلون : كيف يستطيع مثل هؤلاء الناس الأذكياء أن ينسجموا مع مثل هذا الشىء ذاته ؟ ، وفى الوقت المناسب يهتدون إلى إجابة يردون بها على أنفسهم ؛ ولم أنس بعد الحكم الذى أصدره بهذا الصدد فى حضورى أمريكى مشهور حين زرت الولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٠٨ إذ قال : « إن الفرنسيين شعب ألمعى ولكنه غير ذكى » وكان مما يغرى المرء أن يجول بخاطره أن كلمة «ألمعى » ذات شمول عجيب فى الإنجليزية الأمريكية ، ولكنى شعرت بلدغة الحق ، فالفرنسيون لا يضيقون بالطاعن شريطة أن يتهيأ لهم الضحك أو التعليق بما يعن لهم من ملاحظات ساخرة لاذاعة ؛ فحملات الصحافة ، وجهود التوعية المنظمة ، التى تقوم بها الولايات المتحدة دون كلل أو ملال ، يستحيل القيام بها فى فرنسا .

وموقف الفرنسيين من رجال السياسة عندهم ، من حيث طول الأناة وإفساح الصدر ، صنو لما سبق ، وهو يصدر من نفس الشعور بعلو الأفكار فوق مجرد الأحداث غير المتيقنة ، وهم يحتقرون رجال السياسة كما يحتقر السادة الكسالى خدمهم الأوغاد ؛ ولا ترد قط على خاطر الفرنسى العادى تلك الفكرة الإسكندناوية فى دفعهم كى يكونوا وكلاء عن المجتمع ، أو فى انتظار نتائج محسوسة من حضورهم بمجالس الإدارة القومية ، والحياة ، فى ظنه ، ليست قاسية جداً ، حتى ولو لم تحاول الحكومات أن تجعلها كاملة ، فالازدراء المهذب الفكه هو الإصلاح الكافى .

وإيثار الأفكار ، خاصة الأفكار العامة التى تسمح بالرؤى المبسطة ، سجية فرنسية ، حتى ولو أسفرت عن أخطر النتائج ، والرجل الإنجليزى ، وهو عملى فى كل الحالات ، والأمريكى ، وهو عملى فى معظمها ، يدرك كل منهما متى تكون بلاده معرضة لخطر حقيقى جسيم ، ومن ثمة يكف فوراً عن مناقشة الآراء كى يهيئ الإجراءات العملية ، « والرقص فوق بركان » هى لامراء عبارة فرنسية تصف موقفاً فرنسياً ، والأفكار فى فرنسا تزيد فى الاعتبار على الوقائع ، ومادام التعليم على وفاق مع التحيز القومى فى إيثار فن الحياة على الصراع فى سبيل الحياة ، فستستمر وجهة النظر هذه ذات الجانب الواحد .

والآن دعنا نتذكر صبينا الصغير ، فى التاسعة أو العاشرة من العمر ، ملهما حتى ليحسده فطاحل الشعراء ، ومفعما بحب الاستطلاع الفاحص حتى لتعجز الفلسفة عن ملاحقة أسئلته ؛ ماالذى يؤول إليه أمره حين يغادر المدرسة ؟ فى أمريكا يصبح شاباً قوياً فارع العود ، كله عضلات ورغبات ، أما فى فرنسا

فيصبح شابا نحيلا ، كله ذهن وغير معد للحياة على الإطلاق ، معرضاً للعجز عن التمييز بين الأفكار والحقائق وبين الألفاظ والأفكار ، وكل منهما قد نال تعليمه ، وكل منهما قد نال سانحته ، وسيظل الأمريكي دائماً سيء الإعداد ! مليئا بالثغرات العقلية ، مذبذباً بين الثقة والتهيب دون تستر أو خفاء . أما الفرنسي فستسربله غلالة من التكلف والتصنع مالم يخلصه دينه أو حبه لوطنه أو أي دافع نبيل آخر ، فكل من الرجلين ستستبد به أفكار بيئته دون أفكاره الخاصة ، والتعليم الذي لن يجدي فتيلا ما لم يكن فنا تجريبياً للتفكير سيكون محط اللوم لهذه النتيجة .

الفصل السادس

الفكر تضعفه الحياة

(ا) حياة الفكر

اعتاد الناس أن يمتدحوا الحياة باعتبارها المربى الأعظم ، والواقع أنه ما من أحد يستطيع أن ينكر أن الحياة سلسلة من الدروس يدعمها جزاء معجل أو ، فى الأرجح ، تأديب معجل ، لا يمكن إغفاله ؛ وتخلق فينا ضروب فشلنا ونجاحنا غريزة للأمان نزينها بنعتى الخبرة أو الحكمة ؛ ومن الحقائق أيضاً أن الفعل ، حين يكون من نسيج معين ويستدعى أفضل ما عندنا من طاقات ، يؤثر فينا كما قد تؤثر أنبل خبراتنا ، ونلتفت للخلف ، فى نزوع متلهف ، نحو السنين أو الشهور القليلة التى استمر الجهد متأججاً خلالها ؛ وكلمة « الجبهة » تعنى ، عند بعض الناس ، المكان ذا الاسم الرفيع الغامض حيث تكون روحهم فى ذروتها . . . والفعل ، فى هذا المستوى الرفيع ليس فقط يستطيع مساعدة الفكر ، ولكنه ينتجه ، فى استمرار يرق به إلى حد الابتداع .

وعلى أية حال فهذه خبرات نادرة ولا يمكن إنكار أن الحياة اليومية، وهى الجهد الماثل فى وضوح ، المتكرر يوماً إثر يوم ، لألف مايون من البشر

تضيف إلى الرصيد العام قليلا من الفكر أو لا شيء منه على الإطلاق ، بل إنها ، على النقيض من هذا ، تنهك قدرة المرء على التفكير ، ويقول أفلاطون : « إن الخبرة تأخذ أكثر مما تعطى ، والشباب أقرب للأفكار من الشيب » فالقديسون الشبان غير نادرين ، على حين أن الشيخ منهم استثناء مبهج ؛ وليس فى مقدورنا أن نفصل العزلة والحرية والفراغ عن مفهومنا للحياة المكرسة للفكر : فسبينوزا فى حجرته الواحدة حيث قامت الرتابة المختارة بعناية لعمله اليدوى فى التأثير عليه مقام حياة الدير الرتيبة فى التأثير على الدارس البندكتى ؛ وديكارت فى ارتحاله عن باريس إلى إحدى ضواحى لاهاى النائية الهادئة ، وبوسيه فى اعتكافه كالناسك بالكوخ الذى فى أقصى حديقته ؛ وباستير أو أديسون بمعاملهما المحرمة على غيرهما ؛ والرهبان المتعلمون فى أديرتهم ؛ والحكماء فى عزلتهم الظليلة فى إحدى قرى ما سوشتس ، والفنانون فى محاولاتهم الدائمة لتكوين مستعمرات مكرسة للعمل الخالص المبرأ من الغرض : جميعهم يظهرون لنا صوراً من نوع الوجود الذى يخيل إلينا أنه ملائم للتفكير ؛ فالحياة الاجتماعية التى يزاولونها تهبط إلى الحد الأدنى ، فهى لا تزيد إلا قليلا على أن تكون قراراً موسيقيا ناعما لعمل العقل كما كان أزيز مغزل مهجريت لحلم يقظتها ، فلزام أن نحس رمقا من الحياة ينبض إلى جوارنا ، بل إن رشفة يتناولها المرء ، بين الفينة والفينة ، من النشاط المسرف لهى جرعة مقوية ، ولكن ينبغى ألا يكون التواصل الاجتماعى أشد ربطا مما يحدث لنا مع الحارس الذى يحمينا خلال الليل .

(ب) ضروب الحياة غير المفكرة :

على أساس مناقض لما كان يفعم حياة سبينوزا من هدوء وأمان وتركيز ،

يقوم وجود معظم من نعرفهم من الناس ، فهم يتحدثون عن أنفسهم ، الأغنياء منهم والفقراء ، كعبيد مساقين ، أرقاء « لا يستطيعون أن يزعموا ملكيتهم لأنفسهم » .

ويلاقى الملايين العنت والعسف فى العمل اليدوى ، إما لزحمته ، وإما لأن رتابته قد انتزعت منه الحياة، وإما لأن تعاقب مديحه والحط من شأنه عن طريق من يدعونهم بالزعماء العماليين يبدل علاقتهم الطبيعية بمهنتهم ، بعدم الوثوق وأحيانا بالكراهية ، ومئات ألوف عديدة ممن يشعرون بالميل للتفكير الرفيع عن عملهم ويقدرون كرامته ، لا يستطيعون التمادى فى ميلهم أو الاغتباط به لعدم توافر الطمأنينة فى حياتهم ، وحين نلمح آثار الإرهاق المبكر على وجه إنسان ما ، ففى تسع حالات من عشر ، يمكنك التيقن أن زحمة العمل ليست هى محط اللوم والتثريب ، فالمسئول عن هذا الإرهاق هو القلق لعدم وجود عمل يؤديه ، فغارت العين وتهدل الفم ، ورجال الأدب أو الفن ، ممن لهم حرفة بغير كسب ، هم المثل الصارخ على هذا ، وبعد أن يشتهروا يميل مؤرخوهم لترديد الزعم القاسى السخيف بأنه من صالح الكتاب ورجال الفن أن يعانوا من الجوع بعض العناء ، والواقع أن الثروة تؤذى الفن ، ولكن رجال الفن لا يستطيعون العيش بدون قدر معين من النجاح ، فغير معروف على الإطلاق أن الإخفاق والقلق يكشفان عن أفضل ما عند الإنسان من مواهب ، بل طالما أسفرا عن النقيض من ذلك ، إذ ينشد المرء ملاذا فى كره البشر أو فى التحلل الخلقى ، ولو جرب الطريق المألوف للنجاح ، وحاول أن يجعل نفسه محبوبا أو شعبيا ، فتودد للأغنياء وذوى النفوذ من الناس ، لفقد كرامته ، ولانحطت صفة التفكير عنده فى الوقت ذاته .

والعبيد الأرقاء هم الأغنياء أيضا ، فالمبشرون ودعاة الأخلاق يجنحون للقول بأن الأغنياء أقل هناء من الفقراء وأوفر هموما ، وقد سمعت مرة راهبا ملتحيا من الفرنسيسكان يقول إن الصلبان الذهبية أثقل من الصلبان الخشبية ، وتبدو هذه الاستعارات مقبولة تحت قباب « كاتدرائية » ولكنها تجافى الصواب ، فلا توجد صلبان من الذهب كبيرة إلى حد أن يصلب عليها إنسان ما ، وإن وجدت فمن الممكن بيعها بثمن باهظ يصرف فى أوجه البر ، وشواغل الأغنياء أقل من شواغل الفقراء — هذا هو الحق الصراح — ولكنهم ينساقون بغيرهم من الرجال والنساء ، أرقاء لضياع منظم ، وعبيدا لضروب اللهو ، وشكواهم التى لا تنقطع هى عدم وجود أى وقت لديهم على الإطلاق ، وأنهم يبتهجون بأن يحل المرض بهم ، بين الفينة والفينة ، كى يختلسوا فترة قصيرة للراحة ، ولكنهم يرهبون الوحدة ، والكلمة الوحيدة عندهم المضادة للفظ « اللهو » هى « الملل » ، وتعلمهم الأسفار طرفا عن مظهر الدنيا الخارجى ، وتمنح الحياة الاجتماعية أفضل الموهوبين عندهم ذخرا من الحقائق — ومع ذلك فمثار الدهشة ما تلاحظه من قلة ما يعرفونه عن الطبيعة البشرية — ولكن يعوزهم الزمن الذى يكرسونه للفكر ، أما تذوق الحديث الجاد أو الكتب الدسمة فقلما يتوافر لهم أو سريعا ما يفقدونه ، وهم يعيشون على الغرائز الممعنة فى بدائيتها ، ينشدون السعادة فى اللذة والجاه وصغائر الأمور .

وهم ، فى كل ما يفعلون ، يحاولون أن يبيعوا أكثر مما يشترون ؛ غير مدركين أن الأنانية فى حياة العاطفة ، تعطينا ظل المادة ؛ وسرعان ما يختل مقياس القيم عندهم ، فيؤثرون التحقيق العاجل لأغراضهم على ما هو أعمق من ضروب

المسرات المجهولة ؛ ورجل المجتمع هو شخص، على نطاق واسع ، يجافى الصواب لأن عقله مفعم بصور ذهنية رخيصة وأوهام مستبدة . والمعاشرة فى حياة مثل هؤلاء الناس ، هى أقوى طاغية . . ناس ، ومزيد من الناس ! فالبارزون من الرجال والنساء كثيراً ما يظهرون فى قاعة الاستقبال أو على مائدة الطعام ؛ ولكن أى نفع لهم وراء الرضا الرخيص بعبارة « أوه » « إنى أعرفه » ؟ من ينصت لهم ؟ من يساعد المضيفة فى جهدها كى تتيح فرصة للعظيم من الأدباء ؟ من ذا الذى يرغب فى الاستفادة من عقلية نادرة ؟ لقد شاهدت الكاردينال مرسييه ، فى مناسبتين ، مضيعاً لا يؤبه به ؛ ولا يستطيع الأمريكيون أن يدركوا عدد فرص التحسن العقلى التى يضيعونها بعادتهم المتأصلة فى إثارة ست محادثات حين يكون بالحجرة اثنا عشر شخصاً .

والخلاصة هى أن الطفل يلاحظ الراشدين ويبدأ فى التفكير بأفكارهم ؛ فهو يذهب للمدرسة وكثيراً ما يفرض التعليم عليه أفكار الآخرين بدلا من أن يعاونه على العودة لتفكيره الخاص ، وحين يغادر المدرسة ينبرى لجمع المال ، أو لتدعيم مركزه ، أو لإشباع نزواته ؛ فلا مجال للتفكير بعد ذلك ، اللهم إلا إذا اعتبرنا التفكير هو استخدام المرء لعقله بغية تحقيق أغراضه العملية، والحياة تؤدى العكس تماماً مما هو مفروض أن تؤديه ، فهى ترحل بعيداً عن الفكر ، والعملية تبدأ ونحن فى العاشرة من العمر .

(جـ) الضياع الهائل :

من المفروض أن تكون المطالعة عونا للتفكير ، فالإنسان الذى يقرأ يستعير ببساطة أفكار إنسان آخر ، وهـذا يعنى نزوع متعطش للتفكير ،

ومعروف أن ندرة الكتب تصل إلى حد الصوم العقلى ، ويقول بيكون إن المطالعة تصنع إنساناً مليئاً ، وبينما كان دانجو يتناول الغذاء يوماً على مائدة الملك لويس الرابع عشر أجابه عن سؤال وجهه إليه بالرد التالى : « إن المطالعة تصنع لعقلى ما تصنعه لحوم دجاجاتك الشهية لوجنتى » .

ولكن ثمة مطالعة ومطالعة ، وكلمات مثل « الذكاء » ومثل «البديهة» ظلت معمولا بها وقتاً طويلا ، وقد أخذ إطارها يتحول عما أعتاد أن يكون عليه ، والمطالعة ، فى أولى مراحلها لم تستطع إلا أن تكون ضرباً من طقوس الكهانة القديمة أو الأفعال السحرية ، وطريقتنا فى القراءة بأن ننقل العين سراعا على صفحة من الحروف المطبوعة كانت حرية بأن تثير الدهشة فى نفوس القدماء بل وأن تبهرهم ؛ وقليل من الناس ، فى القديم ، عرفوا كيف يقرءون ، وقليلون أحرزوا كتل القرميد أو الأحجار أو لفائف الصحف اللازمة للقراءة ، وهكذا ، مثل هيرودوت فى الألعاب الأوليمبية ، كان المرتقب أن يمنحوا إخوانهم ، الذين يقلون عنهم حظا ، بعضاً من الكنز الذى فى أيديهم ، ويبدو أن القراءة بصوت مرتفع كانت هى السائدة ، ولا مشاحة أنها ظلت طويلا هى العادة القائمة حتى فى القراءة الخاصة ، والريفى الذى يحرك شفتيه حين يقرأ إنما يزاول عادة تقليدية متأصلة ، وخصى كنداكه[1] الذى كان يطالع فى سفر

(١) هو خصى وزير لكنداكه ملكة الحبشة ، وكان على جميع خزائنها ، وعند عودته من أورشليم إلى بلاده ، على الطريق المنحدرة منها الى غزة ، أمر ملاك الرب فيلبس كى يلحقه ، فسمعه وهو يقرأ داخل عربته إحدى النبوءات التى وردت بسفر أشعياء عن المسيح ، فبشره به ، إذ كان فيلبس من الحواريين ، وهم تلاميذ المسيح ، وقد آمن الوزير الحبشى ونشره المسيحية بالحبشة بعد عودته إليها . (الإصحاح الثامن من أعمال الرسل)

أشعياء النبي على طريق غزة ، ما كان ليسمعه فيلبس الرسول لولا أنه كان يقرأ بصوت مرتفع ؛ ويذكر لنا أيضاً كاتب لسيرة القديس أمبروز أن رئيس الأساقفة الحكيم هذا عانى فى شيخوخته من تجربة قاسية إذ اضطر فى شيخوخته أن ينقطع عن القراءة « لإصابة حنجرته » وهكذا فإن الناس لا يتناولون كتاباً إلا لغرض وفى وقار مدخر الآن لقراءة الكتاب المقدس أو الوثائق ذات الصفة القريبة من القداسة ، وكانت الروح بأكملها فى حالة نزوع وتطلع ، وقوتها برمتها — دون أن يقللها تشتت ذهنى أو أوهام ما — مستخدمة فى المهمة العليا ، فمن ذا الذى يستطيع التشكك فى أن المطالعة ، مع مثل هذه الشروط ، لابد أن تكون مثمرة ؟ وفى مناقشة دارت حول فقرة منسوبة للافونتين ، انتصر لا جوفيه ، وهو مجرد رجل من المجتمع ، على كوزا ، وهو فيلسوف ودارس ، وحين سأل كوزا عن السبب أجابه الرجل الآخر قائلا : «أطالع لا فونتين دائماً بصوت مرتفع ، بينما تطالع أنت قصصه كما يفعل معظم الناس ، وإن صوتى لينبئنى عند وجود أى خطر فى إفساد معنى أى سطر » ... وهكذا كانت سجية القراءة الممتازة .

وكانت المادة المقروءة جيدة ، وكانت الكتب قليلة ومرتفعة الثمن ، ولم تكن هناك فكرة عن جمعها دون تدقيق ، وحتى اختراع الطباعة لم يعدل فى مبدأ الأمر إنشاء المكتبات ، وكان أساسها هو الكتب الدينية ودواوين الشعراء ومؤلفات الفلاسفة ؛ أما المطالعات الخفيفة فكانت المكتبات تستمدها من هوميروس أو من المؤرخين ؛ وقلما زادت المجلدات التى تضمها مكتبات الملوك والأديرة الغنية عن بضعة آلاف قليلة ؛ وبدهى أن مجموعات الأفراد كانت أقل عدداً ؛ وكان أسبينوزا يمتلك ستين مجلداً لدينا قائمة بها ؛ ويعد ذلك بمائة

سنة جمع كانط ثلاثمائة ، ولـكن نصف هذا العدد كان من قصص الأسفار إذ كان لـكانط جانب يعوزه الجد .

واقتصر الناس ، بدافع من الحاجة والاختيار التقليدى على مطالعة ما ندعوه الآن بنتاج الأدب اليونانى واللاتينى Classies ولـكنه كان يسمى ببساطة ، فى ذلك الحين ، كتبا جيدة ؛ وكانت فى الغالب تـكتب بلغات صعبة ، لم يكن ليكفى أن تؤخذ ، فى غير جد ، كما هو الحال مع طلبتنا فى الوقت الحاضر ، ولـكن كان يتحتم إتقانها ؛ وكان من اللازم التخاطب باللاتينية ، بل حتى اليونانية كان بتافيوس لا يزال يستعملها حين دافع عن موضوع رسالته فى سن الرابعة والعشرين ؛ ويعج كتاب « كنز اللغة اليونانية » Thesaurus Linguae Graecae لستيفانوس بأصـداء المحادثات اليونانية التى دارت بالقسم الخلفى من حانوت الطابع ؛ وكانت مهمة الدارسين فى تلك الأيام تعالج كل شئ بإصرار هو النقيض التام لعقدة النقص؛ فإذا درست مجلداً وقفت على دراسات الدين المسيحى المقدسة ؛ وإذا طالعت كتب أكويناس الضخمة القليلة عرفت اللاهوت ؛ وإذا طالعت موسـوعة القانون الرومانى التى وضعت فى عهد جستنيان بالقرن السادس الميلادى عرفت القانون ؛ أما الجهد الذى كان يقوم به آلاف فهؤلاء لم يفكروا فيه أكثر مما يفـكر كهربائى مبتدئ معاصر فى حاول الوقت المناسب لـكى يتقن حرفته ، فـكان لـكل دقيقة قيمتها .

ولذلك فليس من المستغرب أن الـكثيرين من الناس كان يظن عنهم ويظنون هم أنفسهم أنهم يمتلـكون فعلاً كل معرفة عصرهم — وهو اعتقاد يبدد كل الأوهام — وليس من المستغرب أيضاً أن رجالا ممن لا يسعنا إلا أن ندعوهم من الشباب ومن القاصرين كانوا محط احترام غير مشوب ، ونحن نتكلم الآن

عمن هم فى سن الأربعين كما لو كانوا من الشباب ؛ وهذه فكرة حديثة تماماً نشأت من الواقع وهو أن الحكمة لامناص الآن من أن تقحم علينا ؛ ولم يسخر أحد قط من رجال الثورة الفرنسية بسبب شبابهم ، كما حدث مع رجال ثورة الحكم المحلى بفرنسا « Commune » بعد ذلك بثمانين عاماً ؛ وفى قصة الصراع الرهيب بين أطباء الباطن والجراحين ، التى ساقها جاى باتن عام ١٦٦٠ ، ذكر أن الفريق الأول كان يدافع عنه السيد لنجليه ، أستاذ البلاغة فى « كولج دى بليس » وعميد الجامعة، ويردف قائلا إن هذا الخطيب المصقع كان من مواطنى بوفيه ، وكان عمره ستة وعشرين عاماً ، ولكنه لايختص أى بيان من هذه باهتمام أكثر من الآخر ؛ فرجل فى السادسة والعشرين كان رجلا لاصبياً، كما نتخيل بحماقة ونقول صراحة ، الأمر الذى يعوق سير القافلة ببث وهم خطير، وكان رجل ما قبل العهود العلمية ، يحس نفسه معداً تمام الإعداد قبل بلوغه الخامسة والعشرين ، إذا بدأ مبكراً بما فيه الكفاية ، واشتغل بقدر كاف من الجد ، وعمل فى أحسن الظروف .

أما فى وقتنا الحاضر فقد أصيبت الطباعة بالجنون وأصبح العالم فى خطر من أن يغوص فى خضم من الكتب ، وينشر سنوياً ، فى فرنسا وحدها ، أحد عشر ألف مجلد مقابل حوالى سبعين فى عهد لويس الرابع عشر ، ومن ذا الذى يستطيع أن يفكر ، دون أن يشعر بالدوار والسقم ، فى ملايين الملايين من الكلمات التى تغمر المدن الأمريكية صباح كل أحد ؟ وسيقول المحررون غير الأبرياء : « اختر لنفسك بنفسك » ... وعبارة « اعرف ما تريد ! إنه لدينا معدلك ! » — هى قولة ناصح حكيم ، دون شك ، ذلك لأنها تحوى فى أحشائها فن التفكير بأكمله ، ولكن لا يستطيع اتباعها والعمل بها سوى

الرجل الذى يعرف كيف يفكر ، وملايين غير هذا وأمثاله سيرهبهم أو يبهرهم هذا الغزو الهائل الذى يشنه عليهم إنتاج المطابع ، فى مثل هذا الارتباك تتوالد الأوهام وعقد النقص كما تتوالد الجراثيم فى محلول حى ، ويحتمل أن تكون أسوأها هى الفكرة بأن المرء لا يستطيع أن يكون رأياً عن كل كتاب ولكن يتحتم عليه أن يتظاهر بتكوينه ، وهذا من شأنه أن يجعل الميدان مباحاً ، وأن يوفر حشداً من أرقاء الشعارات ، فيدعى الناس قراءة ما لم يقرءوه ، ويرددون بوجه ما حكم الآخرين على ماطالعوه ؛ ومن المؤكد أنه لا شىء يستطيع أن يدمر الفكر والقدرة على التفكير مثل هذا ، وليس ثمة رافعة تستطيع أن تنتزع إنساناً من روحه مثله .

وما الذى يقرؤه الناس حين يقرءون؟ من المؤكد أنهم لا يقرءون مؤلفات أ كويناس أو موسوعة القانون الرومانى ، ويدعى كثيرون أنهم يطالعون الكتاب المقدس ولكن ما أقل من يصدقون القول ! وثلاثة أو أربعة فى الألف يطالعون دواوين الشعراء : إنهم يثيرون نفس الدهشة — المشوبة بالريبة — التى يثيرها الشعراء أنفسهم ؛ أما الذى يتم إنتاجه على نطاق واسع ، ويقتحم دائما على انتباهنا ، ويعلن عنه بالأبواق ، ويضخم بالنقد فهو القصص الخيالى، فالقصص الطويلة تملأ المكتبات وتكتظ بها الأرفف ، والقصص هى التى يطالعها الناس فى الريف حيث لا يوجد سوى وقت قليل لقراءتها ، وهى التى يدعى قراءتها أولئك الذين يقيمون بالمدن حيث لا يتوافر أى وقت إطلاقاً لقـــراءة القصص ، وهى ليست من الأدب القصصى العظيم الذى ، منذ القرن السادس عشر ، قد أضاف المزيد إلى معرفتنا للجنس

البشرى ، أو حتى خلفه المعاصر مما له نفس الشهرة التى لا نستطيع تجاهلها ، فالقصص المقروءة اليوم هى فى الواقع ، والقراء يعرفون ذلك ، سخف ما بعده سخف ، وحتى عناوينها يطويها النسيان فى أسبوع واحد ، وقد سألت مرة صديقة إنجليزية ، وهى سيدة على خلق عظيم ومبرأة من خسيس الأفعال : « ماذا تطالعين ؟ » فأجابت « قصة » — « من مؤلفها ؟ » — « لست أعلم » .... (بعض شعور بالذنب ، ضحكة مكتومة تحمل معنى الاعتذار) .

وتقرأ القصص لقتل الوقت — وهى أشد عبارة فى اللغات الحديثة تدنيساً لكل ما هو جليل أو مقدس — ومنذ أن أضعف القصص الخيالى حتى الموت الأجيال الثلاثة أو الأربعة الأخيرة من الناس ، فإن كلمة « يقرأ » لم تفقد فقط جلالها السابق بل وغيرت معناها نفسه ؛ فهى تذكر الآن ، مع التدخين ولعب الورق ، كوسيلة لتوفير بعض الاستجمام البدنى ، وقد استبعدت فكرة أن يكون للمرء هدف حاسم فى الإقبال على المطالعة بكل نفسه ، فالغرض الحقيقى المختفى وراء عملية القراءة الجماعية هو « عدم التفكير » .

ويتضح هذا جلياً حين يستخدم قاتل الوقت الصحف ؛ ولست أعنى صحائف النقد الأولى أو حتى المجلات ، فأى امرئ وقع فى الريف ، حين أعوزته الكتب ، على مجموعة منسية من مجلة العالمين الفرنسية أو مجلة الأطلنطى الشهرية الإنجليزية أو حتى مجلة بريد مساء السبت الإنجليزية لأدرك مقدار الغذاء القوى المحفوظ فى تلك الأشياء الموقوتة فى ظاهرها ؛ أضف إلى هذا أننى سأنتهز الفرصة فى الباب الثالث من هذا المجلد كى ألفت النظر إلى قدرة الصحيفة اليومية على تحويل نفسها إلى آلة للتفكير من الطراز الأول ؛ ولكنها تتطلب وجود

حاجة خاصة ، أو موهبة خاصة ، أو تعليم خاص لرفعها إلى ذلك المستوى ؛ وفى معظم الحالات لا يطالع المرء الصحيفة على الإطلاق أو يكتفى بأن يلقى نظرة عابرة عليها ؛ وغالبا ماتظل مطوية بعناية حتى وقت متأخر من بعد الظهر حتى تحس الخادمات أن عليهن أن يتحن لها الفرصة ، بل إن طريقة وضعها فوق الأريكة يكشف عن نوع العناية التى أغدقت عليها .

إن القياس الصحيح لإمكانياتها كمضعفة للفكر يؤخذ حين نراقب شخصاً عاديا وهو يطالع صحيفة فى القطار ، وإنى لأذكر يوما شاهدت فيه رجلا يجلس مواجها لى فى الطريق بين فيلادلفيا و نيويورك ، وكان كل منا يسند صحيفة « فيلادلفيا لدجر » إلى ركبتيه ، وقد وضعت بضعة علامات بالأحمر على نسختى ثم رحت ألاحظ السيد المسافر ، فقرأ قصة بطولة السباحة التى قامت بها إحدى السيدات فى نهر الهدسون ، وكانت قصة طويلة إلى حد ما فجاءت تكملتها على الصفحة السادسة ، العمود الثالث ، ولكن السيد لم يكن صنواً لجهد تقليب ثلاث صفحات كبيرة ، وكان يطالع دون أن يجهد نفسه .

وهكذا ، إذ ترك حورية البحر المكسوة بالشحم ، انتقل إلى استجواب المرأة صاحبة الخنازير فى قضية نيوجيرسى ، وإذ أذهلته قذائف الأسئلة المتتابعة غير المتصلة ، التى وصفتها هذه المرأة بعبارة خالدة إذ قالت « كلام ، كلام ، ثرثرة ، ثرثرة » راح بالتتابع يتمطى ويتثاءب ، ولكنه لم يسقط سطراً واحداً ، وقرأ الرجل الصحيفة بأكملها على هذا النمط من الملل ورغبة النعاس ، مع ومضات من النشاط بين الفينة والفينة ، مصحوبة بتخشب الجزء الأعلى من جذعه و نظرة كالصقر يلقيها السيد من النافذة إلى لاشىء ، وبعد حين عادت

السباحة للظهور فى ركن ، وعادت المرأة صاحبة الخنازير فملأت أعمدة متتابعة ، وكانت هناك رسالة من الرئيس إلى الكونجرس ، ومقالات من المحررين ، وأخبار عن سوق الغلال ، والسفن ، والرياضة ، وقد قرأ المسافر كل هذا على النهج نفسه ، وبعدم الاكتراث البالغ نفسه ، حتى أشرفنا على النفق ، وبعد ذلك انتزع الرجل نفسه من وهدة الخمول والتراخى ، مظهراً رد فعل عجيب ، فقد قذف بالصحيفة المتهالكة ، ووثب واقفاً ، وراح يتحسس بحثاً عن سجائره ، لقد كان يقرأ ! .

تصور النتائج ، على مدى الزمن ، لهذه العملية العقلية المزعومة ، التى تتألف من تقديمها للعقل العديد من مختلف الشئون التى لايوجه إلى أى منها اهتماماً صادقا ، وإذا تذكرنا أن أكثر محاولاتنا جدية للتحكم فيما نقرأه تعرقلها دائماً الصور الذهنية الطارئة التى نسميها ضروباً من التشتت العقلى ، مخلفين تقريباً ثلثى وعينا اللائم لما نقرأ ، ولا يساورنا من الشك إلا أقله فى أن القراءة ، كما يزاولها معظم الناس ، ليست سوى طريقة لعدم التفكير ، وإذا استمر الأمر على هذا المنوال بضع سنين ، أصبح الذهن — كما ينعت بحق — هلامياً ، وهذا ما يحدث فى الوقت الحاضر ، عمراً بأكمله مع الرجال والنساء ، فهم يغادرون المدرسة فى الثامنة عشرة أو الثانية والعشرين من عمرهم ، وتكون الضرورات العملية قد أرغمتهم فى هذه المرحلة لمطالعة الكتب الجادة غالباً ومطالعتها بجد : وطوال فترة التعليم كانوا يسيرون على النهج القويم ، وأول شىء يفعله العالم وحضارته المزعومة معهم هو إقناعهم بأن روائع المؤلفات شاقة ، والموسوعات مدعاة للملل ، بينما يسير الأدب الحقيقى مع الحرية جنبا إلى جنب ، ومن ثمة تكون المطالعة أحد القوى المدمرة المصطنعة ضدهم ، فالصحيفة ، قبل كل شىء ،

ستبهرهم بوثباتها من موضوع لآخر، أو تضعفهم بتناقضاتها إلى حد الشك العام المزيل ، وهكذا يصبحون ألعوبة فى أيدى واضعى عناوين المقالات الرئيسية بالصحف غير المسئولين .

وهنا دعنى أستحضر لذهنى ، لحظة واحدة ، الوجه الجاد لرجل منهمك فى العمل ، يفكر فى الثقافة العقلية كفردوس مفقود ، وقادر أن يكرس على الأكثر نصف ساعة يومياً للمطالعة الدينية أو الفلسفية ، أو أحياناً لشاعر جدير بنعته ، لشد ما يبدو هذا الوجه نبيلا وعاطفياً ! ولشد ما تنحنى لتلك النتائج الباهرة دائماً التى تهيؤها الدقائق الثلاثون المفرزة للتفكير ! ولكن ما أندر ما نلاقى الشخص القريب من البطولة الذى سينقذ نفسه من الهلاك ، بينما يلقى الملايين بأنفسهم فى خضمه وهم سعداء ، والرأى بأن شيئاً كالطباعة يسفر عن نتيجة كهذه يكاد يكون غير محتمل .

والمحادثة هى ضرب آخر من الضياع ، وهو أمر معروف جداً ، ومن سوء الحظ لا مفر منه حتى إنه لمن غير المجدى أن يتفوه المرء عنه بأكثر من كلمة ، قال باكون : « يصنع تداول الحديث رجلا مستعداً » .... مستعداً لأى شيء ؟ ويبدو أن القدماء ، مثل معظم الشرقيين الآن كانوا لا يتكلمون إلا حينما يكون لديهم شيء يقولونه ، ويبدو أن معيار تقويمهم لما كان يستحق القول وما لا يستحق هو نفس معيار أفضل كتابهم ، ومن ثمة جاءت قوة أحاديثهم ، وحين يهتدى كاتب ، حتى ولو لم يكن من الطراز الأول — ولنقل السيد جلزورذى — إلى خطة يقصر فيها محاوراته على العبارتين أو العبارات الثلاث القصيرة التى سينهى بها المحادثة أشخاص متزنون ، فإنه سيخلف أثراً قوياً غير مرتقب .

والآن فكر فى الهراء الذى تسمعه فى « حجرة التدخين » ، أو فى شقشقة اللسان الصبيانية الفارغة التى تسمعها فى « الأندية » ، أو فى الثرثرة المغامرة الموشاة بلمحة من مضاء الفكر التى تسمعها فى قاعات الاستقبال الفرنسية، أو فى ابتهاج الأنجلو سكسون بالملح البالية غير الطريفة ! أية سخرية فى أن نردد القول بأن الكلام هو آلة الفكر حين أصبح مجرد إشباع لنزوع بدنى ! ولو قدر لبيكون أن يعيد ، على ضوء من الوقائع الحديثة ، كتابة العبارات الشهيرة التى اقتبست منها العبارة الآنفة الذكر ، لقال إن المطالعة تنتزع الإنسان تماماً من شخصيته بعد إفساده ، وإن تداول الحديث يظهر أنه قد أضاع هذه الشخصية .

ولا يمكن أن تكون لهذا الباب الثانى نهاية إلا السوداوية ؛ فالإنسان يولد خالياً من الأوهام أو عقد النقص ، وحائزاً على موهبة للملاحظة وجمع الصور الذهنية التى ترعى التفكير وتنميه ؛ والحياة بما تحويه من مثل هذه القوى المساعدة — ظاهرياً — كالتعليم والأدب تدمر هذه النزعة الفطرية ، كما يدمر صقيع أبريل براعم الأزهار ، وتحل المحاكاة والتوافق الخسيس مكان الابتكار، إن الجنس البشرى شبيه بمدينة هركيولنيوم(1) — تغطيه قشرة سميكة تحتها تربض بقايا الحياة الصحيحة التى طواها النسيان — ولا يضل الشعراء والفلاسفة طريقهم قط إلى إحدى الحجرات المطمورة التى عاشت فيها الطفولة يوماً ما فى سعادة دون أن تفطن لها ؛ ولكن الملايين لا تعرف شيئاً سوى طبقة الحمم السميكة من العادة والتكرار ، ولفيف قليل من الناس يخبرهم بما يلزمهم أن يفكروا فيه فيفكرون فيه .

---

(1) مدينة طمرها بركان فيزوف مع مدينة بومبى فى العام السابع والتسعين قبل الميلاد بحممه المنصهرة .

الباب الثالث

معينات الفكر

الفصل السابع

إحساس المرء بحياته

(أ) العزلة الظاهرية :

كثير من الناس يخشون العزلة الظاهرية ويصمونها بالكآبة؛ وقليلون محبون لذواتهم أو خالدون يؤثرونها، ولكن كل شخص تقريباً يفكر فيها بابتهاج، فنحن نغبط مدام دى سفنييه إذ رحلت عن البلاط وعن صديقاتها لتتقاعد فى ضيعتها ببريتون ، وبوسويه أو ميريدث وحيدين فى كوخيهما المختبئين بأقصى الحديقة، وروسو فى غابته ، وسلفيو بليكو فى سجنه ، وآلين جيربو على ظهر مركبه بالمحيط ، ويبهرنا « ديكنز » بين أصدقائه فى مجلدات فورستر ، بل لماذا يزداد انتباهنا حين نسمع عن جولاته التى لا تنتهى بين أزقة لندن فى الليل ؟ فالصورة لا تظهر لنا سوى رجل يبحث فى الظلام عما لا نعرف ، ومع ذلك فإنها تأخذ بألبابنا أكثر من أى شىء نستطيع فوراً أن نناله .

والواقع أنه حتى أكثر الدنيويين شغفا بالدنيا يسأمون الخواء الذى يريم على حياتهم ، ويدركون الإفراط فى التماثل الذى تعافه النفس ، وعلى الرغم من

أنهم يؤدون دورهم فى الحياة ببسالة جديرة بوظيفة أفضل فإنهم يشعرون بالهزيمة أحيانا ، ويخففون عن أنفسهم بالشكوى البعيدة الغـــور « بأنهم لا يستطيعون أن يعتبروا أرواحهم ملـكا لهم » وهم ينشدون العزلة متلهفين ، حتى ولو لبضعة أيام بباريس فى الصيف ، أو بنيوبورت فى الربيع ، ولـكنهم لا يستطيعون دائما تهيئة ذلك ، ومن ثمـة فإن نصف عزلة بحفل موسيقى ، أو بحضور صلاة فى كنيسة نائية ، أو بقضاء بضع ساعات بالسيارة ، تسرى عن النفس بتخفيف الضغط الذى لا يحتمل .

ولدى كل إنسان شعور بالعداء للأشياء — سواء أكانت حادثة أم موجودة فقط — فنحن نبغض حجرة المخلفات المشوشة المزدحمة حيث تتعذر الحركة ، ونرغب فى إقصاء المخلفات عن أبصارنا ، كى نقلل الأشياء إلى أقصى حد كما يفعل الراهب الـكارثوزى فى صومعته البيضاء التى لا يحتفظ فيها إلا بصليب أسود بسيط على الحائط ، إننا ننفر من فـكرة الفراغ ، ولـكن لو أن قدراً كافياً منه بدا حولنا ، وفوقنا لخلق فـكرة ملاذ نلجأ إليه لتنفسنا فى حرية وسعادة ، فنحن « نجد أنفسنا » على حد العبارة المتواترة ، أجل نفسنا المهملة المسكينة ، أعز أصدقائنا ومع ذلك فنحن نجرها وراءنا فى كل مكان كـكلب تساء معاملته ،فلا نـكاد نتحدث إليها قط أو نلقى لهـا بالا ، ونذهب إلى حيث لا تجد مسرتها، حتى تظهر أخيراً مجافاة كل هذا للخصائص الطبيعية، وهكذا نحيا ، بضع ساعات بدلا من أن نـكون مجرد أحياء .

وفن التفـكير هو فن إطلاق المرء نفسه على سجيتها ولا يستطيع الإنسان أن يتعلم هذا الفن إلا إذا اختلى بنفسه، ولا ينتج المجتمع إلا أفـكارا اجتماعية،

« نداءات حربية»، أو بعبارات أخرى ، ينتج كلمات ، ولكنها كلمات تتسم بقوة الأمر ، وتنتج العزلة إحساساً بهيجاً بالإدراك الواعى ، الإدراك الواعى بأغوارنا السحيقة ، على أية صورة كانت ، وهى لا تعجز قط عن تحقيق هذه النتيجة ، خذ قدحا ، فى صباح ما ، من القهوة القوية ، لتحتفظ بيقظتك ، لا تستلق على الفراش بل تمدد على أريكة مدة ساعتين أو ثلاث ساعات ، وحاول أن تبسط وتعيد تبسيط مشاكلك، أو بعبارة أخرى ،فى معظم الحالات، منغصاتك المصنوعة محليا ، متذكراً أنك مسيحى ولست « الوثنية الحسناء » على حد ما اعتادت مدام سفنييه أن تقول ، فسرعان ما تدرك علة اهتداء ديكارت إلى اكتشافاته وهو مستلق بفراشه فى الصباح .

وكيف نستطيع أن نضمن العزلة وطريقنا محاط بشتى الأشياء التى لا نرغب فيها ؟ وليس ثمة جواب عن هذا السؤال ما لم ننشد العزلة فى رغبة صادقة ، أما إن فعلنا فستسعى العزلة إلينا ، وليس أقوى جاذبية من رغبة المرء فى أن يعيش وحيداً ، ويوم أن تلاحظ ، وأنت راض ، أنك مسرور لتركك منتظراً، لأن هذا يهيئ لك فرصة تنفرد فيها بنفسك ، عندئذ تدرك أنك تهوى العزلة حقاً ، ولن تضطر بعد ذلك قط أن تبحث عنها أو أن تترضاها، فالعزلة ستتوافر لك حيثما كنت وإنى لأعرف ، فى نيويورك التى تعج بالعمل ، سيدة ذات بيت وأسرة ، تدبر أمرها بحيث تقضى كل صباح خمس ساعات فى الكتابة بعلية فى منزلها، وأعرف أخرى أجرت حجرة خفية بالدور الأرضى من مبناها ، ولم يكتشفها أحد قط للآن حتى ولا خادماتها ، ولكنى أعرف أخرى هى فى ظاهرها الطراز الأصيل للمرأة الاجتماعية التى لا تفارق البسمة الفاتنة شفتيها ، وهى لا تبرح منزلها ولا ترد طارقا عن بابها قط ، وعلى الرغم من هذا فهى

تقرأ الأدب الجاد ، قديمه وحديثه ، كما لو كان لديها خضم من الفراغ ، والواقع أنها لا تشكو قط من عدم توافر الوقت ، فكيف يتيسر هذا ، بينما تليفونها لن يكف عن الأزيز لحظة واحدة ؟ الواقع أن الناس يتهيبون رغبة هذه السيدة فى تركها وحيـــــدة مع كتبها الجادة ، ولذلك فهم يتحاشون أن يطلبوا رقم تليفونها .

(ب) العزلة الباطنية :

هى ما ندعوها تركيزا ؛ وإذ كانت العزلة الظاهرية هى اختزال الكائنات البشرية بل والأشياء المحيطة بنا ، فإن التركيز هو إزالة كل الصور الذهنية التى لا صلة لها بسلسلة من الفكر ، واحدة بعد الأخرى أو بجهد كاسح وحيد ، وهذه السلسلة من الفكر كثيرا ما تنبثق دون مؤثر من الخارج ، وعندئذ نسميها عكوفا . ويجمع الحديث العام بحق كل الشرائط العقلية التى من هذا النوع تحت اصطلاح « التفكير » ، وما دامت دوامات الصور الذهنية السائبة تملأ ذهننا فليس من المفروض أننا نفكر ، وحالما ترد صور ذهنية من الجنس ذاته إلى نطاق ملاحظاتنا ، ندرك أننا نفكر ، ونصبح فى الوقت ذاته غير شاعرين بمعظم الأشياء الخارجة عن نطاق تفكيرنا .

من ذا الذى لم يشاهد رجلا يسير وسط حشد غير مكترث لأى شىء سوى رؤياه الباطنية ؟ وكان لزاما مراقبة جورج تيريل إذا شاء إنسان أن يحفظه فى حدود الدائرة المرئية التى يجلس فيها ، فإذا ترك لنفسه دقيقتين ابتعد أميالا ، وهكذا يستطيع العشاق والشعراء والفنانون أن ينفردوا بأنفسهم على الرغم من وجودهم برفقة آخرين ، فلم يرد ألفونس دوديه عن بابه طارقا قط ، إنما

كان الزائر — بصرف النظر عن منزلته — يعطى فوراً تفاصيل كاملة عن الفصل الذى يقوم الكاتب بتحريره فى قصته ، إذ يبدو أن ذهن دوديه كان يزداد نشاطاً حين يستطيع التحدث بأفكاره ، وكان حضور إخوانه إليه يعاونه فى ابتكار مواقف قصصه دون عرقلة أو تعويق ، ويعيش القوم الذين تستولى عليهم نزعة عظيمة — الرسل من كل الدرجات — فى هدفهم المتحكم ولا يحتاجون إلى عزلة ظاهرية للتفكير ، ومن المتعذر ألا يبهر المرء ذلك التضاد بين حياة القديس بولس المتنقلة المليئة بالأسفار وما فى كتاباته من تركيز وعكوف ، فنحن نعلم أنه أملى رسائله فى عبارات مسجوعة ، ولم يكن حضور كاتم السر أو المترجم ليقطع عليه حبل تفكيره ، لاعتياده على الصحبة الدائمة بل لا شك أنه كان ينشدها متلهفا ، وفى أثناء الحرب جلس شخص غريب المنظر يوما ما إلى جوارى على مقعد بشرفة سنت جيرمان ، وكان عاملا روسيا ساذجاً لا تزيد موسوعته فى اللغة الفرنسية على مئات معدودة من الكلمات ، وقد أبدى هذا الرجل فصاحة على الرغم من هذا النقص ، فقد ظل أكثر من ساعة وهو يسكب نفسه دفاعاً عن مبدأ إلغاء الحروب ، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع لم يكن ملائما فقد انتزع إعجابى ، وواضح أن وجودى لم يكن إلا علة ظاهرية أو حافزاً لانطلاقه مبشراً بفكرة تعبد لها بعد أن استحوذت على جميع حواسه .

وكثير من الناس مدربون مهنيا على التركيز ، فقد كان فى استطاعة نابليون أن ينتقل من موضوع لآخر مختلف عنه تمام الاختلاف ، فمثلا كان ينتقل من خطة حربية إلى ميثاق « الكوميدى فرانسيز » كما لو كان شخصا آخر ، وكان فى عقله ما يدعوه أحيانا بالأدراج ، وأحيانا بأسفار خرائط

البلدان ، التى توفر له المادة التى يحتاج إليها ، وكثيراً ما يثير المحامون والمرشدون الروحيون دهشتنا بالانتباه غير المشتت الذى يسبغونه على عميل مسترشد بعد الآخر ، ولـكنهم يحصرون أنفسهم فى القضايا التى بين أيديهم ، فهم يوفقون للعيش فى عزلة باطنية يعجز الطرق الدائم على بابهم أن يخرجهم منها ، ولا شك أن هؤلاء القوم أقرب للفكر من الإنسان العادى ، كما أن أمين المـكتبة أقرب إلى الـكتب من بائع الفواكه أو الخضروات المتجول فى الشوارع .

وليس ثمة شكوى أكثر ترددا على السمع من « لا أستطيع أن أركز ذهنى » اللهم إلا تلك الآفة الأخرى « تعوزنى الذاكرة » وعند الاستجواب الفاحص تجد أن القوم الذين لا يستطيعون تركيز أذهانهم يشعرون إما بثقل يلاشى كل جهد عقلى ، وإما بعدم استقرار ينفى كل شىء سوى اتصال عابر بموضوع الانتباه ، وحالما يحاولون تجميع وتركيز إدراكهم يبدو كما لو كان سرب كامل من الصور الذهنية المتجانسة قد انبعث ليسخر منهم ويربكهم ، فإذا حاربوا هذا الارتباك حل العصاب وفيرا ، وستؤثر صحبته فى كل الأحوال الطراوة على الألم ؛ وهذا يعلل الحالات العديدة التى يحاول الناس فيها بجلاء أن يفعلوا أى شىء بدلا من أن يفـكروا ، وقد لاحظت صبيانا قلقين وقد بدا عليهم الضجر بينما كان المدرس يقرأ على الفصل كتاباً ممتعاً ، وعلى النقيض من هذا كانوا يجلسون وقد بدا البشر على وجوههم حين يأخذ عمل كل يوم الممل المنهك مجراه العادى ، كانوا يبغضون الـكتاب الذى يحوى من المتعة ما يكفى لصرفهم عن التفـكير فى شىء آخر ؛ ولـكنهم لم يهتموا أو بالأحرى أحبوا العمل الرتيب الممل بما يكلفه من أدنى جهد وما يهيئه لخيالهم من الحرية .

هل نستطيع أن نتعلم التركيز ؟ إن الشك الذى يتضمنه هذا السؤال هو

فى ذاته عقدة نقص مسئولة عن كثير من ضروب الفشل ، والواقع أن تسعة من كل عشرة رجال أو نساء ممن يملكون القدرة على طى أجنحتهم حول انتباههم قد حصلوا عليها بالمران فى صبر ودون ملال ، وطبيعة العقل عندنا ، كما بينا فى الباب الأول من هذا الكتاب ، من شأنها أن تعرض مجموعات من الصور الذهنية بعضها يعلو البعض ، وملاشاة أكثر ما يستطاع منها تقتضى جهداً لا يمكن أن تؤديه بنجاح سوى الحاجة أو الرغبة الملحة ، والانتباه عادة أكثر منه موهبة ، وينبغى أن تشجع هذه المعرفة أولئك الذين ينشدون العيش فى أغوار أرواحهم .

ومن المؤكد أن العصاب عقبة كأداء فى سبيل التركيز ، أما أولئك القوم الذين يتهيبون ويفعلون وهم فى صحبة غيرهم ، والذين يسرفون فى الشعور بسمو الآخرين عليهم فى توقد القريحة أو حسن المنظر ، الذين تنفى عنهم الحيل والدعاوى العريضة راحتهم المطمئنة ، فينبغى ألا يلوموا أنفسهم لشعورهم بالعجز عن التركيز الذهنى فى حضور غيرهم من الناس ، والحق أن جولد سميث كتب كملك من الملائكة قائلا : ليس ثمة من هو أكثر منطقاً من « قس ويكفيلد » على الرغم من سماحته ورقته ، وحين تكلم أوليفر كببغاء مسكينة كان ذلك لأنه أثير إلى حد لا يطاق وكان عليه أن يقول أى شىء بدلا من معاناة الضغط ، ولم يتحدث كالببغاء فى ذلك اليوم الذى أوقف كاتبا آخر عن الاستمرار فى كيل المديح بتصريحه أنه يقاسى الأمرين من سماعه ، وكان من الواجب على جولدسميث أن يتجنب الترسل فى الحديث مع رجال الأدب الذين يحملون معهم أسباب المضايقة حيثما حلوا ، فإذا أنت ساورك نفس الشعور بالضيق فأنشد عشرة قوم يتحلون بالرفق والبساطة بدلا ممن يتسمون بالذكاء وتوقد الذهن ، وحين يخاطبك

شخص تعرف بالتجربة أن حديثه يقلب تركيزك الذهني رأساً على عقب ، ابتسم وأفعم قلبك بمشاعر العطف وبالروح المسيحية ، ولكن لاتنبس ببنت شفة ، وتمسك بالصمت والسكون ، حتى تتلاشى جاذبية الرجل الآخر الشريرة في الكلام وتقضي على نفسها ، ومن ثمة ستشعر باللحظة التي تتعادل الفرص فيها بينك وبينه .

وينتج الاهتمام من أي نوع من أنواع التركيز الذهني بالسليقة ودون عناء ، فالأنانيون من الناس يركزون تفكيرهم على منافعهم الخاصة العاجلة ، أما المثاليون فعلى فكرتهم ، ولا نكاد نقضي خمس دقائق مع شخص ما دون أن ندرك كنه اهتمامه ومدى ما قد يكون عليه من سمو: فهو إما أن يكون ربحاً أو غروراً أو لذة ، وإما أن يكون مظهراً لرغبة تحسين العالم المتعددة الأشكال، والتجرد من الأهواء يحمل الجزاء لنفسه ، فهو يملأ الروح أكثر من أي حد واع ، فنبل وجهة النظر أو القصد ، والانصراف عن المصالح الرخيصة ، والمحبة المسيحية الكاملة ، وانطلاق المتصوف في تأملاته ، كل هذه الأمور تبدو في نفس الوقت وقد هيأت سموا عقلياً وخلقت فردوساً للحائز عليها .

وإذا انحدرنا إلى المستوى العقلي المجرد ، وجدنا هنا أيضاً أن الاهتمام الحقيقي لا غنى عنه للتركيز الذهني وأنه يخلقه في لحظة ، يستطيع نفس الصبي الذي يتشتت تفكيره حين يطالب بكتابة مقال أدبي أن يركز ذهنه نصف يوم على العلوم الرياضية أو على جهاز جديد للإذاعة ، كذلك نفس القوم الذين يتوهمون أنه لا يتيسر لهم سوى مطالعة أخف أنواع القصص الخيالية ، يستطيعون انتزاع المتعة من ذكريات عديدة هي بلا شك أسهل في القراءة من

القصص ، وهم لا يجرؤون قط أن يقولوا إنهم يركزون الفكر حين يطالعون القصص لأن الناس قد يسخرون منهم ، ولكنهم لا يترددون عن التصريح بأنهم يركزونه على أخبار المحاكم ، والواقع أنهم عندئذ سيعرفون التركيز كما يعرفه معظم المؤرخين ، ويقول دودا : « سر مائة خطوة مبتعداً عن الطريق العام ، فإذا التزمت اتجاهاً واحداً وجدت بقعة ندية الظل أو حتى عين ماء متفجر » ، وقد عرفت قساً فرنسياً ، قصر ولعه ، مع بالغ الدهشة ، على المسرح ، وما كان ليستطيع إشباع هذه النزعة فى بلدة كنائسية وسنانة ، وإذ شرع هذا القس المرواح بجمع المسرحيات المنشورة بمجلة « الستراسيون » فقد كون بالتدريج مجموعة مسرحية هائلة ، وفى مدى سنوات قلائل أصبح يعتبر حجة فى المسرحية الحديثة ، وحين قطع الموت فجأة حبل مهمة كانت قد أصبحت تخصصاً دون أن تفقد لذتها ، كان مبيع هذه المجلدات ، التى جمعت لإرضاء نزوة طارئة ، حدثاً أدبياً ، والنتيجة هى أننا نركز الذهن يقيناً حالما يتوافر لدينا الاهتمام أو نجد المتعة لأن نفعل ذلك ، ففن التفكير هو ، إلى حد كبير ، تبين ما يضفى على عقلنا الغبطة والرضا دون جهد أو قلق .

ولكننا لا نستطيع دائماً أن نسير فى أعقاب ميلنا صوب التفكير كما نفعل فى التمثيل ، فهناك مسائل جافة لا مناص لنا من معالجتها ؛ ولا يغرب عن بالنا أن ثمة واجبات عقلية ليست بأيسر على التنفيذ من الفروض الأخلاقية أو الأدبية : وقد نهوى الشعر ونبغض التاريخ ، مثل شلى ؛ ولكننا نحس أنه لزام علينا ألا نحاكى شلى فى انصرافه عن علم التاريخ ، إذ إن العبقرية وحدها هى التى تستطيع عدم التقيد بقواعد الثقافة العامة ، وكيف نستطيع أن نركز انتباهنا على موضوعات ، تعوزها الجاذبية الأمر الذى يؤدى بطبيعته إلى تشتت

الفكر ؟ وسيخصص فصل آخر للتمارين العقلية التى ينزع كل منها لخلق التركيز ، وهذا ما توفره أيضاً مشا كل الصحف ، والأسئلة والأجوبة من كل الأوصاف ، وألغاز الكلمات المتقاطعة إلخ . . إلخ ، وتصف مدام دى منتينو التدبر ، بطريقتها الأمينة المباشرة ، بأنه « التفكير بإمعان بضع مرات فى نفس الشىء » وهذا التعريف يهيئ إرشاداً ممتازاً حين يكون موضوع تركيزنا الذهنى واحداً لا أكثر ، وحين يقع موقع الاستحسان فى محيط مجهرنا العقلى ، ولكن كثيراً ما تتعقد الأشياء بدلا من أن تتسم بالبساطة ، أو أننا نحاول أن نستكشف — لا أن نختبر فحسب — الأفكار ، وفى مثل هذه الحالات تصبح مشكلة التركيز مختلفة عن مجرد انتباه لدرس يتلقاه صبى بمدرسته .

وليكن مفهوماً ، منذ البداية ، أن التركيز مستحيل إذا كنا مرهقين أو متبلدين ، والتطرف فى كثرة النوم أو قلته يخلف فراغاً فى الذهن ، وكذلك الحال مع الإفراط فى الأكل أو السرف فى الصوم ، وأيضاً عند المبالغة فى الإقبال على التمرينات أو الانصراف عنها، ولا تتصور ، حين تشعر بقوة عقلية، أن الرياضة البدنية العنيفة ، مثل لعبة سكووش ، ستوفر لك اليقظة ، فهى ستطلق كل طاقاتك الحيوانية من عقالها ، ولكن الشرايين التى تعج بنبضها تسير فى العادة مصحوبة بتيار خاطف من الصور الذهنية غير المنتظمة صوب العقل ، كذلك لن يتيسر للقراءة المعاونة فى إرشاد عقلك إلى ما تتوهم أنه الطريق السوى ؛ فسكون تام أو عشر دقائق عند نافذة مفتوحة ، أو أحيانا قدح من الشاى، حرى بأن يقربك من نبع أفكارك الأصيل أكثر من أى شىء آخر .

وحين يرخى سكون عقلك غير العادى غلالة من الهدوء على قلبك، وحين

يطير فراش تشتت الذهن مبتعداً عنك ، فإنك ، تكون على استعداد للتركيز، ولكنك قد تجد نفسك ، على الرغم من ذلك ، تواجه خواء ، وكثير من العمال العقليين يحسون أن جهدهم لإزالة التوافه يبدوا أنه قضى على الأسس الأصيلة أيضاً ، ويروحون يتساءلون : « ماذا أريد أن أفكر فيه ؟ بم أهتم ؟ هل أنا مهتم بأى شيء ؟ . »

وقلما يعانى الإمحال أولئك القوم ذوو الذاكرة القوية ، فعند أقل إثارة تتفتح مغاليق أدراجهم أوصفحات أسفارخرائطهم ويشعرون بكظة من القرائن والوقائع ، والرزء الذى يلازم معظم أصحاب هذه الموهبة هو أن وقائعهم مكررة معارة من آخرين خالية من أى تحسين ، وعلى النقيض من ذلك أولئك القوم الذين يشعرون أنهم يعملون فى مادة حية ، وانطباعات وضروب من الإلهام أو العواطف ، راضين تماماً بعقولهم يوماً ، ونافرين منها يوماً آخر ، هم ، كما يصح القول ، يعيشون فى انسجام زوجى مع الطبيعه ، ووجودهم العقلى لون من الدراما ، ويجعلهم عوزهم للذاكرة يشعرون بحاجتهم للاستمـــرار ، ويحاولون جاهدين عودة الاتصال بأنفسهم ، ليكونوا فى سباق التغييرات المتتابعة الطبيعية لوجودهم الواعى أوالباطن ابتداء منأيام طفولتهم حتى الآن، وليست ذاكرتهم لوحة مسطورة ولكنها على الأرجح وعى بأنوار كاشفة قليلة: ذرىمن الاهتمام تتجمع حولهابالفطرة وقائع ثانوية ، ومن الواضح أنالمؤرخين من أمثال ميشليه وكارليلحائزون على ذاكرات مرتبة علىهذا النمط، ولكنالأسطر الرئيسيةحتى للكتب من أمثال « الإمبراطورية الرومانية» لمؤلفها جيبون ، وكتاب «المدينة الأثرية » لمؤلفه فستل دى كولانج ، تظهر اهتماما طاغياً ترجح فيه كفة التفكير المجرد وعلى الرغم من هذا فهو منتج للمادة المتبلورة الصالحة ، وعلى النقيض من

هذا كان مومسن — الذى أنا مدين له بالتحدث دون توقير — حائزاً على ذاكرة يمكن الاعتماد عليها ولكنها غير عضوية ، وينبغى أن نوجه جهدنا لاستئناف مسيرنا من حيث أقلعنا آخر مرة كنا فيها مستكملى النشاط الحيوى ؛ ولزام علينا ألا نتناول الصحيفة اليومية دون أن نتذكر أن اهتمامنا بالسياسة ، أو بتعبير آخر، اهتمامنا بالتاريخ المعاصر ، لابد ألا يكون مجرد حب استطلاع، إننا نود أن يزداد نصيب العالم من التعقل ، ويقل نصيبه من القسوة ؛ وإذ وجد رجل أو قطر يوفر لنا آمال التحسن الذى يتكهن به أولئك المتنبئون الصالحون من جميع الأقطار ، فإن مسار ذلك الرجل أو ذلك القطر هو الذى نصبو أن نقتفى أثره ، واستمرارنا على هذا المنهاج من الحياة تهيئه ظروف ذاكرتنا والجارى تركيزنا .

وتهيئة دعامة خلفية مناسبة هى الطريقة المثلى لإحراز التركيز الذهنى الذى ، لدى النظرة الأولى ، يتم الحصول عليه بالإسقاط ، إسقاط الصور الذهنية التى لاتنسجم مع مجرى فكرنا ، وهذه الدعامة الخلفية ليست سوى مضاعفة الصور المتناسقة ، وإذا أردت أن أركز ذهنى على عزلة أمريكا مثلا ، بغية فهمها ، فلزام على قبل كل شىء ، إخلاء قوة الحس عندى ، من كل مضايقة سببتها ضروب الدفاع الغبية عن هذه العزلة ، ثم على أن أعمد سريعاً إلى خيالى فأعمره بأفكار شاسعة عن أمريكا — وأفضل ما يحقق هذا هو اتساع بحيراتها أو صحاريها، وخلوها من الجيران المتطفلين ، وقدرتها على الاكتفاء الذاتى ، وميلها للتماثل الموحد ، وتحويلها المثمر العجيب لكلمتى « أجنبى » و « شخص أجنبى » — وإنى لأستطيع أن أتذكر أن سائق التاكسى الرومانى ، الذى ركبت معه يوماً وأنا فى نيويورك ، تحدث إلىّ عن وطنه ، الذى رحل عنه منذ أكثر من

عشرين عاماً ، كما لو كان قد استبدل المطهر بالسماء ، وقد ساعدنى على أن أفهم « مهاجرى أمريكا القدامى » وهم القوم الذى نفضوا الغبار عن أقدامهم فوق القارة القديمة — نقيض المستعمرين تماماً — وساعدنى المهاجرون بدورهم على أن أفهم الرنين ، الثائر المتحدى ، لكلمة « أمريكى » فى صحف عهد ما قبل الثورة التى كنت أعود إليها بين الفينة والفينة ، وفى هذا الكفاية . فإذا تذكرت فى النهاية أن أوربا تبدو للأمريكى القابع فى دياره كتنين جائع متعدد الأفواه ، فقد كل التركيز الذهنى عندئذ ، ولست أفكر فى شىء سوى عزلة أمريكا ، وأتقن فهمها إلى حد أنه لولا وجود مجموعة من الصور الذهنية عن كثب لاشتركت فيها فوراً ، وإذا ضاعفت هذه الصور فلن يعرف تشتت الذهن طريقه إليك .

هذه هى طريقة التفكير الأصيلة الطبيعية ، فكل أفكارنا تصدر عن مثل هذه المجموعات من الصور الذهنية ، وحين نريد أن نسترد الحياة لفكرة تجسدها الألفاظ فإننا نستعيد بالغريزة الملابسات المحسوسة التى انبثقت منها ، ولا يختلف عن ذلك الخطباء الذين يمقتون اللغط فإنهم يهيئون لأنفسهم الحالة النفسية — بشقيها العقلى والتصورى — التى ستفيض منها الفصاحة الأصيلة ، فجهاز الخيالة (السينما) الذى يقوم فى أعماقهم لعرض الصور التى تنفعهم ليس - كمعظم سلاسل الأفكار المجردة - تحت رحمة ضروب تشتت الفكر ، ومن العسير أن يقطع حبل هذه الصـــور مايدور حول مائدة الطعام من لغط ، أو ما يتتابع أمام نافذة العربة من مناظر طبيعية .

وثمة طريقة موفقة أخرى للتركيز الذهنى ، أو بعبارة أخرى ، تهيئة انتباه

المرء ، هى أن يمسك بيده قلماً ويستعد لتدوين ما يمليه عقله : ففى هذه الحركة بالذات توجيه آمر يندر أن يقاومه أشد الأذهان تشتتاً ؛ وقد قالت لى يوما كاتبة ناجحة سألتها عن طرائقها فى العمل : «أتناول صفحة بيضاء غير مسطورة، وقلماً ، وأجلس إلى منضدة خالية عارية من كل شىء ، وسرعان ما ترد قصة على خاطرى فأكتبها »، وكذلك كان الحال مع أنطون تشيكوف الذى كتب للمجلات قصصاً لم تكن من الصنف الذى تؤثره المجلات كما كانت قصص هذه السيدة ، ولكن عملية الصفحة والقلم هذه لا يتحقق نفعها إلا إذا كنا ننشد ، بنوع خاص ، الوضوح واليقين ، كى نعقد العزم فيما يتعلق باتجاه ما .

وبصرف النظر عما يستحوذ على اهتمامنا الحيوى ، من الأشياء المحسوسة بقسط قل أو كثر، مما تتركز عليه أنانيتنا دون حافز أو معلم أو نصيحة من الخارج، فإننا نقضى حياتنا فى غموض، ومعظم الرجال والنساء يموتون دون أن تتكشف لهم غوامض الحياة والموت والدين ، أو السجايا الخلقية والسياسة ، أو الفن ، ويخيل إلينا أن الآخرين من الناس ، يعرفون بالضبط ما يقر عليه رأيهم فيما يتعلق بتربية صغارهم ، وكنه حياتهم العملية ، أو فيما يتعلق بالطريقة التى ينبغى عليهم أن يستخدموا بها أموالهم ، وتساعدنا الفكرة على أن نتخيل أننا بالذات لا تفصلنا عن البت فى هذه الاتجاهات الهامة سوى غلالة رقيقة من عدم اليقين ، بيد أن الأمر ليس كذلك فأناس آخرون ، مثلنا بالذات ، يعيشون فى غموض دائم، ويتوهمون، فى غباء مثلنا ، أنهم يفكرون فى موضوع معين هام ، بينما هم لا يفكرون قط إلا فى التفكير حول هذا الموضوع ، وحين يلقى هذا السخف الرعاية بعض الوقت فى عقلنا الباطن نقرر أن السؤال لا يتيح إجابة ملزمة ، ونتصرف وفقاً لضغط الظروف ، أو لنصيحة عابرة ،

أو شعارات الساعة ، ومثار العجب أن القليل من الوصايا يعبر حقاً عن إرادة أصحابها ، فإذا كانوا لا يستطيعون قط أن يعرفوا حقيقة أفكارهم ، فقد أملى الوثيقة محام أو ذو رحم .

ولو أننا جلسنا وأمامنا صفحة خالية ، وكتبنا على عمودين ما يرد على خواطرنا من حجج تدعم فكرة ما وأخرى تنقضها ، فإن الحق سيتبلج لنا ؛ وأما أن تبهرنا دلالة بعض الاعتبارات أو ندرك ، في غير قليل من العجب ، حاجتنا لأن ننشد النصيحة في هذه النقطة أو تلك ، نصيحة من ؟ لا تعد القهقرى إلى الفكرة المضللة عن مجرد التفكير في التفكير حول الأشخاص اللائقين ؛ خذ صفحة أخرى، ودون بها ما يعن لك من قبول ورفض فيما يتعلق بالناصحين؛ وبدهي جدا أنك ستحتفظ بالورقتين في مظروف واحد ؛ وهذا سيصبح ملفاً ، يماثل من كافة الوجوه تلك الملفات التي تبت في مصائر الإمبراطوريات .

وقد لجأ روبنصن كروزو إلى هذه الطريقة كي يستمد منها العون حين عجز عن أن يجده في أي شيء آخر ، ووصفها القديس أجناتيوس لويلا ، في إسهاب ، وجعلها الأساس للحياة الروحية في جمعيته «الجزويت» ؛ وقليل من الناس هم الذين يعلمون أن مجلدات المذكرات الخمسين التي خلفها ذلك النصيح الذى لا يبارى ، الأمير ألبرت ، تضمنت التحضير المسطور للمقترحات التي اعتاد أن يقدمها للملكة فكتوريا ، ولو جربت هذه الدورة المنظمة مرة فإنك لن تهجرها أبداً ؛ ولكن يجدر تحذيرك من أن العادة حرية بأن تصبح ذات سلطان مستبد، وستلتمس آليا قلمك، وورقاً للكتابة ، ليس فقط حين ترغب في البت في بيع منزلك بل حين تنوى أن تحزم حقائبك للسفر أيضاً ، إن لكل شيء مساوئه وسأبين بمزيد من التفصيل بعض المساوئ التي تنجم عن تحديد المرء لفكرة

بالـكتابة ، بيد أن حسم الأمور بالرأى القاطع ضرورة لا مناص منها ، ومن الأفضل للمرء أن يكون فى رأيه بتارا كالسيف من أن يكون متردداً كريشة فى مهبّ الريح .

وعلى العموم فإن التركيز الذهنى حالة طبيعية يمكن تهيئتها فى يسر بوسائل بسيطة ، ويتوهم بعض الناس أنها غير مألوفة لسبب واحد وهو أنهم لا يحاولون، وفى هذا الشأن ، كما هو الحال فى شئون أخرى كثيرة ، يموت الجائع والخيرات مكدسة على قاب قوسين أو أدنى منه ، ولم يفشل قط فى المحاولة أولئك الذين أقدموا عليهـا ولـكنهم خبروا الفشل فى أنفسهم أحيانا . وقد يفصحون عن شكواهم قائلين « لست أجد سوى أفـكار عادية » .

« أجل ، ولـكنها أفـكارك الخاصة ، ومن الأفضل أن تنتج أفـكاراً عادية ، على ألا تنتج إطلاقاً » .

« الواقع أننى أرى لمحات من أغوار الحق ، أو أشعر فى أعماق بومضـات متألقة ، ولـكنها تختفى كأضواء الحباحب الطائرة » .

« لك الطوبى والرغد فستكون متألقا ، وإن لم تصبح فصيحاً » .

ومنذ بضع سنين جلست لتناول الطعام بجوار سيدة أمريكية ، استحوذت على لبى بحصافة أحكامها ، ولـكن شـطحاتها كانت دائمـاً تخيب ضروب الترقب التى كانت تتجدد دائماً ، ومع ذلك فـلا أستطيع قط أن أفتح جوبير لمطالعته دون التفـكير فيها ، فهو أثر جليل لإحدى سيدات المجتمع ؛ ثم ألم يسلم مونتانى ، دون اكتراث كبير ، أنه يستطيع « معالجة مشـكلة ما مرة

أو مرتين بعدها لا يجد مناصاً من الانصراف عنها » ؟ وطريقة تفادى هـــذا يعرفها الصبيان الذين يحاولون معرفة الوقت من ساعة على بعـــد ميل منهم ؛ فليس من المرتقب أن نفعل سوى أن نستخدم أقصى إمكانياتنا .

(ج) تدبير الوقت :

أحقاً يعوزك الوقت ؟ هل أنت صادق التعبير عن مشـاعرك ، أو أنك تردد ما يقوله كل شخص سواك ؟ عدم توافر الوقت ! ذروة الفقر ! لعل فكرتك عن توافر الوقت ليست توفير بعض الوقت لنفسك ، بل هى توفر كل الوقت ، عدم القيام بعمل أى شيء : اختبر ضميرك وأجب

بديهية · يجد القوم المزدحمون جداً بالعمل الوقت الـكافى لـكل شيء ·

وبالمثل ، لا يجد القوم ذو الفراغ الهائل الوقت الـكافى لأى شيء .

لعلك لا تعرف معنى التركيز الذهنى ، فإذا كان الأمر كذلك ، بع كل ما تملك ، واترك أعز الناس وأقربهم إليك ، وبعد أن تعيد مطالعة الفصـــل السابق كرس ثلاثة أيام أو ربما ثلاث ساعات للتدريب على التركيز الذهنى ، فسرعان ما يتضح لك ما إذا كنت تعرف كيف تركز ذهنك أم لا . وفى غضون ذلك يستحسن أن توجه إلى نفسك بضع أسئلة .

١ — بخصوص توفير الوقت :

أليس لديك وقت يمكنك استصلاحه ، لا من عملك ، ولا من مرانك ، ولا من أسرتك أو أصدقائك إنمـا من متعتك التى لا تضفى عليك فى الواقع كثيراً من المتعة ، ومن الحديث الأجوف فى النادى ، ومن المسرحيات الرخيصة ،

ومن عطلة آخر الأسبوع التي قد تعوزها البهجة أو الرحلات غير الموفورة النفع ؟ .

هل تعلمت كيف لاتستسلم لذوى البطالة ؟ ، أتستطيع أن تصمد ضد الغواية لتوفير المتعة لقوم لا يحتاج كسلهم للمعونة ؟ ، هل تفرق بين الشفقة والضعف، فلا ترفض قط إسداء يد العون ولكنك ترفض دائما أن تكون غراً ساذجاً ، هل أنت عبد دائم لجهاز التليفون ؟ .

أتعرف كيف تجمع شظايا الوقت وأشتاته لئلا تضيع هباء ؟ ، أتقدر قيمة الدقائق ؟ ، كان لرجل من أسرة لموايتو زوجة اعتادت أن تتركه دائما ينتظرها بضع دقائق قبل العشاء الذى كان يقدم آنذاك فى وضح النهار فى الساعة الثالثة ؛ وبعد حين ساورته فكرة بأن فى استطاعته أن يكتب ثمانية أو عشرة سطور خلال هذه الفترة ، ومن ثمة أعد ورقا ومدادا لهذا الغرض فى مكان مناسب. ومع مضى الزمن — فالأعوام قصيرة ولكن الدقائق طويلة — كانت الثمرة بضع مجلدات من التأملات الروحية . إن الجنس البشرى يمكن تقسيمه إلى السواد الأعظم من الناس الذين يمقتون أن يتركوا منتظرين لأن الانتظار يصيبهم بالسأم والملل ، والقلة السعيدة التى تؤثر هذا الانفراد لما يوفره لها من وقت للتفكير ، ولا مشاحة فى أن الأخيرين يقودون غيرهم جميعا .

ماذا تفعل حين تكون بقطار أو عربة أو تاكسى ؟ ، إذا كنت لا تفعل شيئا وأنت راض تماما ، فلا لوم ولا تثريب ، أما إذا أحسست قلقا فليس غيرك من يلام ؛ وقد كتب ترولوب ، الذى كان يشتغل « قومسيونجيا » ، فصولا كثيرة فى القطار ، وإنى لأنصحك بقراءة هذه الفصول ، فهى تستحق

اهتمامك ، وترولوب لم يبل قشيبه . وليس فى استطاعتك أن تقرأ أو تفكر دون أن تتجنب الجماعة : ولا شك أن الناس سيعلقون قائلين : إن « فلانا » يختلى بنفسه كثيرا ، ولكن لا مناص من ذلك ، فما دمت تحاول أن تفكر فعليك أن تتوقع قليلا من الانفراد دون التعالى .

أتحمل كتابا صغيرا ، كتابا صغيرا جليل الشأن فى وصف الرئيس اليوت أو أنه ... يالبهجة ! سفر من كشفك ، بجيب قميصك ؟ — « لم يتم هذا » — « أوه » ! « أرجو المعذرة أقصد أنها رزمة من أوراق اللعب دون شك ، اغفر لى تشتت ذهنى . »

متى تستيقظ ؟، ألا يمكنك التبكير ساعة أو نصف ساعة؟ ، إذا انقطعت عن القراءة بالفراش وهى عادة ينهى عنها جميع أطباء العيون وغير قليل من الأخلاقيين — استطعت ذلك ، وما من أحد قط استطاع أن يوضح لم يضف تعلم اللاتينية ذلك الشعور الغريب بالتفوق على الناس ، ولكن هذا ما يحدث فعلا، ومثل هذا اللغز تماما يجرى فيما يتعلق بتوفير وقت الصباح— وقد كتب فنيلون إلى سيدة يقول « نظفى خندق الصباح لأجل العمل العقلى» — وهذا يؤدى المهمة على وجه ما ، وساعة فى الصباح تساوى اثنتين ، والخواء الذى لا مناص من حلوله خلال الساعات المتبلدة التى تأتى فى أعقاب ذلك لن يطغى عليك خضمها .

٢ — حول تبديد الوقت هباء :

أتسمع نفسك كثيراً وأنت تقول : « لقد نسيت » أو « لم أذكر » ؟ هذه العبارات العجلى تعنى أنك تضيع الوقت ، وأن عليك أن تطأ أرضاً مطروقة

بضع مرات ، بسبب خطئك ، ينبغي ألا تنسى قط ، وإن نسينا مرة أثار الأمر مجبنا .

وسيتعذر عليك أن تنسى ، كما أنك لن تتلمس متخبطاً عوداً على بدء ، إذا أحرزت عادتين يسهل الحصول عليهما : هما التبصر والنظام ، والتبصر معناه تصور الشيء قبل وقوعه ، فمن السهل توفير ربع ساعة بعربة البولمان إذ فطنت إلى لوازم المساء أو الصباح التي ينبغي أن تضعها في القمة من محتويات حقيبة سفرك بدلا من ضياع الوقت بعد ذلك في تلمسها بأصابعك والبحث عنها وأنت عابس الوجه ، وتخيل أن الفحص الجمركي معناه أن يكون مفتاح حقيبة سفرك الضخمة بجيب واضح غير منسي ، وإذا كنت عرضة لاستجواب موظف الجوازات والهجرة ، فلا تعتمد على جواز سفرك بمفرده ، ولكن جهز في حيازتك خطاباً ، بعد طلبه مقدماً من مضيفتك الأمريكية ، مشيرة فيه إلى رحلات نهاية الأسبوع بلونج أيلند أو بالأوبرا ، دون أن تشير إلى إلقاء محاضرات ، فهذا معناه دون شك الإلحاد أو البلشفية . وإذا نسيت أن تكتب في طلب هذا الخطاب قبل الإبحار بأربعة أسابيع فلن يصل إلا بعد رحيلك ، وإذا نسيته في مقصورتك بالباخرة ، واضطررت أن تعود لاستحضاره منها وسط استياء غيرك من الأجانب وسخريتهم ، فستجد أن حقيبتك الضخمة قد نقلت خارج مقصورتك وأنها في طريقها إلى قسم المهملات.

هذه تمرينات أولية في البصيرة التخيلية ، ويجمل بك أن تتخيل مترقباً احتمالات أكثر أهمية مثل الزواج ، والشيخوخة ، والمرض ، والموت أو الجنون ، والفشل في هذا أو النجاح المبتسور في تلك ، والأخطاء من جانبك

وخيانة الوطن أو الغباء من جانب الآخرين ؛ تبين ما يخبئه لك الغد ؛ لا تكن شاة تثغى أو حملا يقفز فى مرح متهوراً ؛ وكما تظهر لك مخيلتك الأشياء فى الصورة المحتمل وقوعها ، دون إسراف فى ردائتها ، قيدها واحتفظ بالمذكرات فى عناية ، فسرعان ما تجد نفسك ، وقد غمرتك الدهشة ، حائزاً على مذكرات مسطورة تنبئك فى تفصيل ووضوح ، ما يلزمك فعله استعداداً للنقل أو البيع أو أى شأن آخر من الشئون الهامة .

وقد تصيح فى ضجر قائلا : « يا للملل ! . . . لشد ما تستعبدنا الأشياء ! »
— لا ، بل قل : « يا للحرية ! يا للاستقلال والأمن ! إن كراسة مذكراتى لثروة ، ومثلها الملف الضخم المسجل فيه أخطائى للمطالعة الخاصة النافعة .

والنظام شقيق البصيرة كما تستطيع أن تتبين ذلك ، وغريب أمر ذلك الإنسان الذى يرغب أن يزور زيداً من الناس ولا يضع فى جيب معطفه ، الذى سيلبسه ، الكتاب الذى استعاره من زيد منذ زمن طويل ، ومن دلائل النظام ، وإن بدا غير ذلك ، وجود منضدة بردهة المنزل وقد تناثرت عليها الأشياء المزمع إرسالها ، أو تناثر المذكرات فوق السجادة حول مكتبك ، فينبغى أن توضع الأشياء حيث يتعذر نسيانها .

* * *

« أواثقة أنت يا سيدتى العزيزة من أنك تعرفين الفرق بين النظام والأناقة ؟ فمخدعك أنيق دون شك ولكن أين ذلك الخطاب الهام الذى وصل من المحامى يوم السبت ؟ » . . . آه أين هو ؟ ماذا ترى لو ألقينا نظرة عابرة تحت غطاء هذه الأدراج الجميلة ؟ يا للمجموعة الهائلة من الخطابات : بعضها داخل

مظاريفها ، وبعضها خارجها ، ومن الفواتير والدعوات وتذاكر حفـــلات الموسيقى والبرامج القديمة وغيرهـا ! وكم مرة ستندفع الأنامل الناعمة الرقيقة كالسهم المنطلق نحو كومة من الأوراق ، فى اعتقاد راسخ أن الخطاب لابد أن يكون هناك ، فلا تخرج منها إلا بنفاد صبر الطائر الطنان حين يبوء بالفشل ! .

والآن فلنعالج الأمر بقليل من النظام : فلنضع الخطابات المفتوحة فوق هذا المقعد ، والأخرى فوق هذه المنضدة ، ولنضع الفواتير فوق هذا المعجم ، وكل ماعدا ذلك فى سلة المهملات .

« على رسلك ! على أحد هذه البرامج ، أوه ! على أحد هذه البرامج سطران لـكراشو لن أتخلى عنهما مهما كان الثمن ! » .

« ها هما ! . . . . فأين نضعهما ؟ » .

« آه . . . . أين ؟ بمجلد تاريخ الأدب لـكمبريدج قسم كراشو ؟ . . . »

« لا ، ليست هـــذه هى الطريقة المثلى ، هيا واستحضرى مظروفا متينا كبيراً ، وافتحيه من أعلى واكتبى عليه كراشو ، وضعى فيه ذلك البروجرام ، واحفظيه فوق رف بمكتبك ، فلن يمر وقت طويل حتى يتجمع من هذه المظاريف خمسون أو أكثر وسيقول زوجك فى إعجاب إن مكتبك منظم حقاً . . . . والآن ألق نظرة على الخطابات المفتوحة ؛ مثار دهشتى أنها خالية من أية علامة حمراء ، حسنا ، عليك إذن أن تقرئى الخطابات بأكملهـــا مرة ثانية . . . كلها خطابات لا فائدة منها ! لماذا تحتفظين بها إذن ؟ مزقيها إرباً وألقى بها إلى سلة المهملات » .

« هذان الخطابان من مسز تشمبرز أريد أن أحتفظ بهما » .

« أحضرى مظروفا كبيراً ، واكتبي في قمته تشمبرز ، وضعيه بجانب مظروف كراشو ، عليك بالبساطة » .

« هذان الاثنان ، هذه الأربعة ، هذه الخمسة عشر ، لا مناص من الرد عليها » .

« يا للسماء ! أفهم الآن لم يشكو جميع الأجانب من عدم رد الأمريكيين على الرسائل وهم أعظم الشعوب في العالم انغماساً في العمل ، أجل إنهم لا يستطيعون غير ذلك ، ولكنك سيدة ، ولزام عليك الرد على الرسائل ، وإذن فخذى خمسة عشر مظروفا ، وضعى فيها الخمس عشرة رسالة ، وفي حمو قلبك اكتبي خمسة عشر عنواناً ، ومنذ الآن فصاعدا ، حين يصلك خطاب علمى بالقلم الأحمر على الفقار الهامة ، واسألى نفسك ما إذا كان هذا الخطاب لسلة المهملات ، أو لرف تشمبرز — كراشو ، أو للحكومة التي سيرد عليها ، فإذا كان للأخيرة ، ضعى الخطاب في مظروف ، واكتبي العنوان ، وألصقى عليه طابع بريد — إذا كان الخطاب مرسلا لباريس ، فتفضلى ، أجل تفضلى بوضع طابع بخمسة سنتات لا باثنين كما تفعلين دائماً — وكلما ازداد ارتفاع هذه الكومة من الرسائل التي لم تردى عليها ، ازداد تأنيب ضميرك لك ، وشعورك بالضيق من شأنه أن يدربك على الفضيلة .

« عجباً ! ها هى الأدراج خاوية ! وها هى سلة المهملات قد امتلأت ! وها هى بسمة سعيدة عجيبة تداعب شفتيك ! وإنك لتعرفين الآن الفرق بين الأناقة ، وهى ضرب من الرياء ، والنظام الذى يعنى مكاناً لكل شىء وكل شىء في مكانه ، سواء أكان رفا أم مظروفاً ، أم سلة مهملات .

« لا تقولى إن الأمر لم يستغرق سوى نصف ساعة لتنظيف القمطر الصغير وإنك من ثمة لم تضيعى سوى ثلاثين دقيقة لعدم مراعاتك للنظام ، فبنفس الفوضى التى كانت فى قمطرك كانت أيضاً فى عقلك ، وحتى فى حياتك ياسيدتى العزيزة ، قد أضعت الوقت ولم تهتمى به كثيرا ، ولكنك كنت ، إلى جانب هذا ، غير مثمرة ، كلاعبة التنس المسكينة التى تتخبط دون أن تسدد للكرة ضربة صائبة ، فينبغى أن يكون مثلك الأعلى دائما ألا تضيعى خطوة أو لفظا أو إيماءة ، والتهاون ضد الرشاقة ، بل إنه يقينا ، فى كل شىء ، ابن عم لرثاثة الطبع .

والتردد قبل العمل يلى فى الترتيب عدم النظام ، وهو من أشد الطرق فتكا فى ضياع الوقت وإضعاف حياة المرء ، وقد عاد صديق لى ، بعد أن قضى أربع سنوات بمعسكر الاعتقال فى ألمانيا مصابا بعجز عصبى عن البت فى الأمور ، وفى يوم ما رحت أراقبه وهو واقف أمام مشاجب القبعات حيث قضى دقيقة كاملة مترددا فى أى مشجب يضع عليه قبعته العسكرية ، وكان المنظر يدعو للرثاء ، فالتردد يضايق حين يكون نتيجة ، لا لاعتلال الصحة ، بل لانعدام النشاط أو الذكاء أو المنهاج ، ويستطيع بعض الناس ارتداء ثيابهم فى أربعين دقيقة لأنهم تعلموا الطريقة الآلية التى اعتاد السيد برجسون تزكيتها فى إغراء ، بينما آخرون يقضون ساعة ونصف الساعة ، إما لأنهم يترددون قبل البت فى الأمور التى ينبغى أن تكون مجرد إيماءات ؛ فتراهم يتطلعون حواليهم متحيرين ماذا يأتى فى الأعقاب ، أحيانا يطلون من النافذة ، أو يدخنون لقدح قرائحهم ، أو يترددون طويلا جداً للمفاضلة بين بنيقتين أو رباطين للعنق .

وثمة لفظ فرنسى قديم مازال باقياً فقط ببعض الأنحاء الشمالية يصف هذا

مصوراً ، وهو العقل « Tourniquer » الذى يظهر لنا شخصاً يتحرك ، دون هدف ، فى دائرة حتى تهبط عليه فكرة لعمل معين ، ومن المؤكد أن بالدوران ميلا لأن يستمر مدة أطول بينما يتباطأ إلهام الفكر ، ويستنفد بعض الناس حياتهم التى تبدأ على هذا النمط ولا تبدأ لتبدأ ، وأن خمس دقائق أمام صفحة من الورق وفى قمتها سؤال فوش المشهور : « ما الموضوع ؟ » وقلما لإجابته ، من شأنهما أن يلاشيا أثر التعويذة الشريرة ، ولكن التردد المزمن لا ينشد أى علاج ، فرده على نفسه هو : « علينا أن نفكر أولا فى الأمر ونتدبره » ولكن التفكير لا يبدأ قط ؛ فالواقع أن كلمة « يبدأ » تثير الفزع ، وما من شىء يستطيع أن يكون أكثر صدقاً وأوفر تشجيعاً للناس الموهوبين بقسطين متعادلين من الرغبة البشرية للعمل والاستمرار البشرى للكسل من العبارة اليونانية : « البدء نصف الشىء » ، والكتاب يعلمون هذا جيداً ، وينبغى أن يتعلم الطلاب فى المدرسة مدى صدق هذه العبارة ، هب أنك كلفت بكليتك أن تكتب مقالا عن رونسار ، فاذهب رأساً إلى الأستاذ الفرنسى الذى يستطيع أن يسلمك قائمة من اثنى عشر مقتطفاً تظهر لك رونسار فى أروع صورة ، من حيث السمو ، ومن حيث الرقة ، وفى أسوأ صوره اليونانية اللاتينية إلخ ، ثم توجه رأساً لمنزلك واقرأ هذه المقتطفات ، مسجلا مذكرات بما تلاحظ وبطريقة رد الفعل عندك ، ولا تضيع وقتاً وصنف هذه المذكرات ، وفكر فيها حتى يكسو بعض اللحم هذه العظام ، ودون أن تبدد الوقت هباء دون ماتريد قوله ولا تزد عليه شيئاً .

ويمكن إعداد إرادتك وشحذها بنفس الطريقة ، وكذلك الحال فى ردك على مقترح بمشاركتك فى عمل ما ، وأيضاً فيما يتعلق بجملتك المكيافيلية لإقناع

زيد من الناس كى يقبل انضمامك لشركة ، تعلم مجابهة الأشياء ولكن وفق أصح الطرق العلمية ، كن مثل لندنبرج أول طيار عبر المحيط الأطلسى — الرائد الأول لأى محيط صغير لا مناص لك من اجتيازه ، ينبغى أن تتألف حياتنا من ألف دراما قصيرة ، كاملة فى ذاتها ، عاجلة كلعبة البوكر ، وقد هيأ لى بعض رجال الأعمال متعة فنية صادقة بسلامة ما يملون ، فكل رسالة منهم كانت تعنى وزناً عاجلا لما لهم وما عليهم ، وقراراً حاسما ، ويتم الأمر فوراً ، فى حين أن رجال أعمال آخرين . . .

ألم تشرع قط فى تعلم الفرنسية أو الألمانية ؟ نعم ، وهل تشعر كما لو كنت راغباً فى أن تبدأ ثانية ؟ صدقنى، إن الأفضل ألا تبدأ، فينبغى أن تكتفى بتجربة واحدة ، ذلك لأن شيطان التردد يجد مسرته فى أن يخبر الناس أنه يلزمهم تعلم اللغات ، وحبذا لو قمت بجمع صناديق الكبريت مثل الأمير الروسى فى قصة « سلفستر بونارد » ، الذى لم يعوزه منها سوى صنف واحد وقد ملأ حياته بالبحث عنه ، وحبذا أيضاً لو بدأت اليوم ، هذا الصباح بالذات ، أى لون من العمل الاجتماعى الذى يمنحك الحق فى أن تتناول طعامك دون شعور بالخجل .

وإذن فيمكن « صنع » الوقت وليست العبارة المسبوكة خداعاً ، وإذ أحرزت قوائم بأشياء تؤديها فى ظروف معينة (قبل الذهاب للريف — قبل الإبحار — قبل البدأ فى دراسة ما) وإذا كانت يوميتك جدولا واضح التقسيم ، يبين لك فى لمحة ما يلزمك عمله ، أصبحت شخصاً مزدحماً بالعمل ، ولكنك

ستنال إحساساً بالقدرة على الأشياء ، وإذا عرفت كيف تركز ذهنك ؟ أو بتعبير آخر ، كيف تستخدم الطرف الحاد من عقلك ، وكان لديك الوقت وامتلكت الآلة ، فلن يعوزك سوى مادة الفكر الصالحة ، وقد خصصت فصول الكتاب التالية لهذه المادة .

* * *

الفصل الثامن

كيف يحيا المرء حياته على مستوى أعلى

(١) الصور المنتجة للفكر :

تذكر أن عقلنا يقوم بعمله على سلسلة متتالية دائمة من الصور الذهنية المتصلة بقسط صغر أو كبر ؛ وهذه الصور الذهنية ، كما ذكرت ، تميز سليقتنا العقلية . انتقل من معرض لروائع الصور الفنية إلى قسم الصور بمخزن ما ، فإنك ستفطن عندئذ لانخفاض المستوى ، آتيا فى أعقاب التفوق ، ومخيلة كل إنسان هى معرض للصور ، فإذا كانت الصور مرئية بدلا من الاضطرار لاستنباطها من الحديث أو من هيئة الشخص السلوكية العامة ، تيسر لنا أن نقوم رفاقنا من الناس كما نقوم أوانى الزينة بحانوت ما .

إنه لمن خطل الرأى أن نفعل أكثر من أن نستعيد للذاكرة ما جاء بالفصل الثانى من الباب الأول حول النقص العام للصور الذهنية التى تملأ عقول

معظم الـكائنات البشرية ، والتى لا يكاد يعلو كثير منها على تلك التى تؤلف عقلية الحيوان، على أن نتذكر دائماً أن الحيوانات لا يندر أن تعلو كثيراً على الـكائنات البشرية فى الإحساس أو فى القدرة على الحب ، فعقل السكير المدمن أو الريفى الجلف لا يعرف إلا القليل بجانب الصور الذهنية المتصلة بالحاجات الأولية ؛ ومختلو الغريزة الجنسية ، الذين يوجد منهم أكثر مما يتصور الناس ، حتى النموذج العادى منهم ، الرجل المتأنق فى ملبسه الذى يتبع النساء فى الشوارع يكادون أن يكونوا عاجزين عن إنتاج أكثر من صنف واحد من الصـور الذهنية ، والبخلاء محبو المـال ، أو أولئك الذين يكونون ثروة على حد التسمية المعاصرة لهم ، تستحوذ على ألبابهم أيضاً مجموعة مستبدة من الصور ، ويلحق بهؤلاء أيضاً رجل المطامع الدنيوية ، المتسلق الاجتماعى الذى يرى على المخطوط الذى فى أعماقه ، إعلانات عن تردده على اللجان والمـآدب العامة أو الأوسمة والألقاب ، ومن المؤكد أن الطراز المألوف أكثر من غيره هو طراز الرجـل أو المرأة الحبيسة فى وجودها التافه ، والتى تعكف دائمـاً على تفاصيل كيانها البـالية الرخيصة ، وتكاد جين أوستن المؤلفة تـكون ضارية فى وصفها للنماذج العليا من هذا الطراز التافه ، الطراز الذى نحتك معه بالمناكب كل يوم .

ويحتمل أن يكون لنا جميعاً كلمة بموسوعتنا اللغوية تصف هذا المستوى المنخفض المتفشى بين الجميع : وقد اعتدت ، وأنا صبى ببلدتنا الفرنسية الصغيرة ، أن أخص برعايتى حانوتا يديره شخص يدعى مسيو بابا ، الذى كان أيضاً فلاحاً إلى حد ما ، وغير مجرد تماماً مما يجعل المرء سيداً محترماً ، وكان ربعة متوسط

السن مكتنز الوجه ، ومن عجب أنه كان رشيق الحركة على قدميه الصغيرتين ، وحينما كان يدور داخل حانوته باحثاً عن ألوان الحلوى الخاصة التى أطلبها ، كان يصيخ بسمعه إلى الحـــــديث الدائر بين زوجته الفارعة العود وبناته النحيلات بالحجرة المجاورة ، وخرجت يوماً من عنده وقد ساورنى شعور بالخيبة إذ لم أسمعه يغمغم بتعليقه المتعض على ثرثرتهن قائلا: « تفاصيل تافهة ... تفاصيل تافهة» وقد خدمنى هذا طوال حياتى ، فى أن أصنف باطنيا سمات تسعة عشر جزءاً من عشرين مما أسمع لا مما أقول .

أنستطيع أن نفكر كما نهوى ؟ أو أليس تفكيرنا مقدراً مثل تنفسنا ؟ .

ومن المؤكد أنه لا يسعنا إلا أن نفكر كما أنه لا يسعنا إلا أن نتنفس ، ولـكن كما أن فى مقدورنا أن نتخير استنشاق الهواء النقى فى غابة من الصنوبر فوق هضبة عالية ، نستطيع أن نرقى بعقولنا إلى حيث تـكون الصور الذهنية ، التى سنعمل على أساسها ، متسامية رفيعة العماد ، ما الذى يمنعنى عن استبدال ثرثرة الشارع الرئيسى بثرثرة أوربا ؟ فلا يستطيع أحد أن يجـــد متعة حقيقيـــة فى شئون العالم دون أن يضفى شخصية حية على ما يعج به التاريخ من شخصيات معنوية جماعية : الشعوب القديمة بأوربا ، أو شعوب آسياالغربية العائدة للحياة ، أو أمريكا البالغة الآن رشدها ؛ أستطيع أن أتـكلم عن بريطانيا والولايات المتحدة كما أستطيع الـكلام عن اثنين من جيرانى .

وبالطريقة نفسها كان موسولينى شخصياً يضفى من المتعة ، منذ عشرين عاماً ، مثل ما يضفيه الآن بل وأكثر ، ومع ذلك فإن ما نتعلمه عنه يوما هو التاريخ وليست الشخصية .

كذلك لا يوجد سوى فارق طفيف بين مصالح وأطماع ومباذل الشعوب وتلك التي تتعلق بالعشائر أو الأسر ، وهو ما ينبغي أن يلقنه ، منذ البداية ، طلاب التاريخ الصغار ، وعلى الرغم من ذلك يبدو أن المسائل الدولية تتعلق فقط بقلة من المراقبين الموهوبين .

ولا يمكن أن يكون ثمة شيء أبعد عن الحق من هذا ، ولم تسكن مدام سفنيه ، أو القديس سمعان ، أو معظم مؤلفي المذكرات اليومية ، حاصلين على بعد نظر سياسي ، ولكنهم يبدون الآن في مرتبة أعلى من رفقائهم لأن اهتمامهم كان من طبقة جليلة القدر ؛ ويستطيع كل فرد أن يرقى إلى هذا المستوى ، وعليه أن ينحى باللائمة على نفسه إن هو لم يفعل ؛ ولقد فعلها ، خلال الحرب ، ملايين من بسطاء الناس دون أقل معاناة ، ومع ذلك ساروا على المنهج السليم لأن التاريخ كان هو الموضوع اليومي ، واليوم قد انحسروا إلى مجرد قصص وتبدد تفكيرهم وفقاً لذلك ، ومع ذلك فإن ذات عناصر التفكير الرفيع المترامي تفرض نفسها كل يوم ، ولم أنس قط يوم الأحد عام ١٩١٤ ، والشمس طالعة ، حين كانت ملاحق الصحف المعلنة أنباء سراجيفو ، تباع بالشوارع الكبرى ، فقد أمكنني أن أصيخ السمع لقلة من الناس يتحدثون في التاريخ ، ولكن السواد الأعظم انصرفوا عن مأساة هذا التمهيد لأعظم دراما في التاريخ كي يعودوا إلى الفائز بسباق لونجشا ، إذ كان يوم الجائزة الكبرى ؛ ولا يكاد يمر أسبوع ، خلال أعوام التاريخ المثقلة التي نعيشها الآن ، دون أن تعترض طريقنا مثل هذه السانحة للتأمل الطبيعي رغم علوه ، ومع ذلك يصر معظم الناس على التحدث عن جونس أو براون .

ومن عجب أن يقع كثير من نقاد الأدب المحترفين في خطأ البحث عن

موضوعات مبتكرة بين الشخصيات التى هى أقل أهمية فى التاريخ الأدبى، ومن المؤكد أن لبعض الأصاغر أهمية عظمى عند المؤرخ لأنهم، فى غير لباقة أو توقد ذهنى، قاموا بحركة هامة ، ولأرثر يونج وزنه فى تاريخ الرومانسية ، ولشامفليرى ، أهمية أكبر من فيلوبير فى ظهور الأدب الواقعى ، ولكن يكفى كتاب واحد عن يونج أو شامفليرى ، فى حين أن من الممكن تحرير مكتبات كاملة عن بلزاك وفلوبير وبيرون ، وإذا سألنى دارس شاب أن أدله على موضوع يمكن الإسهاب فى التحدث عنه بما لم يتحدث بمثله أحد من قبل أجبته دون تردد : « هوميروس ، أفلاطون ، فيرجيل ، ملتون ، راسين أو الإسكندر ، قيصر ، نابليون ، أو العصر الرسولى ، أو الثورة ، أو الموت ، أو الحب » ، إنما ينبغى أن يكون الاختيار هو : أى موضوع يحتمل أن يستثير اهتمام طفل متوقد الذكاء ؟ ذلك لأن الأطفال لا يهتمون بالتفاصيل التافهة حتى تفسدهم المحاكاة. والأدلة على هذه كثيرة ، فأى كتاب عن نابليون لم يكن ناجحاً ؟ ، وهل كان فى مقدور سيدة يافعة مثل مدام دى ستايل أن تبرز كما فعلت ، لو لم تنجذب عقليتها الرفيعة، من مبدأ الأمر، بمثل هذه الموضوعات الحيوية كالعواطف البشرية ، وأسس الأدب والثورة ، والرومانسية الألمانية ؟ ، وأى قسم من أقسام مثل ذلك الإنتاج الشامل الذى لسنت بيف يفيد مطالعته وأيها نغفله ؟ ، وهل نفضل دائما مجموعة من صناديق الكبريت عن إحدى روائع رافائيل ، ولعنة الصحافة اليومية هى أن تفاهة موضوعاتها تدعو إلى معاملتها دون اهتمام كمن يؤدى واجبا بغيضا ؛ وحينما يحملنا عنوان مقال عائد بنا إلى شىء خصيب عميق ، يفسح الخبر الصحفى المجال لشاعر .

ومن المستحيل أن تقضى ساعة فى حجرة مع رجل مشرف على العظمة

دون أن تنالك عدوى التفكير ذى السمات المتميزة ؛ وليس من الميسور دائماً وجود مثل هؤلاء الناس ، أو لعل فرص التقائنا بهم محدودة ؛ بيد أن فى استطاعة أى امرئ ، على قسط متوسط من المعرفة بتاريخ الشعوب أو الأدب أو محبة البشر أو الفن،ناهيك عن تاريخ عظماء المتدينين أو القديسين، أن يعمر مخيلته بمجموعات من القوم المتفوقين فى كل حدب وصوب ؛ وسأنتهز فيما بعد فرصة لأبين كيف نستطيع استدعاء أى عظيم من الناس لننعم بصحبته حين نحس وحشة الانفراد ، ولكن ساعاتنا الجادة لا يتيسر تكريسها لمهمة أكثر نفعا من دراسة حياة أو أفكار عظماء الرجال .

وقد هيأ كتاب بلوتارخ « الحيوانات المتماثلة » غذاء ممتازا لعقول النخبة الخاصة من جميع الشعوب حتى اعتبر من روائع الكتب التايدة بدلا من تناوله ككتاب موفور المتعة ؛ وتخبرنا مدام دى منتنو، التى لم تكن خليلة لملك ، كما يعتقد الكثيرون فى أمريكا، أو بليدة الحس كما يتوهم المحدثون من الفرنسيين فى حماقة ، إن أمها البروتستانية المذهب ، كانت تحتم عليها وعلى شقيقها أن يستخدما دائماً أبطال بلوتارخ فى ألعابهما ومحادثاتهما ، ونضيف إلى ذلك أنهما كانا يطيعان الأمر بسرور ؛ ولا يطالع الصبى الفرنسى بمدرسته من نتاج بلوتارخ أكثر مما يضطره منهاجه المدرسى كى يخوض العباب صوب امتحانه فى اللغة اليونانية ، ولكنه يستعيض عنه بكتابه المقرر فى الأدب الفرنسى : فالأطفال يهوون غير المألوف ويمقتون الرتابة الفجة فى حياة غيرهم من الناس كما يمقتونها فى حياتهم ؛ وأن مثال موسيه الأدبى لبديل صغير الشأن لديموستين ، ولكن كما أن نقاط ضعف ديموسيه أنتجت فى النهاية أشعار

« ليل أ كتوبر » فالاستنتاج الصبيانى هو أن هناك وسيلة بارعة لأن يكون المرء عاديا وهذا هو ما ينبغى محا كاته ؛ ويكون عقله مليئا بهـذه الفـكرة حين تلمح على جبينه جدية غير مألوفة وهو يضع كتبه فى حقيبته المدرسية ؛ ومن ذا الذى يستطيع القول بأن فـكرة هذا الصبى ليست أقرب إلى التفـكير الصحيح ممـا ستكون عليه بعد عشر سنوات عندما يتجه معظم اهتمام المحامى أو المـالى اليافع الأنيق نحو المـال أو النجاح أو الزواج ؟ .

ولا علاج للرتابة الفجة فى التفـكير الذى تنتجه حقارة شهواتنا يمكن أن يعدل التأمل فى حياة العظماء ؛ افتح كتاب كليمنصو الصغير عن ديموستين ، وسترى وتلمس قطعا كأنك تلمس بيدك نتيجة التفضيل الدائم لعظماء الوطنيين وعظماء المفـكرين فى وجود كان من المحتمل أن تجعله الصحافة والسياسة والمبارزة وكل وهج ميادين الخطابة الجوفاء ضحلا ضحضاحا ؛ ولقد رأيت أكثر من مرة ، من هم أدنى كثيراً من كليمنصو ، من المصلحين الاجتماعيين المتفيقهين المتحذلقين يرتقون إلى مرتبة غير مرتقبة من الـكرامة بمجرد الادعاء أن عملهم يسير على نهج عظماء رجال الثورة ، فمجرد ذكر العظمة له مفعول السحر لأننا جميعا ندرك ما له علينا من أثر لا يخيب .

وإذا كنت غير قادر ، فى أية لحظة ، أن تسمى رجلا عظيما له ، أو كان له حديث ، أثر على سلوكك ، فتصدر بذلك الحكم على تفكيرك ووجودك بأنهما من الصنف « العادى » ؛ وخلاف ذلك ، أعطنى التصريحات العامة التى ينطق بها هذا السياسى ، أو ذلك الذى يسمونه زعيما ، ومن ثمة أستطيع أن أخبرك ما إذا كان مهبط عطاء مفروض من العظمة ، أو أنه مدفوع فقط

بمصالح فى الهواء . إن أمريكا لاتدرك كم هى مدينة للحقيقة المسائلة فى أن لنكولن لايزال كائنا حيا فوق رابية الكابيتول ، وأنه لا يمكن تفاديه حتى ولو لم ينشدها أحد .

غير مقتنعة ! غير مكترثة ! تبعدين أميالا عن لنكولن أو بلوتارخ ياقارئتى الصغيرة اللطيفة ! آه ! يا لهذه الحياة اليومية ! ومع ذلك فليس ثمة ضرورة لأن يساورك القنوط وتنتحرين بإلقاء نفسك رأسا على عقب فى خضم من قطع الشكولاتة أو سرب من الغلمان ؛ فمن المؤكد أنك تحبين الطبيعة ، وقد لاقيتك مرة وأنت منفردة سعيدة على الطريق الصخرى فى نيويورت ؛ وأنك لتهوين الموسيقى والسينما وتهيمين بالمخرمات ؛ وفكرة روما تعنى الكثير عندك حين تعبرين قنطرة المركب المتحركة إلى الدويليو ؛ فى هذا الكفاية ؛ فلشد ما تبرز شخصيتك ، ويبدو عقلك متألقا مزدانا بكل ما هو رائع وجميل لو أنك بوجه عام استبعدت مالا يضفى عليك أعظم بهجة أنت كفء لها ؛ ولكن من أسرار طبيعتنا البشرية أنه حينما تكون مائدتنا مثقلة بأشهى الطيبات نروح نبكى أمام صوان الأم هوبارد .

(ب) التسامى الخلقى شرط من شروط التفكير الرفيع :

يقول فوفنارج : « تصعد الأفكار العظيمة من القلب » ويقول جوبير : « إن القلوب التى يعوزها الدفء ، يعوزها النور » .

وعلى الرغم من الرومانسية فإن الفرنسيين المحدثين يبدون ميلا متزايدا للعودة إلى ركب اليونانيين فى نظرتهم العقلية المجردة إزاء إنتاج الفكر ؛ ولكنهم كثيراً ماينا قضون فلسفتهم بمثل هذه التصريحات الآنفة الذكر ؛

والواقع أنه يستحيل العيش دون ملاحظة قــدر ما يصيب عقليتنا من الجدب حين يزعمون أنها قـد أعطيت فرصا بغير حساب ؛ ومن ناحية أخرى فلا بد أن نلاقى جميعا يوما ما رجالا أدنى منا عقليا ، ومع ذلك لا نتمالك أنفسنا عن إبداء إعجابنا بأفكارهم ؛ طالع حياة ذلك الشحاذ ، القديس لابر ، الذى كان يعيش فى الخرق والأقذار على درج الـكنائس الرومانية ؛ وطالع حياة قس آر المتواضع ، جان — بابتيست فيانى ، الذى كان ضحل المواهب العقلية إلى حد أن رفضت الرئاسة الدينية الاحتفال بتكريسه كاهنا ، فى فترة تقلص فيها رجال الدين حتى كادوا ينقرضون ؛ هذان الرجلان لم يعرفا شيئا ولـكنهما رأيا كل شىء ، ورؤيتهما للعالم — وهى ما كان سيدهشما أن يسمعا تسميتها فلسفتهما ومنطوقها — كانت ذات سمات متميزة رفيعة ؛ تطلع إلى صورتيهما فستشاهد فى عيونهما وعلى محيا كل منهما شيئاً متألقاً ، شيئاً لن يعنى أى شىء إذا لم يكن يعكس الفـكر .

والمحبة ، سواء أكانت هى جاذبية الحق ، أم الحب الأصيل البسيط النقى ، تفتق الذهن وتضفى عليه حرية النبوغ ؛ وتعمل الأمومة أيضاً على هذا النمط ، وتبدى الحيوانات هذا بطريقة باهرة حقاً ، وأيضاً — لنقل دون أية محاولة فى الإغراب اللفظى — حتى النسوة المتصنعات يبدين هذا ؛ ويستمر التغيير مادام تيار المحبة يظل متدفقاً قوياً .

وهكذا يفعل كل حافز عظيم يتسم بالإيثار ويملأ الروح بأكملها ، وقد أتاحت الحرب فرصة فريدة لآلاف النساء والرجال الذين تعج قلوبهم بكنوز الحب العميق المتعطل ، وإنى لأذكر سيدة أمريكية معروفة ، زارتنى حوالى عام ١٩٠٨ ، بالقسم الذى كنت أشغله بـكلية ستانسلاس بغية الحصول على

معلومات عن حركة جماعة « سيون ــ Sillon» التى كانت آنذاك فى عنفوانها ولكنى شعرت بأنها حرية بأن ترحب بمعلومات عن أى شىء من شأنه أن يهىء فرصة لطاقات روحها ، وإنى لأذكر الأسئلة المتلهفة بصوت أجش ولكنه واضح النبرات : كل لفظ كشف عن نزوع مكبوت لشىء يحرر رأسها وقلبها، وقد أتاحت الحرب لها الفرصة التى كانت تنشدها فى لهفة وحنين ، فأغدقت من نفسها بسخاء وسرعان مانالت خير الجزاء ؛ ولقد لاقيتها ثانية فى كليفورنيا عام ١٩١٩ ، وكان قد طرأ عليها تغيير شبيه بذلك الذى ينجم عادة عن كل زواج موفق سعيد ، فقد اختفى ذلك الشىء الملىء بالشعور العميق المكبوت الذى جعلها فى نفس الوقت ظاهرة الأسى : ولكن حل مكانه امتلاء رائع فى عمل العقل وامتلاك لناصية البيان ، وتحقق الإنجاز وفق أدق الأحاسيس والمعانى .

وحالتها واحدة من آلاف كثيرة ، فبشر من الصنف الأصيل ، ومشتغل بشئون المستشفيات من غير الأدعياء ، والعديدون من مختلف المشتغلين بالشئون الاجتماعية ، والسيدات من طراز مسز هاو ، أو فلورنس نيتنجيل ، أو الأخت روزالى، اللاتى كرسن أنفسهن لعمل مثالى مجرد، كل أولئك قد تغيروا عقلياً تبعاً له؛ وهم على حد ما اعتادت مدام جايو قوله: يستطيعون أن يكتبوا أو يتحدثوا عنه دون انقطاع . إن عقد النقص العقلى تذوب ، كرقائق الجليد ، فى رحاب الحب ، ومن ثم يتم تحرير الروح تماما .

وليس ثمة مكان يتيح فرصة لمثل هذا التحرير كما هو الحال فى الولايات المتحدة حيث يبدو الحافز البدائى ، نحو حالة تعاونية اتحادية أفضل ، فى عنفوانه بعيداً عن أن يستنفد نفسه ، ولاشك فى أن أى امرئ قام ، ولو مرة واحدة فى

حياته ، بمهمة جمع المال لعمل خيرى ، علم ، على عكس الاعتقاد العام ، أن كثيرين من الأمريكيين الأثرياء يستطيعون أن يرفضوا دفع دولار ، ولكن بجانب هذا فما من مكان تجد فيه فكرة تستحق التعضيد ، ما تجده هناك من تعضيد ، والسماحة الفكرية — التى يجىء الإحسان كنتيجة فطرية لها —غريزة عند الأمريكى ، ولذلك فليس عجيباً أن يجد فرصاً كثيرة للنمو عن طريق الحب التقى ، وأن يكون التفكير المؤتلف فى الولايات المتحدة ، وهو مثلها الأعلى على حد تسمية الناس له ، ذا خاصية عجيبة غير مألوفة .

ولكن إذا فرضنا أن هذه الفرص فاتت الرغبة الأمينة ؛ وإذا فرضنا أن جميع الرجال سعداء ، وأنه لم يوجد بشوارع مدينة بوسطن وحدها فى عام واحد ست وخمسون ألف هرة ضالة تقاسى العناء ، فهلا يزال ميسوراً الارتقاء إلى منطقة الفكر عن طريق الجهود الأدبية ؟ عطل تيار إدراكك لحظة ، وتطلع فى أغوار نفسك ، واقبض على الصور الذهنية التى تتكون وتتلاشى هناك ، فما الذى ستراه ؟ من المؤكد أنك سترى صوراً تافهة من حب النفس ، ولكن أكثر منها صوراً تافهة من المنغصات . وليست طبيعتنا نبيلة ولا هى سخية ؛ فنحن نذكر الهنات أكثر مما نذكر المروءات ؛ ويحدث أن نكون قد عشنا أياماً فى منزل أو فى بلد أجنبى ، دون أن نلاقى سوى التكريم ، ولكن حالما نشعر بالمضايقة أو الإساءة ننسى السعادة وننمى التذمر الرخيص ، إننا سريعو الإحساس بالإساءة ودائماً متحفزون ، كما أن الاهتمام بمصالحنا الذاتية يستبد بنا ، وكلما تقدمنا فى السن ووجب علينا أن نكون أكثر تجرداً ، نصبح على النقيض أشد تحفزاً للفرصة المواتية ؛ وأن مظهراً مدروساً للصراحة نحرزه على مر السنين يحجب حقائق قد لا نريد عرضها للفحص ؛ ومرة قال يوسف

دي ميستر إنه لا يعرف ما قد تكون عليه نفس أحد الأوغاد؛ ولكنه يعرف جيداً مما تتركب نفس رجل طيب، وهو شيء فظيع، وهذا هو الاعتراف الخافت الذى نهمسه جميعاً، وإذن فلا عجب أن امتلأت عقولنا بمحصول خصيب ليس من التفاصيل التافهة فحسب بل من خسيس الرؤى بدلا من الصور الذهنية النبيلة، ولا يستطيع فكر جدير بالاسم أن يصدر قط من نمو مقيت، ولكن كما أننا نستطيع أن نؤثر الصحبة الكريمة على الصحبة العادية أو ما هو أسوأ، وأن نفضل الكتب الدسمة على الهزيلة، كذلك نستطيع أن نستبعد الفكرة الخسيسة بعد سحقها، ونستدعى أفكاراً أفضل، وكما نتعلم أن نجلس معتدلين، أو ألا نطلق العنان، حتى فى خلوتنا، لحركاتنا وسكناتنا، نستطيع أن نطرد ضيوف الروح الذين لا تشرفنا صحبتهم، وسيكون جزاء هذا البدء المتواضع فى القداسة مزيداً من الميل للإنصاف ومن المشاركة فى المشاعر وهذا مظهر من مظاهر الذكاء، ويتميز الطيبون من الناس عموماً بالتفكير السليم، فإذا لم يكونوا كذلك بدا الأمر غير طبيعى، وانتصرت بخسة تلك الأجزاء السفلى من ذاتنا. الأجزاء المتمردة المتأهبة دائماً للتألب.

* * *

(ج) أفكار رفيعة من الكتب:

إذا عدت لفقرة « ج » من الفصل السادس، الباب الثانى، عن خطر القراءة الضعيفة عرفت ما يتوقعه المرء من هذا، فمعنى القراءة، عند معظم الناس، وسيلة مخزية لقتل الوقت مستورة تحت اسم موقر، والاستخفاف بالمطبوعات على هذا النمط، سرعان ما يقلل احتفاظ الذهن بمرونته، وهذا من شأنه الإضرار مباشرة بفن التفكير.

وإذا أردت استخدام الكتب كحافز للتفكير ، فلزام ألا تكون كتباً لمجرد التسلية أو لتهيئة عقلك للنوم ، بل أن تجعله ، على عكس ذلك ، ساهراً متيقظاً .

وماهى تلك الكتب ؟ .

ما هية هذه الكتب أنت أفضل من يعرفها ، أما أنا فلا أعرف عنها أى شيء ، فالكتاب كالمنظر الطبيعى ، حالة من الإدراك الوجدانى ، يختلف باختلاف القراء ؛ فقد يوجد كتاب ما ، أو نبذة ، أو مقال فى موسوعة للمعارف أو قصاصة قديمة من صحيفة يومية دفعتك للتفكير يوماً ما ؛ ويحتمل جداً أن تكون واحدا من أولئك النادرين الذين تكفيهم بضعة أسطر مكتوبة غذاء للفكر ، لأن أفكارهم على حد قول لا مارتين ، تفكر نفسها ، وقد يكون الشيء الذى يستنهضك شعراً ، أو تاريخاً ، أو فلسفة ، أو علوماً ، أو علوماً أخلاقية مثل تقدم الجنس البشرى ؛ وبعض الناس ، من يداعبهم الكرى وهم يطالعون كتاباً ، يجدون متعة فى مجلة يظنون أنها أكثر إيجازاً أو أفضل بالنسبة لمستواهم ؛ طالع المجلات إذا كانت تساعدك على التفكير ، أو بتعبير آخر ، إذا كانت تترك فى عقلك صوراً ذهنية تظل حية باقية ، بينما تكون قد نسيت من أين أتت ؛ طالع سجلا لشكسبير ، بسرعة أربعة أبيات يومياً ، إذا كانت لمقتطفات شكسبير عليك ذلك الأثر السحرى الذى لها على بعض الناس ؛ طالع علم الجبر ؛ طالع حياة عظماء المخترعين أو حياة عظماء رجال الأعمال ؛ طالع ذلك الصنف من الكتب الذى تعرف أنت ، دون أحد سواك ، أنه منتج للفكر بالنسبة لك .

ويستخلص بعض الناس شعراً من عشرة أبيات من روائع تومسون

أكثر مما يستخلصونه من كل أشعار شلى، لأنهم قرءوا هذه الأبيات العشرة أولا فى طفولتهم أو فى حالة عقلية مرهفة التأهب لتلقى ما يرد عليها؛ ويحتمل أن يوجد، بنفس الطريقة، مصدر من الرومانسية بموسيقى إحدى رقصات القرن السابع عشر الحزينة الباسلة أعمق مما بإحدى أوبرات واجنر؛ فما من أحد يستطيع أن يفكر لنا أفكارنا، وما من أحد يستطيع أن ينبئنا عن شىء له على تفكيرنا من الأثر مثل ما للندى أو للشمس؛ والكتاب الذى يجعلنا نفكر هو الكتاب الذى لا نستطيع إغلاقه ثانية بعد أن نقرأ صفحة واحدة، لابتهارنا بما يفضى به لنا؛ أو هو الكتاب الذى نسقطه على ركبتنا بعد قراءة صفحة واحدة، لأن ما يسوقه يدفعنا قسراً للتساؤل والاعتراض والتذييل، فما من أحد سواك يستطيع أن يقدم لك عناوين أو تصانيف؛ وينبغى ألا يجعلك ما أنا مقدم على ذكره أن تتخاذل فتشك فى حكمة إجابتك عن السؤال الشخصى المحض: أية كتب هى الأفضل لمساعدتى على التفكير؟.

ولقد تمخض ذهن ولتر سكوت عن قصصه الطويلة خلال مطالعته كتباً غريبة تماماً عن موضوعه؛ ومن يستطيع أن يصدق أن ضروب الإلهام الفلسفية لم ترد على ذهن كانط إلا وهو غارق فى قصص الرحلات التى كان شغوفاً بها؟. هل حللت يوماً ما كان يجول بخاطرك حين استمتاعك بمحاضرة أو حفل موسيقى؟ ولعلك استمتعت أحياناً بمتابعة النقاش أو الموسيقى بأكثر من الوضوح المعتاد، وفى أكثر الأحيان تتيح لك الخطابة أو موضوع الموسيقى فرصة لبعض النشاط الكامن فى أغوارك، وفى خلال ساعة تصبح فى أحسن حالات فطرتك؛ وفن التفكير هو مجرد فن صيرورة المرء هكذا، فى يسر ووفرة قدر المستطاع.

لا تطالع قط كتاباً للأسلوب ، ويقول نيومان فى تراجمه إنه اعتاد أن يطالع « منسفيلد بارك » كل عام لهذا الغرض ، للأسلوب ؛ ولا مشاحة أن نيومان ، وهو ذاته أستاذ فى الإنجليزية السليمة ، كان مدركا لروعة لغة جين أوستن ، ولـكنه كان أسمى بكثير من مجرد الألفاظ أو مجرد رشاقة اللغة حتى يعنى بما يدعـــوه الناس أسلوب المؤلف ، أو بتعبير آخر ، إيماءات تعبيره ؛ وهـكذا ينبغى أن نـكون إذا لم نرد أن نسف إلى مستوى الصياغة الدعية الرخيصة لمجرد الألفاظ فلا يصل أقصى مجهودنا الأدبى إلا إلى كل غث ركيك ، وأن موقفاً حاسماً بهذا الخصوص سرعان ما يضعنا فى زمرة المليئين بالرجولة من الناس الذين ينصب كل اهتمامهم على مادة الأشياء ؛ والذى يهمنا معرفته هو ما معنى رجل ، وما اتجاه هذا المعنى وما فائدته لنا ولغيرنا من البشر ؟ ؛ وإذا كانت العادة المسيحية المتعلقة برؤية كل شيء تحت مظهر الخلود ، من شأنها أن ترفع هذه الهيئة لمرتبة البت والحب التى لا يمكن أن يقتصر تعلقها على النظام العقلى فحسب ، أصبحنا من الراجحين .

وأية كتب ينبغى أن نطالعها ؟ .

إن المبدأ الذى لم يفشل قط فى تهيئة التفوق لنشاط المرء الفكرى هو الشعار الأنيق : « لا تطالع الـكتب الجيدة — الحياة أقصر من أن تتسع لذلك — طالع أفضلها فقط » هذه الوصفة البسيطة لهـا من التأثير الناجع ما للهواء النقى والطعام الجيد على صحة البدن ، ومع ذلك فمن بين كل عشرين من المحدثين من الناس يوجد تسعة عشر يقشعرون منها ، ويئنون قائلين : روائع الـكتب ثانية ! الإنيد لفرجيل ، والـكوميديا الإلهية لدانتى ، والفردوس المفقود لملتون !

طالما سمعنا من قبل أنه : « من الأفضل أن يكون الكتاب عادياً من أن يحس المرء السأم والملال » .

والفكرة بأن روائع الأدب كتب مدرسية مملة يترجمها مدرسون متبلدون أو تضخمها مادة للاختبار ، هى محصول عجيب للتعليم ، فمن المؤكد أن الجهل أقل قضاء على التلميذ ، لأنه لا يستطيع أن يخلق مثل عقدة النقص التى تخلقها فكرة عجزه عن الارتباط بأفضل صنوف الأدب ، ولكن لشد ما يسهل طرد هذا الشبح إذا عدلنا المبدأ الآنف الذكر بجعله : « طالع فقط ما يضفى عليك أعظم المتع » .

لقد عاش بلندن فى القرن الماضى أحد الكتبة ، له مشارب التقاعد التى تناسب رجلا محدود الدخل ، ولكن مع ميل للمتألقين فى المدينة ، خاصة للمسرح ، وللممثلات الحسناوات وللموهبة والرشاقة ، وكان هذا الرجل من المترددين على المسرح دون شك ، ولكنه كان ، فى أوقات فراغه خلال النهار ، يطالع المسرحيات ، مسرحيات من كل العصور ومن كل الأقطار ، مسرحيات من كل الأوصاف ، شريطة أن تهيىء له المتعة ، وما من قارىء قط وضع متعته الخاصة بإصرار أكثر منه قبل أى اعتبار آخر ؛ ونحن نعرف انطباعاته ، ولا نكاد نستطيع أن نكون على دراية بالدعامة الفعلية لأى شخص أكثر مما يتعلق بهذا العاشق المتجرد للفنون الجميلة . وقد حقق هذا الرجل أصالة ليست قليلة الشأن بإقدامه الدءوب الفريد على إمتاع نفسه وبما كان يجده من سرور فى تحليله لهذه المتعة ، وواضح أنه لو كان قد أرغم نفسه على قراءة المواعظ الشهيرة ، كما كان يفعل كثير من معاصريه ، لجعل حياته ليست أقل متعة فحسب بل وعديمة الجدوى ؛ وكان هذا الرجل يدعى تشارلس لام ؛ وحين نفحص نوع الأدب

الذى اعتاد قراءته نكتشف أنه كان أدباً دراميا رائعاً ؛ وسرعان ما يبدو أثر التقزز على وجوهنا لشدة تحاملنا ضد الكمال، هذا التحامل المترسب فينا بسبب التعليم والمعلمين .

لهذا كله قضى لام وقتاً رائعاً ، طوال حياته ، وهو يطالع روائع كتاب الدراما من القرن السادس عشر ، وهو وقت أفضل بكثير مما يستطيع الغث من المؤلفات ، الذى لم تعرقله أية عقدة نقص ، أن يهيئه لنا .

ومنذ بضع سنين سافرت من مونتريال منحدراً إلى بوسطن ، فى عربة بولمان ، ويدهشنى أن أقول إنها لم تحمل قط أكثر من ثلاثة مسافرين ، حتى وصلنا بوسطن ؛ وجلست أمامى فتاة تعمل بشركة ماك جيل — موظفة صغيرة كما استنتجت من حديثها مع فتاتين أخريين كانتا تودعانها — وفى الطرف الآخر من الممر جلس شاب من أولئك الشبان الأمريكيين الذين يبهرونك بفتنتهم وحسن منظرهم ، حتى لتميل أن تنسب النبوغ ، مع العديد من ضروب الكمال التى هى أقل شأناً ، إليهم ؛ وكان نصف الإله هذا يطالع ، فوجهت فتاة ماك جيل نظراتها إليه بعض الوقت حتى تلاقت عيونهما ، وبعد فترة من التعارف الصامت الذى انتهى ببسمة متبادلة سألته بصوت خافت : « أتطالع ؟ » فأجابها بصوت جلف يصك الأذنين : لا ، فإن ما يستهوينى هى قصة غرام وعاشق تملؤه حيل إبليس » وسلمها الكتاب وراحت الفتاة تطالعه ؛ وكان الصوت منفراً ، ومثله كان الكتاب ، ومع ذلك واصلت الفتاة القراءة ، وهى تقفز فوق السطور تارة ، وتطوى الصفحات تارة أخرى ، وبعد فترة لسعنى ضمير الأستاذ الذى فى أعماق كأنه السوط ، وفى انحناءة فوق قصة الحب والعاشق همست

قائلا : ألم تقرئى قط قصة « سوق الغرور ؟ » فتطلعت الفتاة ، وقد احمرت وجنتاها قليلا ، ثم أجابت مستفسرة : « مؤلفها ديكنز ؟ » — قلت : « لا بل تاكرى . . . . » — « أوه تاكرى ، حقاً ! لم تكن هذه القصة ضمن قائمتنا » .

وددت بجدع الأنف لو أن قصة «سوق الغرور» كانت بحقيبتى ، فأفتحها عفو الخاطر ، وألاحظ ابتهاج الفتاة بتقديم بيكى شارب لمنزل سير بت بالمدينة ولخادمته الخالدة ! .

قلت : « لم تقرئى « سوق الغرور » ؟ ، تلك القصة الممتعة العجيبة ؛ وتضيعين ساعة كاملة فى قراءة قصة « غرام وعاشق » وقد كادت أن تقضى عليك من فرط السأم والملال » .

ولا مراء أن السأم كان قد استبد بالفتاة ولكنها لم تقتنع ، فما دامت روائع الأدب تظهر ككتب « ضمن قائمتنا » فالهزيل من الكتب يصبح محط التفضيل دون شك ، فيؤثر الناس السأم بواسطته على الانفعال بواسطة الكتب العظيمة القدر .

ويعود النصيب الأكبر من التبعة فى هذا إلى الواجبات المدرسية وأوراق الامتحان وتعليقات المتزمتين من الدارسين ، ذلك لأنه حالما ينظر إلى كتاب عظيم الشأن باعتبار أنه ليس عظيما ، يسترد فوراً قيمته الأصيلة كطالعة أخاذة ؛ وواقعة أخرى بقطار أمدتنى بدليل ملموس على هذه الحقيقة ؛ فقد كنت بالقطار القائم من باريس إلى أورلينز ، وكان فى مواجهتى رجل بادى الذكاء ، ولكن

عليه سمات الريفيين ، يقوم بتصنيف بعض الأوراق ، وفى الركن إلى جانبى من عربة القطار ، كانت ابنته الصغرى ، وهى طفلة فى الثانية عشرة من عمرها متشحة بالسواد ، تطالع كتاباً صغيراً مربعاً وقد غلفه بقماش سميك أسود اللون أيضاً مجلد للكتب قليل الخبرة ؛ ولم أر قط إنساناً يطالع كما كانت تفعل ؛ فقد بدا كما لو كانت الطفلة الصغيرة الأنيقة الحسناء ، رغم كونها من الطراز العتيق ، تحاول أن تفقد نفسها فى ذلك الكتاب ؛ وبعد هنيهة لم يعد فى استطاعتى مقاومة نزعة حب الاستطلاع التى ساورتنى عن كتاب يمكن مطالعته بمثل هذا العكوف ، فقمت بحديث مفتعل قصير مع الوالد ثم التفت فجأة صوب الصبية الصغيرة وسألتها قائلا : « ماذا تطالعين بمثل هذا الابتهاج ؟ » فتطلع الوجه الصغير المتلهف وكأنما قد عاد من آفاق نائية : «سيدى ، هذا كتاب التاريخ الرومانى» وقفة قصيرة ، « وأنا على وشك الوصول إلى يوليوس قيصر ! » — « كيف تعرفين أنك قادمة على يوليوس قيصر ؟ » — «أوه ! لقد طالعت هذا الكتاب بضع مرات» .

ولم أنس قط تأكيدها لعبارة : « وأنا على وشك الوصول إلى يوليوس قيصر ! » فما من ترقب لعيد ميلاد ، أو تخرج من الجامعة ، أو أول رحلة لأوربا ، أو حفل تقديم فتاة للمجتمع عند بلوغها سن الرشد ، أنتج قط تأكيداً من هذا النوع ؛ وفى لحظة صورت لمخيلتى دعامة الوجدان الخلفية : ضيعة بسهل عاصف من حقول القمح بين قطاعات طويلة من كروم العنب ، والقاعة بمدفأتها الكبيرة ، وعلى الرف الجانبى من هذه ، تحت حوامل الأسلحة المنحدرة عن الجدود ، المكتبة الصغيرة المؤلفة من ثلاثة أو أربعة كتب قديمة للصلاة ، وكتاب فى فلاحة البساتين ، وكتاب فى الطهو ، ومرشد فى المساحة ، وكتاب

محامى الأسرة ، وقاموس لاروس ، وبضع تقاويم سنوية قديمة ، وفى الركن القصى كتاب « التاريخ الرومانى » الصغير بغلافه الأسود السميك ؛ ولوكان هذا الكتاب القمىء الغليظ موجوداً بمكتبة حديثة من القصص الخيالية أو المجلات لكان منفراً لطفلة كأنه راهب أسود متقدم فى السن ؛ فبعد مادة المساح والمحامى جاء التاريخ الرومانى ليسترد وجهه ، وأصبح يوليوس قيصر مرة أخرى البطل الخيالى الذى كأنه طوال قرون عديدة ، وبسبب سانحة بعيدة التصديق لخصت الفتاة الصغيرة فى نفسها أحلام الأميرات وأشواقهن وضروب إعجابهن ؛ فلا عجب أن بدت ذات سمات تميزها عن غيرها .

هذا ماتفعله روائع الأدب التليدة حين لايقضى عليها أولئك الذين يقومون بتدريسها خاصة حين لاتوضع مع الأدب الرخيص جنباً إلى جنب، فهذه التوافه من شأنها أن تجعل هذه الروائع تبدو كخبز أوفرن الأسمر إذا قورن بالحلوى الرخيصة ؛ ولاتستطيع هذه البضاعة الخسيسة التى تقدم إلى أطفالنا، ونحن نتطلع إليهم عاجزين ، أن تمنحهم شعور التسامى المتألق ، بل ولا المتعة التى تهيئها عادة الكتب العظيمة الشأن .

وهكذا إذا أردت أن تشتد فى القدرة على ابتداع أفكار سليمة ، وإذا أردت ألا تعرف قط أية فترة من التبلد فافعل مافعله أفاضل الجنس البشرى منذ أن ظهرت الكتب ، مهملا بإصرار كل ماليس فى الذروة منها ، وإذا تمرد فى أعماقك أى شىء ضد ذلك فمزاجك غير مهيء لمطالعة هذا الكتاب ، كما أن فن التفكير ليس من الأمور التى تستهويك ، أو أنك تريد فقط حبات عقلية مسكرة لاأستطيع إنتاجها ، وإذن فوداعاً يا صاحبى ،ولكن لنرجىء الفراق حتى تكون

قد دونت قائمة بالكتب العظيمة الشأن التى لاتخلو من الجاذبية بالنسبة لك ، وحتى تكون بضعة شهور من الخبرة قد بينت لك أى كتاب منها يغدق عليك لذة خالصة غير مشوبة ، وستؤلف هذه العشرون أو الثلاثون مجلداً مكتبتك ، أو بتعبير آخر، ينبوع تفكيرك ، بهجتك ، وحين ترى الناس يغبطونك على متعتك ، تصبح هذه الكتب مفخرة لك .

فهل معنى هذا أنه ينبغى علينا أن نتخلى عن الأدب المعاصر ، وأن نقصر حياتنا على تراث الماضى ؟ لا بالتأكيد ، فما من شىء يساعد الفكر مثل أسئلة « هنا والآن » فإذا لم تكن منسوباً لعصرك فأى عصر تنتسب إليه ؟ فمن واجبنا أن نطالع الشعراء المحدثين والروائيين المحدثين وننشد الفن فى أبعد تطوراته ، ولا بد أنه حوالى عام ١٨٤٠ وجد بين سكان لندن بعض المتشككين المتقدمين فى السن الذين رفضوا قراءة « مذكرات بكوك » لأن الكتاب كان مختلفاً عن مؤلف مستر أديسون « المشاهد » ؛ كان أولئك المتزمتون الطاعنون فى السن هم الخاسرون ، ويشبه هذا فى الحماقة أن نتجاهل الآن السيد سنكلير لويس أو السيد أرنولد بنيت ، حتى ولو استربنا أنهما ، فى مدى ثمانين عاماً ، لن يظهرا باعتبار كل منهما « ديكنز » القرن العشرين ؛ ومن ناحية أخرى إذا حاولت ملاحقة إنتاج اليوم الأدبى المصنع غصت فى الوحل وضعت ؛ فهل انعدم سبيل الاختيار؟ .

توجد عشرات الوسائل ولكن هاك أيسرها ؛ ما من أحد يستطيع أن ينسب إليك خطأ التظاهر بعدم الاكتراث بالوقت الحاضر إن أهملت كتباً تجدها قد نسيت بعد نشرها بثلاثة شهور أو بعبارة أخرى اثنى عشر

أسبوعاً قصيراً ، لاتقرأ تلك وستتعجب إذ ترى قلة عدد ما يتخلف منها بعد ذلك لقراءته ، ولا يفطن الناس إلى أن الانفعال المحموم الذى طالما ثار عند نشر كثير من الكتب ، والذى لايكاد الجمهور الساذج يقوى على مقاومته، تجارى محض ، وقد ابتدعه الناشرون صناعياً، ويتوهمون أن الكتاب يقوم بهذا كله ، ولكن الكتاب لايقوم بهذا ، ولا يستطيع الناشر أن يقوم به أكثر من أسبوع أو أسبوعين ، وحين تتكىء عشرة أسابيع أخرى بكل ثقلها على موجة الانفعال الحقيقية يكون النسيان قد طواها طياً ؛ ضع قائمة بأسماء الكتاب الأمريكيين الذين نشرت مؤلفاتهم منذ بضع سنين والتى مازالت على الأرفف التى تقتحمها العين واليدين الفينة والفينة ؛ تلك هى الكتب التى لا يصح غفران هجرها ، حتى ولو فى سبيل قراءة أرفع ، ولكنك سترى كم هى قليلة العدد ؛ وعلى الرغم من أن سوء القالة يعلو فوق مجرد النشر ، فهى لاتزال أقل من الشهرة بمراحل كثيرة ، وإذا لامك شخص لتجاهلك كتبا لم توفر الشهرة لصاحبها فهو يتكلم مسوقا بتقاريظ الناشرين وينبغى سماعه على هذا الأساس .

* * *

وينصب كل ما سبق قوله على الأدب ؛ ومن المؤكد أن الأدب ، خاصة اللون الرفيع من الشعر ، الذى ينبغى أن يكون لحمة كل قارئ مثقف وسداه، يمد المرء بما يحتاج إليه من فكر معبد إلى أقصى حد ؛ وعلى أية حال فليس الأدب هو ميداننا الوحيد ، بل إن الفلسفة والعلوم والتاريخ المعاصر وما يسمى بالعلوم الأخلاقية ، جميعها تضع فى طريقنا تفسيرات للعالم والإنسان ، منتجة للفكر بصورة باهرة ؛ والواقع أنها تؤدى بطريق سوى إلى تعميمات يظن أنها مختزلة

إلى أبسط أشكالها ؛ والحقيقة الآن أن للفلسفة والتاريخ والعلوم،مثل ماللأدب، روائعها التليدة التى لا يمكن إغفالها ، فلا يمكن أن تخلو مكتبتنا من مؤلفات لأفلاطون أو دارون ، ومع ذلك فليس من الجائز فقط بل من اللازم قسراً أن نبحث ، فى هذا المجال بنوع خاص ، عن أحدث المعلومات التى حصلت بآخر الوسائل العصرية ، ولا يهمنا تاريخ الماضى إلا فيما يلقيه من ضوء على تاريخ العهد الحاضر ، فعلينا أن نعود دائما إلى سياسة الحاضر واقتصادياته ، وأخلاق الزعماء المعاصرين وآرائهم ، وميول الأحزاب الحديثة واتجاهاتها ، ولا بد أن نكون قادرين على إبراز خريطة للعالم وقراءة الحدود ومشكلاتها كما لو كانت من كتاب مفتوح .

ويمكن أن نقول نفس الشيء عن الفلسفة،فموقفنا فى الوقت الحاضر من المشكلات الخالدة يعنى بالنسبة لنا أكثر مما تعنيه حلولها حتى فى الماضى العظيم ، فينبغى دراسة المسائل الدينية فى أحد شروحها ،ومثلها تخطيطات الإصلاحات الاجتماعية، وفوق هذا جميعه فلسفة العلوم .

فالكتب العظيمة ، والرجال العظماء ، والمسائل العظيمة ، والمبادئ العظيمة ، والحقائق العظيمة ودروسها ، كل ما يتعارض مع التفاصيل التافهة لا محيص من أن يسفر عن فكر رفيع ؛ وكلما اشتد انشغالنا اشتدت صرامتنا فيما ينبغى أن نتخيره ؛ ويظهر كثير من الغارقين فى العمل حتى آذانهم ، خاصية ثقافية نادرة تثير دهشتنا ، والسبب دون خلاف يعود جزئيا إلى أن العمل الشاق ، وحتى التعب الذى يخلفه ، يحملان فى طياتهما ضربا من النبل ، ولكنه يعود أيضاً إلى عدم وجود مكان للمشاغل العقلية غير الرفيعة بحياة مثل هؤلاء الناس.

وينبغى على الأدباء الذين يصبون لمنح أبنائهم زبدة كل شىء ولبابه أن يحزموا بعزم مكين توافه المؤلفات من كل الأصناف ويقذفوا بها بعيداً عن متناول أيديهم كما لو كانت السم الزعاف ، ومثار العجب أن الأذكياء من الناس الراغبين فى القيام بما يسعه الجهد فى هذا السبيل لا يفطنون إلى أنه لا ينبغى ترك أى كتاب فى متناول أيدى الصغار ، يقل فى مرتبته عن « روبنصن كروزو » أو « ألف ليلة وليلة » أو «قصص عرائس الخيال» لمؤلفها برو « Perrault » أفلا تريد لصغارك سرفا فى سرعة الإدراك ؟ أفلا تريد تنشئتهم على مثال نساء القرن الثامن عشر الصغيرات الراشدات وهن فى الثانية عشرة من عمرهن ؟ افتح النافذة ؛ وأنصت لحظة واحدة لأحاديث الشباب فوق العشب فى عطلة هذا الأسبوع ، ومن ثمة يأتيك الخبر اليقين ؛ سيغمرك السرور إن استطعت أن تعلمهم إيثار دماثة الطبع على العجرفة الفظة حين يرونها ؛ ويخبرنا يوسف دى ميستر أن أمه اعتادت أن تتلو عليه أشعار راسين حين كان طفلا صغيراً وأن « أذنيه ، وقد ارتشفت مبكراً من مثل هذا الرحيق الإلهى عافت دائما بعد ذلك كل شراب مر المذاق » . . .

نتيجة نادرة باهرة !

(د) كيف تقرأ لتفكر :

إن عنوان هذا الفصل كان حريا ألا يفهمه أحد القدامى بل ولا رجل من عصر النهضة ذلك لأن القراءة ، بالنسبة لهما ، كانت تعنى التفكير ؛ ولذلك فلزام على أن أؤكد مرة أخرى أن فكرة وعادة المطالعة كما ننصت، ونحن شاردو الذهن ، لخرير نهير صغير يهدهد السامع للنوم، تتعلق بعهد من التخلف العقلى ؛

والنتيجة أنه يلزم إزالتهما من دعامة الوجدان الخلقية لأى شخص راغب فى التفكير ، ولقد هممت أكثر من مرة لأن أضيف كلمة شوبنهور المأثورة التى وردت بمؤلفه « الأسفار الخمسة » : « لا تقرأ . . فكر ! » أو أن أعدلها على هذه الصورة : « لا تفكر أبداً . . . ادرس دائماً » قول جاف! لا، ليس جافاً مادمنا ندرك أنه ينبغى أن ندرس مالا يوفر لنا المتعة ؛ وأن الدراسة تنصب فقط على أبهج وسيلة نستخلص بها من الكتب مايضفى علينا أعظم متعة ، بنفس الطريقة التى يدرس بها فنان وجها جميلا بدلا من مجرد التحديق فيه، ولانستطيع قط أن نكرر القول مراراً كافية بأنه ما من شىء عقلى يمكن تحقيقه ضد إرادة « منيرفا »[1] ، أو بتعبير آخر فى ميدان لايجتذبنا إليه ؛ والعمل فى عروقنا ، دون إحساس بالجهد ، بل على العكس بإحساس من الراحة والحرية هو الشرط الأساسى لعملية عقلية صحيحة ، فلا تشتغل بعلم الجبر حين تكون الملهاة مستحوذة على لبك ، وإذا كانت القصة الهزلية تستهوى لبك أكثر من الملهاة فاترك الثانية وادرس الأولى ، فقط « أدرسها » ولن يمر وقت طويل على عملك هذا قبل أن تستكشف وجود لذة أوفر وأعمق فى دراسة قصة « عدو الناس » الهزلية Le Misanthrope أكثر مما فى تأدية ملهاة سكابا « Scapin » .

وإذ سبق هذا كمبدأ فكيف ينبغى أن نطالع ؟ كما تهوى، فإذا كنت تضفى المتعة على نفسك بالمطالعة السريعة ، فأسرع فى مطالعتك ، وإذا كنت تطالع ببطء ولا تشعر بميل للإسراع فى مطالعتك ، فالتزم البطء فى مطالعتك ؛ ويقول بسكال إننا حريون بالإسراع الشديد أو الإبطاء الشديد فى المطالعة ، ولكنه

(١) منيرفا إلهة الحكمة والفنون عند الرومانيين القدماء .

يوجه اللوم فقط للإسراف فيها (من الحماقة قراءة غير الجاد بسرعة بالغة ، أما الجاد فهو الكاسب فى حالات كثيرة إذا قرأ بنشاط وحيوية) ويشكومونتانى من الأسلوب الشكلى فى المطالعة فيقول : « يداعب الكرى أفكارى حين تعطى مقعداً للجلوس ولذلك فهى تسير وأنا أسير » ويكتفى العمل الأمين بالسير قدماً ، أما حب الاستطلاع فيطير بأجنحة عطارد ، والمطالعة العاطفية الحارة لا تطير فحسب ، إنها تحلق ، ولكنها تفعل هذا فقط لأنها تستطيع الاختيار ، وهذه مأثرة عقلية رفيعة ؛ كيف تقرأ جدول مواعيد القطارات ؟ تطفر من فوقه طفراً حتى تصل إلى ضالتك ثم تغفل العالم برمته وتنكب على قطارك : قيامه ووصوله وما بينهما، ويحدث نفس الشىء حين يعير سائق سيارة خريطة محلية لراكب دراجة يقف حائراً عند ملتقى للطرق ، فالأخير يسكب نفسه فى قراءتها ؛ وهذا مايحدث أيضاً مع هبة مالية فى خطاب ينتظر صديق منك أن ترده ، وهو بالذات مايحدث مع أية وصفة لإنتاج حجر الفلاسفة[1] وكل ما نطالعه مما يثير حواس حب الاستطلاع الشديد يقدم لنا نموذجا لما ينبغى أن نطالعه دائما ؛ وشق الطريق فى مثابرة بين السطور ، صفحة إثر صفحة ، مع توجيه قدر متساو من الانتباه لكل كلمة ، يسفر عن الاهتمام بمجرد الألفاظ ، والاهتمام بالألفاظ لا ينتج فكراً على الإطلاق ، ولكنه ينتهى قطعاً إلى ضروب من الشرود الذهنى، ولذلك يذهب أى مجهود جليل القدر هباء مع الريح بتزمته الوجدانى الأخرق .

وقد بدا لى دائماً أحد أصدقائى ، وهو كاتب فرنسى ذائع الصيت يعالج

---

(١) حجر الفلاسفة هو الاسم الذى أطلقه الأقدمون على المادة التى توهموا أنها تحول المعادن الرخيصة إلى ذهب .

الموضوعات الجادة كل الجد، نموذجاً للقارئ النشيط، فهو يكتب مؤلفاته لنفسه ويعدها لمتعته الخاصة ، وإذا اشتم أى خطر لسأم أو ملال راح يدرس الموضوعات المريبة ، عن بعد شاسع كما يلاحظ ربان بحر جبلا من الجليد ، وينبه إليه فى عجلة واستنفار ؛ وعلى النقيض إذا استهواه موضوع أو فكرة موضوع ، اقترب إليه فى رفق ، وأجرى معه حواراً رائعاً ، لا معك ، فأنت وأنا لا يؤبه لنا كثيراً ، ونحن ناج المكتبة حيث يهرول المؤلف من مكتبه إلى الأرفف ذهاباً وإياباً ، ونتسقط السمع للملاحظات الفكهة أو المليئة بالإعجاب أو النافدة الصبر التى يتفوه بها ، كلما أقحم كتاب إثر كتاب ، فى خدمة الفكر المستحبة آنذاك. ولكن كل ما نحصل عليه، بصرف النظر عن المتعة المنعكسة، هو نظرة عابرة يلقيها المؤلف حين يرد على خاطره ذكر وجودنا غير الضرورى ، فهو كاتب يشرح الصدر حقاً، ولكنه أيضاً قارئ نموذجى، لا يطالع ببطء أبدا ، ولا يطالع بتبلد أبداً ولا يطالع والنعاس يغالبه ، وهو ، مثل مونتانى منتصب ، طوال الوقت ، على ساقيه، متأهب للفرار من الكتاب ، كما نفر من شخص ثقيل الظل، حالما تبطل جاذبية الكتاب، وإن ثمة هوة تقع بين تلك الطريقة فى المطالعة وما انسقنا لفهمها على أنها الطريقة الجادة ، أو على حد تسمية دى بيلى لها « حفظ المقعد دافئاً » .

وهل تصلح هذه الطريقة لكل صنوف الكتب ؟ وهل يصح أن نطالع إنتاج شاعر كما نطالع « دليل العظماء » أحياناً ؛ وقد طالع تشندروف العهد الجديد من الكتاب المقدس مرة بهذه الطريقة ، بينما راح أسقفان من الكنيسة الكاثوليكية يحاولان صرفه عن المخطوط بمسامرة ممتعة باللغة الإيطالية ؛ ولكن الواضح أنه لا يتيسر تحقيق هذا فى معظم الأحيان ؛ فالشعر ، كالكة ، تفتتح

السباق ونحن نعدو وفق مشيئتها ؛ وهكذا أيضاً أسلوب الحكمة المتحذلق فى أية لغة ؛ وواضح أنه لزام علينا أن نضع حداً بين ما نطالعه لمعلوماتنا وما نطالعه لتكويننا، وبين مانحتاج إليه لفائدتنا وما نحتاج إليه لنمونا؛ وليس من المأمول قط مطالعة التاريخ سواء كان تاريخ السياسة أو الفن أو الأدب أو الفلسفة أو الأديان أو العلوم، حقائق ونتائج الحقائق، سواء كان الأفضل تلخيصها بموسوعات علمية أو اختزالها بسهولة فى كتب للإرشاد ، أجل ليس من المأمول قط مطالعة كل هذا بطريقة أفضل مما يطالع بها عاشق الألقاب ما هو مدون بدليل العظماء عن دوقة أو ممثلة ؛ فالعقل مستغرق تماماً فى مادة المطالعة ، محاولا استيعابها فى لحظات ، دون مبالاة بالكتاب أو بالمؤلف ؛ وكتب المعلومات ، حتى كتب التاريخ لجيبون أو ماكولى جديرة باحترامنا ، ولكنها أدوات وينبغى أن نتعامل على هذا الأساس ، وإذا احتجنا فقط لقراءة عشرين صفحة فلا نظن أننا ذوو ضمير حى ، بل بالأحرى سابيون فحسب إذا طالعنا ثلاثين ؛ وإذا طالعنا فقط لتنشيط ذاكرتنا بخصوص موضوع بإلقاء نظرة عابرة على فصل تمت لنا إجادته من قبل فلنتجنب ضياع الوقت بإعادة قراءة كل لفظ منه ، أو فلنستعض عنه بمذكراتنا إن أمكن ، ونحن نوصى الأولاد أن يهتموا بكتابهم ويستوعبوه ، وينبغى أن ننصحهم أيضاً أن يفكروا ولا يقرءوا ، أو أن يقرءوا بعين مغلقة والأخرى نصف مفتوحة فقط ، وبذلك يقرءون فى ذاكرتهم بينما يعمل الكتاب كحافز فحسب ؛ ولماذا تطالع صفحة كاملة فى حين أن سطرين منها يقدمان لك فكرة كاملة عنها ؟ .

بل إنه لمن الممكن قراءة الكثير من الكتب بمجرد الاطلاع على فهرست محتوياتها ، فمن المؤكد أن العنوان يعطيك فكرة عامة عن موضوعها ،

وإذن سل نفسك كيف تقدم على معالجتها وما اللون الرئيسى لنقاشك ؟ ، وعد إلى فهرست المحتويات ، فإن لم يكن إحدى تلك المهازل التى تقول : « الفصل العاشر · أمرسون · · · · الفصل الحادى عشر : نيتشة » والتى من شأنها أن تجلل الناشرين والمؤلفين بالخزى والعار ، فمطالعة عاجلة وممتعة للسبع أو ثمانى صفحات ستنبئك فوراً ما تستطيع أن ترقبه من الوافد الجديد ، حيث ينبغى أن تبحث عن المعلومات التى عليه أن يسوقها ، وحين تثق من اختلافك معه فى الرأى ، والمطالعة على هذا النهج لا تؤدى بك إلى النعاس ، ولا تترك فى ذهنك ظلالا أو أفكاراً يسرك التخلص منها ، ولكنها تضفى عليك صحوا ويقظة حتى لكأن الكتاب أحد المؤلفين الأحياء ، وهذا ما ينبغى ، قدر المستطاع ، أن يكون .

وصناعة الكتب غير متقنة ، فإذا تلهف مؤلفوها لأن يكونوا نافعين ، أنموا بعض الخيال فى محاولة خدمة القارئ بدلا من الخروج إليه فى بهاء وخيلاء ، وكثيرا ما يدركون فى وضوح تام أن الإحصاء أو الشكل التخطيطى الذى يستخدمونه بأنفسهم من شأنه أن يتجاوب مع القارئ رأساً أكثر مما يصدر عنهم من صفحة إثر صفحة ، ولكن ما لديهم من الاستقلال أو الاستعداد للخدمة لا يكفى لأن يجعلهم يقدمون لنا أيا من الإحصاء أو التخطيط عارياً ، وكان بيجوى يعتبر غريب الأطوار لأنه استخدم مبتكرات مطبعية ليجعل معناه أكثر وضوحاً ، وإلى عهد قريب كان استخدام الشولة فى الترقيم للدلالة على نهاية فقرة تعتبر تجديداً حتى ولو كان وضعها له مغزاه ، ولا يشجع الناشرون الفهرست الوافى إذ يعتبرونه ضاراً بالكتاب ومسرفاً فى معاونة القارئ . إن الفكرة العامة عن الكتاب ينبغى أن يشملها التعديل .

وفى كثير من الحالات يتيسر لك أن تحصل من تحليل سكرتير أو صديق للكتاب أكثر مما تحصل عليه من قراءته مباشرة ، لأنك ستروح تستفسر عن العمل العقلى الجاد وسيكون الرجل الآخر يقظاً ، وكثيراً ما يثير دهشتنا أولئك القوم المزدحمون بالعمل ، الذين يلجئون لهذه الطريقة العاجلة ، بالقدر الذى لديهم من المعرفة،وكان الملك إدوارد السابع،على الرغم من أنه لم يقرأ شيئاً قط ، مطلعاً على أحدث المعلومات عن نوعين أو ثلاثة من الأدب ، فقد كان ، فى أثناء الحلاقة أو ارتداء الملابس أو التدخين ، يوجه أسئلة لأشخاص أذكياء أو يأمر بأن تتلى عليه مجالات نافعة مركزة ، وهذا طريق ملكى حقاً للمعرفة ؛ ويشير لا برويير إلى هذا الطريق بقوله : « إن أبناء الملوك يعرفون كل شىء دون أن يكونوا قد تعلموا أى شىء » فالتعليم الشفوى هـو أعظم ضروب التعليم إنسانية ونفعاً ، والمسمى فى أمريكا خلق «تعليم جماعى» أو العادة النامية لوضع طلاب على اتصال دون كلفة بالمفكرين هو اتجاه سليم ، وأحيانا يتعجب الناس للنتائج التى يحصل عليها من يسمونهم « مجرد جماعيين » ، وتعود تلك النتائج إلى تفوق الوسائل التى تجعل عقل الطالب أوفر نشاطاً مما كانت فى أى يوم مضى ، ولعل طالبين « يختبر » أحدهما الآخر ، مضيقا عليه الخناق ، فى الأسبوع السابق للامتحان ، يعرفان لأول مرة فى حياتهما معنى اليقظة العقلية، وإذا استخدمت وسائل الجماعيين فى المدارس النظامية فلن يكون ثمة حاجة لمؤسسات للتجميع .

وينبغى على الشخص الذى يتعلم وفق هذه الأساليب أن يعرف ، وهو فى سن العشرين، الأسس التى تقوم عليها معرفة الموسوعات المعاصرة ، وينبغى أن يكون قد أعطى نفسه أو اشترى لنفسه من إخصائى ذاكرة جيدة قدر المستطاع،

وينبغى أيضاً أن يكون قد نمى فى نفسه عادة تدوين مذكرات بدونها يصبح الناس، وهم يطالعون كما يقول سانت بيف: كأنهم يأكلون ثمار الكريز، وإذا شاعت هذه الطريقة فى تناول الكتب، كما لا بد أن يحدث يوماً ما، لتوقف النوع البشرى عن أن يكون مؤلفا من أغلبية عظمى من الأصاغر .

وتؤدى هذه الطريقة الحاسمة بل العدائية فى استكناه كتاب بمساءلته « ماذا لديك لتفصح عنه ؟ » إلى الوصول إلى المعلومات بطريقة منعشة ولكن التكوين أو الثقافة لا يمكن الوصول إليهما بنفس الوسائل المتعالية فهما يحتاجان لمزيد من الوقت ، ومزيد من الحب ، ومزجهما بعنصرى النقد الأدبى والتواضع الذى يتم اكتشافه عن طريق الخبرة أكثر من وصفه بالألفاظ .

والكتاب الذين يعالجون الروح فى أكثر عملياتها هدوءاً وخفاء ، والشعراء والروائيون والأخلاقيون وعلماء النفس ، والمؤلفون الدينيون أو الروحيون جميعهم يخلقون حول أنفسهم نطاقاً من التوقير سرعان ما نفطن إليه ، وسرعان ما ينبهنا نطق وتنسيق أول عبارة يتفوهون بها إلى أنه لا يمكن استخدام طريقة القصف والعسف هنا ، ثم يتحتم أن يحل الفهم المدرك مكان الذكاء المجرد ، وهذا يعنى التعاطف والتبجيل وعدم العجلة ؛ وقد يعرف دارس لتاريخ القرون الوسطى كل ما يمكن معرفته عن طائفة رهبان غابة سيتو الفرنسية والتراتيل الدينية القديمة ، ومع ذلك فهو يرفع حاجبيه حين يسمع شخصاً أقل معرفة وعلما يقول إن بعض الألحان المقدسة للعذراء المباركة أو إن النور الخفى العجيب تحت قبو يصل مقصورتين غير متسقتين يجعله يتفهم حياة الرهبان الروحية فى القرن الثانى عشر ؛ ذلك لأن إدراك واقعة تصاغ على هذا النحو تحتاج إلى العديد من الخبرات الموسيقية والمعمارية بالإضافة إلى إحساس بالجمال الروحى .

ومن جانب آخر فإن الألفاظ التى تصاغ بها قد تلج عقلا حيث تستقر به ، ثم تروح تشكله وتمطه حتى يتم إدراكها ؛ فإيقاع، أو صورة ذهنية ، أو فكرة مصاغة فى كلمات قليلة على هذا النحو ، قد تكفى لتأمل . لعل أحداث الحياة تدعه معلقا ولكنها لا تقاطعه ؛ ولم أنس قط ، ومن المؤكد أنى لم أبل قشيبه ، بيتاً من موال سمعت مرة بضع أطفال فقراء ينشدونه المرة تلو المرة خارج نافذتى :

ستباركنا المحبة يوما ما .

وكانت أصوات هؤلاء الأطفال متهاونة ساخرة مثل الحياة ذاتها ، ومع ذلك فثمة خلجة رفق كانت تسبح ببعض مقاطع النشيد فلا تكاد تلج الأذن حتى تستقر فى أغوار الروح ، ولا مشاحة أن هناك فارقا كبيراً بين اللغة البشرية التى تنقل المعلومات المجردة وبين الشعر الذى من هذا الصنف ، وكيما يتم فهم الشعر لابد من إعادة التفكير فيه ومن الشعور به مرة أخرى ، وهذا لايتيسر لأى عقل أن يفعله دون أن نضيف شيئاً من ذواتنا إلى ماتمعن التفكير فيه ؛ وحين يتحدث الفنيون عن « النقد الخلاق » فإنهم يعنون هذه الإعادة لتكوين فكر عظيم ؛ ويصل النقد الخلاق إلى منزلة أرفع أنواع الأدب وأرفع أنواع الفكر وهما ما سندرسهما فى الباب الرابع .

(هـ) الادراك والمطالعة النافذة :

إن علينا حين نطالع أى شىء أن نتفهمه أولا وبعد ذلك ننقده .

والفهم هو أول خطوة أساسية فى المطالعة ، ولكن أغلبية عظمى من القراء لايهتمون باتخاذها ، فهم يفهمون أو يظنون أنهم يفهمون ماهو واضح ، وما بقى

يعتبرونه خطأ من الـكاتب أو مسخاً ؛ ومرة اختبرت عدداً من القراء فى فقرة وردت بمقال للسيدة براوتنج تصف فيه الفلسفة بأنها «تعاطف مع الله» ، وقد بدا أن واحداً فقط منهم هو الذى فـكر أن بهذه العبارة شيئاً يسترعى الانتباه ، أما الآخرون فـكان واضحاً أن جرس العبارة قد جذب انتباههم أو أن معناها السطحى قد خلب لبهم ؛ ولما طلب إليهم أن يركزوا انتباههم على عبارة « تعاطف مع الله » قال معظمهم إنها غير مألوفة ولـكنها مفهومة تماماً ، ولـكن حينما سئلوا عن معنى هذه الـكلمات المفهومة لم يجدوا مناصا من الاعتراف بأنهم لا يستطيعون ، ورغب اثنان أو ثلاثة فقط أن يسمعوا ، ولم يتجاسر أى منهم على أن يتكهن بالمعنى أو يحاول استكشافه ؛ وكانوا فى موقفهم كالشخص غير المتعلم الذى يذهب إلى أن الناس إذا استعملوا أية لغة عدا لغة الحـديث المألوفة فعليهم ألا ينتظروا من أحد أن يفهمهم .

إن ثمة هوة من الفرق بين قوم يريدون شعراً ميسور الفهم كصحيفة الصباح، وبين آخرين يملـكون ناصية الثقافة أو يبحثون عنها، وكثيراً ما يصرف الدارسون أعواما منكبين على أثر مسترد لـكاتب ضاع إنتاجه ، ويطالعون فى ثناياه أو يستنبطون منه أعظم المعلومات متعة ، ولقد رأيت أنجلييه يرفض بعد ساعة من الجهد أن يتخلى عن مقطوعة غامضة لهربرت وينجح فى جعلها تظهر محملة بالمعنى ولـكنها واضحة للأذهان المعتادة على لغة الفلسفة والشعر الفنية ، ولا شك أن عادة أساتذة اللغة الفرنسية فى تـكريس ساعتين كاملتين لدراسة عشرين سطراً من إنتاج الفيلـوف سنيكا تدريب عقلى من الطراز الأول ؛ والزائرون الأجانب الذين تغمرهم الدهشة فى مبدأ الأمر ، لهـذه الطريقة ، يقدرونها فى النهاية ، والأولاد والبنات الذين يضطرون لاستخدامها لا يطول بهم

العهد حتى يعرفوا حسناتها ؛ وإذا كنت تعرف لغتين فاختبر نفسك فى ترجمة فنية مرهفة المعنى حقا ، ولو كانت مكونة من أربعة سطور يوميا ، وستكون عادة الإدراك التام خير جزاء لك .

قد تقول إن هذا مفرط فى البطء والصعوبة معا ، ولكن ألسنا نسعى للتفكير ؟ .

والنقد الأدبى إن هو إلا مظهر آخر للسعى صوب التفهم والإدراك ؛ والكلمة ، فى معناها الأصلى ، تعنى « المحاكمة » والواقع أننا ننظر إلى الناقد الفنى كقاض كفء لايتلمس الأخطاء ؛ وأن القدرة على مقاومة التأكيدات المطبوعة أو المسموعة ، كى يحتفظ المرء برأيه الخاص عن فكرة أو قصيدة أو نظرية أو إنتاج فنى ، وأن يراه بوضوح يكفى للتعبير عنه فى قوة ومضاء ، أجل إن هذه القدرة لهى من الأمور غير المألوفة ؛ فمعظم الناس يحبسون رأيهم حتى يصرح شخص آخر برأيه الخاص ، وعندئذ يكررونه ، وتشير الأحاديث العامة إلى هذا الضعف بالعبارة التى كثيراً ما نسمعها : « لايرى الناس هذا » فهذه الكلمات الأربع تصف الجبن أو التبلد العقلى الذى يجعل معظم الناس نعاجا ، وليس فى الإمكان أن نبالغ فى التبكير بصد هـذه السلبية ، أما إذا تم الأمر بانتظام وحصافة فلن يسفر قط عن إغراق فى الثقة ، ولكن العقل الشاب فقط سيحرز قوة خلال فترة التكوين البالغة الأهمية .

وينبغى أن يضفى المعلمون أعظم قيمة على التمرين المدرسى الذى يطلق عليه اسم التحليل الأدبى ، فيوضع التلميذ وجهاً لوجه مع قطعة أدبية تستحق الجهد ويفحص تركيبها ؛ وهذا يعنى مطالعتها المرة تلو المرة ، ليفهم الفكرة الأساسية

التى تمخضت عنها ، وملاحظة صمود هذه الفكرة خلال تطورها ، وحين يفعل ولد أو بنت هذا لأول مرة دون أى تكليف سابق من المدرسة ويدرك أن قدراً معتدلا من الانتباه يكفى لتحقيقه يصبح راشداً على الفور ، وكثيرون يتذكرون بعد ذلك دائماً النشوة العجيبة لهذا النمو غير المرتقب ، ويستطيع التاريخ، وتقويم عهد عظيم أو رجل ذائع الصيت، وتقدم الشعوب أو انحسارها، تهيئة فرصة للمدرس أفضل من الأدب ، الأكثر بعداً عن اختبارات الطالب المبكرة عن الحياة ، ويعادل هذا فى نفعه اختبار قول حكيم مأثور أو رأى يظن بوجه عام أنه سليم .

ولزام على الطالب أن يحرز عادة عدم تقبل أى شىء على أنه صحيح أو جميل، بل أن يعتبر كل شىء « مشكلة » ، ويرى ديكارت وشوبنهور أن هذه العادة هى النظرة الفلسفية الأساسية ؛ وينصحنا السيد شسترتون أيضاً أن نتطلع إلى الأشياء المألوفة حتى تبدو غريبة ، أو بتعبير آخر ، حتى نراها فعلا ، بدلا من الإيحاء إلينا بطريقة رؤيتها ، ولعله يذكر خبرة لم يصادفها قلة من الناس ، فقد نكون بالقطار أو فى سيارة ، والمنظر الطبيعى ، خاصة فى ضوء القمر ، غير مألوف ونلاحظ مزاياه بمتعة الشىء الجديد ، وفجأة يبرز شىء يجعلنا ندرك أننا كنا مخطئين ، وأن ما نراه مألوف لنا تماماً ، وأننا كنا مخدوعين فقط بفكرة أننا فى مكان آخر ، وسرعان ما تتقلص الهضاب والأشجار والجواسق وتتضاءل أحجامها فنتطلع إليها بازدراء العادة ، وتتشوه نظرتنا الشاملة نحو الحياة والفكر ، على هذه الصورة ، حتى نكرس وقتاً وطاقة يكفيان لإعادة اختبار الأشياء كما هى .

وينبغى أن نعطى أنفسنا عادة الانتباه الناقد حتى يهيئ لنا أول احتكاك لنا بأى شىء يستحق الجهد طابعا يقظاً على قدر ما تتيحه لنا مقدرتنا ؛ ألا تذكر سماعك اسم كاتب أجنبى ، جوركى مثلا ، يذكره أصدقاء لك ، قبل أن تتاح لك فرصة قراءة أى إنتاج له بوقت طويل ؟ وتبعاً لهذا زادت رغبتك حدة وتيقظاً ؛ وفى يوم ما ، وقعت بعجلة ، على فذلكة من يومية الكاتب فى عشرين صفحة عن عودة الربيع ، مع قصة رائعة عن موت طفل ، وزيارة أسقف مسيحى طاعن فى السن ، وكانت كل عبارة وكل كلمة تنفذ إلى أعماقك لشدة رغبتك فى استخلاص أكثر ما يمكن من هذه الصفحات العشرين القصيرة ، وقد فاض على الفصل بأكمله سحر خفى كسحر الموسيقى أو لعله سحر الأريج العطر ، وظللت فترة طويلة ترفض أن تطالع أى شىء آخر من نتاج جوركى ، خشية أن تلاشى أثر الرقية ، ولرعاية هذا الفصل كأنه الطلسم ، مدركا أن القوم الذين قرءوا كل كتاب عن جوركى لم يمتلكوا ناصيته كما فعلت .

والنقد ، حين نقرأ ونفكر أو نشعر على ذلك النحو ، هو قطعاً ما ينبغى دائماً أن يكون ، أعنى الموازنة بين ما يجب أن ننحنى له وما يساورنا الشك فيه ، ونحن لا نهون من شأن كبار الكتاب أو كبار المفكرين بإخضاعهم لهذا الاختبار ، بل النقيض من ذلك ، ألم تشاهد قط مصوراً ، رجل فن أصيل ، يرقب فى معرض للصور روائع فنه ؟ ياللفارق الكبير بينه وبين الجمهور المتدفق كالسيل ، الذى يدفعه بالمناكب ! لا شىء يفوت عينيه وهو يدرس فى الصور أدق التفاصيل ، وقد تجلت فيهما صلابة المصورين المألوفة ، ولكن الفنان يغلق عينيه على حين بغتة ، فتدرك أنه قد راح يتخيل الصورة المثلى ، ولا تخش أن تدع طالباً تعود قراءة شكسبير يحجم عن أن يدعو

راسين (الذى استهل كتابة مسرحياته بالنثر) شاعراً ، إذا كان مزيد من الفحص يجعله يدرك كمال الروائى الفرنسى كمصور للعواطف .

إن التفهم الواعى نقد ، والنقد أو الحكم مجرد مرادف للفكر .

(و) كيف تطالع الصحف ؟

يعامل بعض الناس الصحيفة باحترام سخيف ، فيطالعونها فى عكوف كما لو كان كل مقطع منها ذا أهمية ، ويتحدث آخرون عنها باحتقار قائلين : « ليس ثمة شىء قط بالصحيفة : إنك تبدد الوقت هباء بمطالعتها » ولفيف آخر — قليل العدد — يتسلح أفراده بقلم أحمر ومقص صغير ، ويجلس بجانب كومة من الصحف يعاملونها دون توقير على الإطلاق ، إذ يلقون بنصف صفحاتها جانباً ، بينما يجوسون خلال الباقى منها باشتياق ولكن دون تلكؤ أو إبطاء ، وبين الحين والآخر يشق القلم الأحمر طريقة بين الأعمدة والصفحات ، وفى أقل من ساعة تكون الصحف السبع أو الثمانى قد شملتها نظرة فاحصة ، والصفحات التى جرى فيها القلم الأحمر تغطى وحدها المنضدة والأريكة والبيان ، ثم يقوم المقص الكبير بدوره ، وفى دقائق قليلة ، ترتفع القصاصات فى كومة وحدها ، حيث يتم ترتيبها فى أناقة ، ثم تركل مخلفات الصفحات المهملة جانباً حتى تستطيع الخادم التصرف فيها ، بعد ذلك نشاهد القارئ متغلغلا فى أغوار قصاصاته وهو يفكر ، وما من شىء يستطيع أن يبدو أكثر اختلافا عن تعبير قارئ الصحف العادى من هذا الجبين الغارق فى التفكير ، وبعد لحظات تختفى القصاصات بوضعها بعناية فى ملفات مختلفة .

وقد تشاهد نفس الرجل مرة أخرى فى وقت متأخر من النهار ، مستغرقا فى تفكير عميق، بينما يمتلىء ذهنه بالأشياء التى قرأها فى الصباح ، وقد تلاقيه ثانية فى المساء ، وحوله حلقة من المستمعين ينصتون له فى متعة واهتمام ولكن فى صمت ، فهو متحدث متمكن واضح العبارة بعيد عن التكلف ، وبين الفينة والفينة يوجه إليه أحد المستمعين سؤالا من تلك الأسئلة التى تجعل كل شخص يتمنى لو أنه اسطاع الإجابة عليها ، وهو يفعل هذا بطريقة واضحة مقدماً، وقائع تذكر أن بصرك قد وقع عليها فى صحيفة الصباح، ولكنك توهمت أنها ليست مهمة فى حين أنها ، على شفتيه ، تقدم لك مفتاحا لتطورات غاية فى الأهمية ، فتغمغم بينك وبين نفسك قائلا : « هذا الرجل يفكر » .

ماذا يساعده على التفكير ؟ يساعده على ذلك أخذه للصحيفةاليومية ببساطة لما هى له أصل : صفحة تاريخ ، فابحث عن التاريخ فى تلك الصفحات المكتوبة دون إتقان ، تساورك أفكار التاريخ، أما إذا بحثت عن أنباء المجتمع أو العمل أو الرياضة فستتحدث بلغة مائدة الشاى أو السوق المالية أو حلبة الرياضة ولكنك لن تفكر .

«فهمت ، أنك تنصحنا أن نعامل صحيفة الأنباء كما لو كانت كتابا مدرسياً . »

« بالضبط ، قلة من الكتب المدرسية تستطيع أن تلخص العديد من الأحداث ذات الأهمية العالمية الفسيحة كتلك التى أصبحت منذ عام ١٩١٤ تملأ الصحف يوما بعد يوم ، فلم تمر قط من الأحداث السياسية ذات الطبيعة الدرامية كتلك التى نتتبعها الآن ، فبعد أن أخذت أوربا تستعيد ببطء توازنها ، راحت آسيا تقدم لنا درساً يستلفت أنظار الجميع ، وفى غضون ذلك أحدث

أمريكا ، وقد أرغمتها ضرورات من جميع الأنواع ، تنساق ببطء نحو المقدمة ، التى ظلت مدة طويلة تنفر منها ، وقد احتاج الأمر ، فى عهود أخرى ، إلى أجيال ، لإحداث التغييرات التى نستطيع أن نشاهدها فى عام ، ولا جدال فى أن أية صحيفة يومية أوفر مادة من أى كتاب مرشد ، ولا مشاحه أن أولئك القوم الذين يلقون النظر عليها يومياً دون أن يدركوا أنه لو اعتمد نوع تفكيرنا على ماتثيره الصور الذهنية التى تختزنها لتهيأت فرصة لا نظير لها ، عميان ولكن من المؤكد أن معظم الناس عميان ، ذلك لأن من يسمون بالعقلاء أو الحمقى يتفقون فى التحدث بازدراء عما يطالعونه جميعهم دون حصافة أو ذكاء. »

وقد كان القسمان السابقان محاولة لوصف : —

١ — إعداد حياتنا وعقولنا لنوع أسمى من الصور الذهنية .

٢ — اختزان تلك الصور الذهنية . ـ ونصل الآن إلى :

٣ — العمل التفصيلى لهذه السجايا المكتسبة فى العقل .

الفصل التاسع

تنمية البيانات فى العقل

(١) فحص معرفتنا :

ذكر لى مرة ابن كازا Cazin المصور الفرنسى الشهير ، وكان هو نفسه فنانا ملحوظا ، أن والده كان يخرج به فى جولات مهنية داخل الريف ، وكان الرجلان يقفان ، بين الفينة والفينة ، دقائق قليلة ، وأحيانًا دقيقة واحدة ، ثم يروحان ، بعد أن يديرا ظهريهما للمنظر الطبيعى ، يختبران ما وعته ذاكرة كل منهما من القيم خلال هذه الفترة القصيرة ، وكانت مقدرة أكبر الرجلين سنًا على الاستيعاب والتذكر خارقة للعادة ، وكان يستطيع أحيانا أن يبرهن بعد شهور أن أنصاف الظلال والألوان الخفيفة المتداخلة ، التى لا تميزها الرؤية العادية ، لا تزال واضحة فى ذاكرته ، وقد اكتسب كازا هـذه الخبرة من ليكوك دى بواسبودرا ، وقد علمها لكثيرين غيره من رجال الفن بينهم ومن رودا.

ونستطيع أن نفعل بالقرائن المتسقة العادية ما يفعله المصـــورون بالقيم اللونية ، ويضاعف الاختبار ، أو فكرة الاختبار ، طاقتنا الفكرية عشر

مرات ، ويروى مرونشيلى فى تذييله لكتاب « معتقلى » لمؤلفه سلفيو بليكو ،
كيف استطاع مع بليكو ، وقد حرما من الكتب والأقلام والورق خلال
الشهور الأولى من أسرهما أن يوفرا الغذاء لعقليهما ، وكانا يراجعان ، أحياناً
فرادى وأحياناً جماعة ، ما يذكرانه ، يوماً فى التاريخ ، ويوما فى الأدب ،
ويوماً ثالثا فى الفلسفة ، وبإضافة ما عند أحدهما إلى ما عند الآخر كان مثار
الدهشة أنهما استطاعا أن يتذكرا أكثر جداً مما كانا يظنان ، وبالتدريج
انتظمت معرفتهما وأصبحت معدة مهيأة بعد أن كانت فوضى معدومة النفع ،
وفى الوقت ذاته ازداد عقلاهما حرية وانطلاقا ، حتى لقد استطاعا ، دون قلم
وحبر أن يقرضا أشعاراً طويلة ، عاش بعضها معتزلا بارزاً فى ذهنيهما حتى
نعما بالحرية أخيراً ، ويسهل أن تستنبط من كلمات فرونشيلى أن الرجلين ، وقد
ألقى بهما القهقرى فى خضم الوسائل البدائية ، وقد ساعدتهما أيضاً دون شك
البهجة الروحية للمشاعر البدائية التى سجل مثلها المعتقلون بالسجون البلشفية ،
كانا أشد قرباً لروحيهما وأكثر امتلاكا لمواهبهما مما كانا عليه فى أى
وقت مضى .

ونستطيع جميعاً أن نؤدى العملية ذاتها ، ولا يتيسر لأى مران أن يشغل
الساعات الخالية أو أنصاف الساعات فيما هو أجدى وأكثر نفعاً ؛ ويصدر
التمازج العجيب بين لهفة المشتاق ونفور الكاره الذى يساور معظمنا حين تفكيرهم
فيما تعلمناه بالمدرسة ، أجل يصدر ، دون خلاف تقريباً ، من سبب واحد ؛
فحين غادرنا المدرسة شعرنا باقترابنا من المعرفة ، وهذا مبعث سرور ، ولكن
منذ ذلك العهد قلما وجدنا أى مزيد فى اقترابنا منها ، ويخلق الشعور بهذا
شبحاً له طابع النقص المعتاد ، فإذا تهيأت فرصة لأن تستكمل مالم يتم إنجازه قط

بأى شبح عقدة النقص دون إرجاء ، احتوتنا بهجة روحية ؛ وكم من والد ممن يساعدون أطفالهم فى دراسة كتابهم عن قيصر ابتهجوا ، بل استمتعوا فى يسر، حين وجدوا حسنا فاتنا لم يكن ليبدو لهم ، منذ سنوات كثيرة إلالماماً، ولو كان كتاب قيصر قد قرئ ثانية بالكلية لكانت النتيجة مماثلة،ولكن قيصر لم يقرأ فى الكلية : لقد قيل له بالمدرسة ، وداعا ، وترك لجنين للذة حتى تتاح فرصة غير مرتقبة ؛ونستطيع أن تقول نفس الشىء عن كل ما تعلمناه أوطالعناه سراعا ونحن بالمدرسة .

الخص عقلياً ماتذكره ، واستكمله ، حين تدعو الحاجة ، بدراسة بالمنزل بضع دقائق، فسرعان ما تعرف معنى التعليم ؛ ألم يوجد كتاب أثر عليك بنوع خاص فى تلك الفترة من الحياة حين كانت الانطباعات فى أقصى عمقها بسبب قلتها ؟ ثم أليس ثمة شعر تذكر أنك سمعته أو تعلمته ، وظل منذ ذلك العهد فى ذاكرتك كتجسد للشعر؟وهل لم يستجد شىء منذ ذلك الحين؟لقدشاهدت مرة رجلا يخرج من حافظة جيبه قصاصة مطوية بعناية : إنها قصيدة شعرية ، من إحدى المجلات ، وكان هذا السيد يحملها معه كأنها الطلسم ؛ ولا بد أن هناك بعض الأشعار التى لا تستطيع أنت أيضاً أن تنساها ؛ فإذا توافرت لديك بضع دقائق ، اغمض عينيك واستمتع ببعضها كما قد تستمتع بذكرى عزيزة عطرة ؛ وكم من ساعة مملة فى القطار ، أو بفندق موحش ، أو على ظهر سفينة تألقت بهذه العادة كما تتألق قاعة بباقة من الزهور .

وعلى النمط ذاته، نذكر جميعاً لحظات ، مآزق كانت الذرارى فى حياتنا العقلية ، موفرة للقوى حيث اعتاد الضعف أن يسود،او الهدوء حيث انعدمت الراحة ، ونستطيع أن نسترد الشعور بتلك اللحظات ، فهو حين يلج روحنا

يهتز ثانية كل خيط فى كياننا كما يشع نبيــذ الشمبانيا حبابه حين يلامسه الفتات ؛ وتوهمنا أننا كنا نتفحص فقط ثبتاً تاريخيا لأفعالنا ، وفجأة نجد أنفسنا فى خضم القسم المنتج من شخصيتنا .

ونستطيع أن نشغل بالنفع ذكرى رحلة سابقة تستحق التذكر ، فالناس ، فى الوقت الحاضر، يسرفون فى السفر وفى التبكير فيه ، ويعلق الفلاسفة على هذا بأن مسمارا يخرج مسمارا آخر ، وواضح أن من هم أقل حظاً فى السفر أوفر حظاً فى غيره ، فشارلوت برونتى ، التى ولدت على مسافة خمسين ميــلا من البحر شاهدته لأول مرة وهى فى الرابعة والعشرين عن عمرها، ولـكن المنظر هز كيانها هزاً ، وقد أشارت بعد عام إلى خبرتها هذه ، كما قد تشير فتاة أخرى إلى حبها الأول ؛ وثمة روعة فى تذكرنا لأول شعور ساورنا ونحن فى بلاد أجنبية ، شاعرين بالبعد وبانحسار ثقتنا قليلا ، وببعض الضياع ؛ وينبغى ألا ننسى قط أول شىء تفصح لنا عنه مدينة بأواسط إيطاليا ، أو خليج محاط بأشجار الصنوبر من خلجان البحر الأبيض المتوسط ؛ أو صحراء الأريزونا ؛ حين مشـــاهدة أى منها لأول مرة فى الفجر المهيب .

وينبغى أيضاً إذكاء الجمال الفنى بالعقل ، ولمــاذا نعد هزات القطار وهو ينزلق فوق القضبان أو نحسب سرعته ، فى حين أننا نستطيع أن نحصل على نصف ساعة رائعة نذكر خلالها قاعة أو اثنتين من قاعات اللوفر ؟ فبمران قليل نستطيع أن نستعيد لذاكرتك تمثال « فنيس دى ميلو » أو صورة « عرس القديسة كاثرين » فى وضوح تام حتى لتشعر مرة أخرى بنشوة الانطباع الذى خلفته هذه الروائع الفنية على نفسك ؛ فامنح نفسك فسحة قليلة من الزمن وعندئذ

تشعر بمهابة اليونان أو بروعة إيطاليا تتعاقبان ؛ وستجد نفسك ، دون أى جهد ، لا فى خضم مران عقلى فحسب ، بل واصلا إلى الحالة التى يكتب فيها ند لراسكن عن الفن .

وتستطيع حياة العظماء أو أفعالهم العظيمة أن تجعل الوحدة مأهولة غير موحشة ، فحياة القديسين ، وتأتى فى القمة ، حياة المسيح : قد ملأت الوجود بآلاف المفكرين ، وحين يصف الكتاب الروحيون الفرنسيون هذا التأمل الروحى يستخدمون عبارة رائعة : «التحدث عن حياة القديسين» ويعنون بهذا ازدواجا من مواصلة تحدث المرء إلى نفسه عن تلك الأرواح النبيلة وحفظه لنفسه حيا بهذا الحديث ، وما من كلمة تستطيع أن تكون ذات معنى نفسى أوفر خصوبة أو أكثر دقة .

وقد أدرك القدماء فضل هذا المران ، فلنذكر أن بلوتارخ ، الذى جاهد أكثر من أى شخص آخر ، قبل الكتاب المسيحيين ، ليعممه بين الناس ، كان كاهنا وكاتبا أخلاقيا ، وكانت قصصه صورة من مبدئه ، وقد غذى نزعة الميل للتاريخ، التى ميزت عصور روائع الأدب القديم ، والتى تضاءلت فقط حين تخطى الفنانون العظماء ذو الأعمال الجيدة إلى المقدمة ، أجل قد غذى هذه النزعة إعجاب أشخاص غير عاديين أكثر من مجرد اهتمام بالسياسة، وتقول مدام كامبا فى مذاكرتها المتعة ، إن مدام لويزا ، ابنة الملك لويس الخامس عشر الصغرى شغلتها بضعة أشهر ، وهى تقرأ لها تاريخ فرنسا ، لأنها أرادت أن تفرغ من سماعه قبل انضمامها لراهبات الكارمليت ، وحين تضيف قائلة « عمل بطولى واحد فقط كان مستطاعاً عند هذه الأميرة وقد فعلته » ندرك أن أمثلة النبل

التى تجمعت من هذا المنهج فى المطالعة ذى الأثر الكبير على ما عقدت عليه ابنة الملك النادرة من عزم ! ويعرف كل إنسان مهتم بالرجال والنساء، الذين لا يكون التاريخ بدونهم، سوى نسق واحد عديم اللون والطعم، أنهم على الرغم من موتهم فيهم من الحياة قدر أكثر من الآليين الذين نراهم يسيرون حولنا ، وكان حريا أن يصبح التفكير فيما يتعلق بهم هو الحافز الطبيعى لمعظمنا إذا لم يكن لفظ التعالى ومرادفاته مفزعا لدنيا من النعاج حتى جعلها نسقا واحدا ، ولم يكن أى واحد من التمارين العقلية التى حاولت وصفها جهداً شاقا بل كان أعظم ضروب الاسترخاء حيوية وتنشيطاً لأى شخص أتيحت له هذه الفرصة .

(ب) امعان الفكر :

هذا هو بوجه عام مايطلق عليه الناس اسم التفكير ؛ فيظن المرء أنه يفكر حين يكف عن الكلام أو الكتابة أو القيام بعمل ما ، أو حين لا يتحدث إليه شخص آخر أو ألا يكون نائماً .

وإمعان الفكر أمر أكثر إيجابية ، وقد سبق أن قلت إن مدام دى منتينو تعرف إمعان الفكر بأنه : «معاودة التفكير بانتباه بضع مرات فى نفس الشىء» ؛ هذه البساطة فى اللغة تشرح الصدر وتفصح عما تعنى أن تنقله كاملا كأنه اللغة العلمية التى سادت المجتمع فى القرن التاسع عشر .

ويصح قطعا أن يكون تعريف مدام دى منتينو محطاً للنقاش ؛ إذ يبدو أنه يوحى بمجرد التكرار ، فى حين أنه لابد أن تبدو وجوه متعددة للمقترح الواحد عند إمعان الفكر ، ولكنه دقيق فيما يتعلق بتبيانه لوجود موضوع واحد داخل العقل مستحوذ عليه .

ونعلم جميعاً أن إمعان الفكر ، يأتى فى مبدئه بوحى الخاطر ، ثم يأخذ تدريجيا فى التريث الذهنى والإدراك الوجدانى ، فحالما يشعر طفل بالخوف من شىء أو الميل لشىء آخر يقلب فى رأسه الصغير وسائل الفرار مما يخشى ، أو الحصول على مايرغب ؛ ويحدث هذا كما هى العادة ، باستحضار الصور الذهنية ، أومجموعات الصور الذهنية ، التى تظهر للعقل صوراً لما يحتمل أن يحدث؛ وفى النهاية تبدو سلسلة متماسكة من الصور ، سيناريو بأكمله ، أكثر احتمالا من منافسيها ، وتقف قوة الفكر فى بحثها وراء الإمكانيات ، وهذا الاعتراض هو مانسميه قراراً ، إذ تطلق الصورة المتبقية أخيراً قوانا الاختيارية للعمل ؛ وموضوع إمعان الفكر ، بوجه عام ، هو دائماً اكتشاف شىء مرض للعقل لم يكن هناك فى مستهل البحث ؛ ولا يوجد فرق أساسى بين هذا الاكتشاف والاختراع العلمى ؛ وقد سأل أحد الناس نيوتن قائلا : ، « كيف اكتشفت قانون الجاذبية ؟ » فجاءه الرد : « بالتفكير حوله كل الوقت » .

ولا يتسم الناس دائماً بالوضوح فى هذا الشأن ، لأن أفضل تفكيرهم يتم حين يظنون أنهم لايفكرون ؛ ومن ثمة لايمكن استرداد أوجه تفكيرهم المتعاقبة من عقلهم الباطن أو اللاوعى ، ولكننا فى كل مرة نوفق لإلقاء نظرة على العقل الباطن نشاهد سلسلة الصور الذهنية ، وليس من النادر أن نستيقظ فى الصباح وقد صفت السماء حول فكرة كانت تكتنفها غيوم الشك حين ذهابنا للفراش، وإذا استطعنا أن نتذكر آخر مجموعة من الصور الذهنية فى الليلة السابقة ، وقارناها بالمجموعة التى ارتضيناها فى الوقت الحاضر ، فلن نجد مشقة فى اكتشاف تسلسل الصور الذهنية الوسيطة .

وهكذا فإن إمعان الفكر حالة طبيعية ، ولكن فقط عند الانفعال الناتج عن الرهبة أو الرغبة ، وحين يكون هذا الحافز سطحياً فحسب ؛ فإنه ينتج ردود فعل وهمية وهى الأخرى مفرطة فى سطحيتها حتى لا يلاحظه أحد ، وهذه هى حالتنا العقلية المعتادة ، ولو أحرزنا ذوقا لإمعان الفكر ، أو كما نقول ، للتأمل ، أو لو أن حافزاً أجنبياً عن تفكيرنا جعلنا متلهفين لحيازته لالتزمنا أن ننفض عنا غبار ركودنا العقلى كيما نفكر ، وتأملات الصباح لدى الأتقياء من الناس حمل ثقيل على عاتقهم مادامت تعتمد على كتاب لتدعيمها ولم تصبح شخصية ، أو بتعبير بسيط ، ذاتية نفسية ، وإلا فسننتظر الكتاب أو أى موجه آخر ، ليقوم عنا بالتفكير المطلوب .

وينبغى أن تفرض على الأطفال بالمدرسة تمرينات فكرية منظمة ، ويرتب نظام منتسورى التعليمى فترات يحجب خلالها الأطفال وجوههم الصغيرة ويفكرون ، كما أن مدام دى منتينو نصحت بتكريس أوقات للصمت ، ويعالج التوجيه الذى أشرت إليه سابقاً طرق الانتفاع منها على أكمل وجه ، وتلاحظ هذه المرأة المختبرة أن فتيات سان سيركن يلحفن فى إعطائهن الحل لجميع مشكلاتهن — حتى ما يتعلق منها باللعب — وأن عبارة « تكرم بإخبارنا » كانت تتردد على شفاههن أكثر من عبارة « دعنى أفكر » .

سل فصلا من ثلاثين أن يشرحوا مسألة صغيرة عصية التفسير لدقتها ، ولكنها ممتعة إلى حد استرعاء انتباههم ، فسرعان ما ترتفع معظم الأيدى ، هز رأسك بالرفض وتمسك بأن تكون الإجابة كتابة بعد التخلص مما أثاره السؤال من جلبة وانفعال ، فستشاهد بعد لحظات قليلة على الوجوه البادية الذكاء بسمة

معناها « كنت سأتكلم كأحمق وقد فطنت أنت لهذا » بينما لن نرى شيئاً قط على باقى الوجوه ، وسيسعدك الحظ لو وجدت طالباً واحداً من المجموعة يقوم بأى تفكير على الإطلاق .

ولقد رأيت فصولا تعانى حقا من مران ينبغى، على الرغم من ذلك التمسك به، والمسارعة للاعتياد عليه، أعط الطلاب مقتطفا لاتينيا لا تسمح لهم صعوبته بمطالعته لأول وهلة — ولتكن مثلا قطعة رائعة من أوفيد — وضع الشروط الآتية :

١ — عدم كتابة أية كلمة لمدة خمس وأربعين دقيقة .

٢ — عدم استخدام القاموس خلال نفس المدة ؛ والاقتصار على دراسة القطعة وفحص ألفاظها الصعبة حتى يمكن تفهمها .

٣ — فى ختام الخمس والأربعين دقيقة يسمح باستخدام القاموس لمدة ثمانى دقائق .

٤ — وبعدئذ فقط يسمح بالشروع فى كتابة الترجمة .

وما رأيت هذه الطريقة قد فشلت قط ، فهى ببساطة تأخذ إمعان الفكر غلابا ، ولكن العقول الصبيانية لا تميل إليها حتى لتصبح المحاولة فى مبدأ الأمر محنة ، فتتحرك الأصابع الصغيرة نحو القلم والقاموس فى نفاد صبر ، ذلك لأن العادة هى التخلص من السيء بقدر المستطاع من السرعة .

ويبغض الطالب العادى إنشاء مقال لأن خبراته الماضية كانت خالية من

المتعة ، فهو يعلم أنه بعد سطور قليلة سيأتى فراغ تخلفه الحاجة للكتابة بأى ثمن ، فلو كان قد تعلم قبل تجربته الأولى ألا يخط كلمة واحـــدة فى مقال حتى يكون برمته تاما فى الذهن، ويمكن الكلام عنه فى لغة بسيطة ولـكنها واضحة، لماعرف قط هذه الحالة المشينة ، فدعه يجد ، عن طريق التفكير المستقصى الناطق ، فى الموضوع الذى يعالجه ، إنه مامن شىء يأخذ باللب كأن يحزم المرء أمره فيما يتعلق بشىء يستحق الاهتمام، وإن تدوين نتيجة هذا الاستقصاء ليس لها أهمية خالصة ولـكنها ميسـ ـة قطعا ، وعندئذ سيختفى إلى الأبد شبح المقال باعتباره صراعا فاشلا ضد الهواء ، وتستطيع أن تطرد ، بنفس السهولة ، شبح تعالى الـكتب ومنتجى الـكتب بأن تبين أن الـكتاب ماهو إلا سلسلة من فرادى الفصول المجهزة على هذا النمط ، وأنك تستطيع ، على حد قول لابرير ، أن تتعلم كيف تصنع كتابا ، كما تتعلم كيف تصنع ساعة .

(ج) الكتابة كعون للتفكير :

إن عادة استخدام القلم والمداد ـ كى يعقد المرء عزمه ـ وهى التى ورد وضعها وذكرها بالفصل الذى يعالج تركيز الذهن ، ينبغى المحافظة عليها خلال الحياة ، وهى نافعة ، ليس فقط كعون لإمعان الفكر ، إنما كعنصر هام فى قائمة لأشياء غاية فى الأهمية .

وهناك مسائل كثيرة نعتبرها حيوية على الرغم من غموض إدراكنا لها ، فالله ، والخلود ، وأساس الأخلاق ، والطبيعة ودعامة السعادة ، والمحبة والزواج وفائدة الحياة ، والتعليم والمبادىء الأدبية أو الفنية ، هذه جميعها ماذا نعلم عنها ؟ القليل الذى يقرب من العدم، وكثيراً ما سمعنا هذه الموضوعات تلوكها الألسن، بل كثيراً ما لاكتها ألسنتنا حتى لقد تسربت تدريجياً إلى عقولنا الفكرة

بأنها أشياء مألوفة؛ بيد أن هذا مجرد وهم خاطىء ، وهو نفس الوهم الذى نرزح تحته حين نصل أخيرا إلى قرار ، بعد أن نرجئ طويلا فحصنا لاتجاه عملى مهما حدث أن ألحف علينا بجديته وغرابته ، عند ذلك يخيل إلينا بصورة ما أننا كنا نزن مالنا وما علينا أكثر مما أدركنا ثم ندعو تلكؤنا الوقت الذى صرفناه فى التفكير ، ولكننا فى الواقع لم نكن نفكر قط، ولكننا كنا فقط راغبين فى التلكؤ ، وإذا استطعنا أن نحصى الدقائق التى كرسناها للقيام باختبار ناقد لعكوفنا الفكرى على حياة مستقبلة مثلا ، دارت رءوسنا حين نعلم الرقم المضحك ، فآلاف التنويهات ، من أنفسنا ومن الآخرين ، بالخلود لا تكون فكراً ، ولكنها تعنى فقط أن الخلود مسألة هامة لا يستطيع الناس إغفالها ؛ وإنى لأعرف رجلا من كبار رجال الأكليروس كان يرغب دائماً ، ودائماً يرجئ دراسة كاتدرائيته ، وهى من أشهر كنائس أوربا ، وكلما سمعته يقول : « كاتدرائيتى » أفكر دائما قائلا لنفسى : « لا ، أنت لا تملك هذه الكاتدرائية بل هى التى تملكك » وهكذا الحال مع تلك المسائل العظمى التى نقول بحق إننا ملك لها ولا نجرؤ على القول بأننا نملكها .

وبالصحافة اليومية عدد من الكتاب ، ذكوروإناث ، يهتمون بأن يكونوا رأيا عن كل شىء ؛ ويوما إثر يوم تفيض أقلامهم ببضع مئات من الكلمات يعبرون بها عن آرائهم فى مجموعة هائلة من الموضوعات التى تتوافر المتعة فى معظمها ، ويقل تعرض الخبير للخطأ فى تقديره لمدى الزمن الذى خصصه زملاؤه الكتاب لكل مسألة على حدة ، وفى الاستطاعة تقديره بالدقائق لا بالساعات، وقلما استند المؤلفون لأى ضرب من الأدب ، بل ولا لموسوعة ، ولكنهم قنعوا بتلخيص معرفتهم المهزيلة للبيانات ، وما خلفته على أنفسهم من أثر أشد

هزالا ، ومع ذلك فهذا أفضل بكثير من العدم الذى تطالعنا به المقـــالات التى نقرؤها .

وسيكون فتحا عظيما لو أننا أيضاً فعلنا ذلك ، فنقصر أنفسنا على تسجيل ما نعرف ، وما يساورنا الشك فيه ، وما نريد معرفته ، وقد يـكفى وضعنا فى مستهل الطريق المؤدى إلى المعرفة ، أو على أية حال ، إلى الفهم ، وقد اعتاد القوم فى القرن السابع عشر أن يدونوا مثـــل هـذه التأملات فى كراسة ، يضيفون إليها ، من حين لآخر ، معلومات جديدة ، ونحن فى الوقت الحاضر نهيىء غلافاً ونضع فيه مذكرة قد تمد ، مثل البلورة الأولى فى المحلول ، أفكارنا عن الموضوع ، بالصلابة والتناسق ، وهذا يسفر عن نتائج باهرة .

كذلك استخدم أناس القرن السابع عشر أقلامهم بأثر مماثل لينتهوا إلى رأى عن الأحياء من الرجال والنساء ، وكان من المحتمل أن تـكون صور هؤلاء الأحياء بالغة التعقيد ولـكنها جعلت قوة الملاحظة ونزعة النقد غريزة ، وبعضها ، مما كتبها قوم مغمورون تقريباً ، أضحت ذات قيمة للمؤرخ ، حاول هذه الطريقة لصالح أقرب أصدقائك ، أو فى الدفاع عن النفس ، أو بدافع من حب الاستطلاع فحسب ، وسرعان ما تشعر ببصيرة تتغلغل فى نفوس جيرانك ، الأمر الذى لم تتحه لك أعوام السلبية على الإطلاق .

فهل يتبع هذا أن تتاح للـكتاب المحترفين أفضل فرصة للتفـكير على أكمل وجه ؟ ليس هذا حتما ، فقد قلت فى الباب الثانى إن الـكاتب المحترف معرض لخطر الوقوع فريسة لأوهام كثيرة ، فالحساسية التى يكبح جماحها هى من نصيب أولئك الذين بلغوا ذروة العظمة فحسب ، والموهبة العادية تعرقلها دائماً الحساسية المفرطة ، والفـكرة بأن المرء يكتب للجمهور ، لتلمس الخطأ أو بالأكثر لسوء

التأويل ، من شأنها أن تسفر عن نتائج سيئة لا يقع فيها ذلك الشخص الذى يكتب فقط لإذكاء قدراته على التركيز الفكرى ، ولكن سلطان الإنشاء المقوى يعوض عن هذه العقبة الكأداء ! بل إن أى صحفى ، إذا كان جديراً بمداده ، سيبدأ عادة مقاله لسبب واحد وهو أنه مسوق لكتابته ، ولكنه بعد دقائق يأخذ فى الاستمتاع بالعمل لأنه يطلق مواهبه من عقالها ويهيئ لها مجالا غير مرتقب ، فالعقل بقعة مسحورة لا محيص من أن تزورك بها أشباح فتانة ، كما لا محيص لصائد الأسماك الليلى من رؤية الأنوار المتألقة التى تنبعث من غازات المستنقعات المائية .

وليس هذا كل شىء ، فما من كتابة جيدة بل ولا مقبولة ، تخلو من نوع ما من التخطيط المقدر لإرشاد القلم ؛ وخلال إنتاج هذه المخططات التى تشبه تماماً العمل التحضيرى للفنان ، يكف الكاتب عن التفكير لقرائه ولا يفكر إلا لنفسه وهو واثق من إنتاج أفضل ماعنده .

وهناك فترة فى الحياة يستقل فيها الكاتب عن قارئه ، الذى لا يشك فى رضاه ، كما يستقل عن أسلافه الذين لا يعتبرهم سوى مبشرين بمحبته فحسب ، وفيها أيضاً يستطيع أن يبدد الأشباح بمجرد ضربة من قلمه ، وما أسعد طالع أولئك الكتاب ، أمثال بيرون وشلى وباريه ، وعدد من الفلاسفة ، الذين شرعوا فى نشر أفكارهم قبل أن يبلغوا سن العشرين أو بعد بلوغها بوقت قصير ، فهم لم يعذبهم الوهم بأنه « لم يبق فى قوس القول منزع » ، وجميع الموضوعات العادية الكبيرة ، التى لا تنى عن أن تخلب ألباب العالم ، كما تخلب ألباب الأطفال ، تبدو لهم جديدة فى ثوب قشيب ، ولم يسبق لإنسان أن رآها وجهاً لوجه كما يرونها ، كما يبدو لهم أن كل فكرة ترد على أذهانهم جديدة

بالإفصاح عنها بل وبنشرها ، وهم على حق إلى حد كبير، فليس ثمة موسيقيان يستطيعان عزف نفس المقطوعة فى تماثل تام ، ومع تقدمهم فى الحياة تحيط بهم أفكارهم الشابة كالحرس ، وقد تصلبت بطباعتها ، وتحميهم من الشكوك والخور ، وكان من المحتمل أن رجلا مثل باريه ، لم يفصله عن التهيب سوى ثقة عارمة ، أن يستنفد قدراته فى السخرية ، لو لم يبدأ فى اعتبار كل أفكاره شعراً منذ أن كان فى التاسعة عشرة من عمره .

(د) محافظة المرء على أفكاره :

إن الشخص الذى لا يحتفظ بمعالم ما يتعلمه أو يفكر فيه يشبه فى حماقته من يحرث الأرض ويلقى فيها البذار ، متحملاً أشد المشاق، وحين ينضج المحصول للحصاد يدير له ظهره ولا يعاوده التفكير فيه .

ولبعض الناس ذاكرة ذات مقدرة فائقة على الحفظ وتستطيع العمل بأقل قدر من المذكرات ، ولكنه لا يأبه لهذه الظاهرات غير المألوفة ، ولقد وجد معظم من كونوا لهم اسما بارزاً فى الأدب أو السياسة أو المال أنه من الضرورى أن يحتفظوا بذاكرة من الورق ، أما الذين توهموا أن فى استطاعتهم الاستغناء عن عناء تكوين هذه العادة وما تسببه من ملل ، فلا مشاحة أنهم ندموا لذلك يوما ما ، فرجال الفكاهة الذين يعرفون الذاكرة بأنها الموهبة التى تمكننا من النسيان ، يؤكدون حقيقة مشئومة لا أكثر ، فالآثار النفسية الرائعة أو النابضة بالحياة ، التى يخيل إلينا أنها لا يمكن أن تمحى من وعينا لا تبقى فيه أكثر من أسابيع قليلة ، وأحياناً بضعة أيام ، ما لم يحدث شىء يكسبها الدوام ، وتعلّم الحياة المزدحمة بالعمل ذا الخمول الوراثى ذاته أن يفعل ذلك ، وسرعان ما يتحقق أى شخص ، يضطره قدره فى الحياة لأن يستخدم

ذهنه بطريقة إيجابية ، أنه لا يستطيع التفريط فى أى مصـــدر من مصادره ، فيضع خطة يوقف بها أى ضياع أو تبديد ، فإذا كان ثرياً اشترى العون من سكرتير مدرب ، وإذا لم يـكن راح يطالع الـكتب التى تشرح وسائل التثقيف أو وسائل العمل (وهى متماثلة تقريباً) أو راح يبتكر وسائل من عنده ، وتدهشنا المعرفة الهـائلة التى يحرزها بعض الـكتاب فيما اعتدنا أن نسميه بالسياسة الخارجية ، ولـكن ينبغى أن نسميه فى الوقت الحاضر بسياستنا جميعاً ، ونعجب لضخامة الملفات التى يلزمهم حفظها ، وللصعوبة التى يجابهونها هم أنفسهم ليشقوا طريقهم بين هذه الأكداس من الورق ، وحقيقة الأمر أن المسألة لا تحتاج لأكثر من مجلدات سميكة تضم فرادى من الورق الغليظ ، كى يلصق عليه ، رأسياً وأفقيا ، قصاصات من الصحف ، وتعليقات المداد الأحمر تزيد هذه الملفات دسما وخصوبة ، والسر هو قص كل ما يبدو مهماً « فى الحـال » ؟ والصحف اليومية وثائق تاريخية يعدها رجال ونساء ، هم بوجه عام يجهلون التاريخ ولا يـكترثون له ، ولعل حدثا بعيد الغور والتقصى يرد ذكره بعمود غير ظاهر وبحرف عادى لا يوحى بالتأكيد ، بقلم من يسمون بالإخصائيين الذين لا يدركون أهمية هذا الحديث ولا يشيرون إليه أبداً مرة أخرى ، فما لم تضم قصاصة هذا المقال فى الحال إلى ملف ، فقد يعنى غيابها فقد حلقة رئيسية فى سلسلة الأحداث .

وليست الوقائع سوى المادة للفـكر ؛ بل وينبغى زيادة العناية بالمحافظة على الأفكار ذاتها ، أو بتعبير آخر ، التألق الذى ينتجه فى عقلنا وجود وقائع فنية ، ومن المؤكد أنه من الصعب ، وقد يكون أحياناً من غير المأمون — لـما فى ذلك من إيقاف لحركة العقل — اعتراض رد الفعـل العقلى رغم ملاحظته ،

ولـكن مادامت النتيجةالنهائية للتوسطأمامنا، فنى مقدورنا أن ننقذه من المصير المحتوم لـكل الأحلام ، ويلزم أن تـكون الملاحظة من الإيجاز بحيث تـكفى لاستبعاد خطر ماتدعوه كتب الفيد الهندية «وضع كلمات بين الحق و بين أنفسنا» ولـكن يلزم أن تكون من الامتلاء بحيث تكون واضحة لأصحابها عند إعادة مطالعتها فى المستقبل بل ولغير أصحابها، وإذا شعرنا بحافز لإعطاء شكل نهائى لفـكرة تزحم عقلنا فمن الحماقة مقاومتها أو تعطيلها،وأفضل الصفحات فى كتاب ما هى تلك التى يكتبها المرء وهو متأثر بمثل هذا الحافز ، وكم من كاتب ، ممن اضطرتهم الحياة للقيام بعملهم على الرغم من الظروف غير المواتية ، قدر الجميل لنفسه بعدم استسلامها للـكسل حين تهيأت لذلك فرصة لبصيص أو شعاع من الضوء ، فهو لا يعرف إلحاف وعذاب الوهم بأن فـكرته عن شىء كانت يوماً ما أكثر رفعة وأشد وضوحا مما هى الآن .

وتحرير الـكتب هو مجال المتخصصين ، أما العيش فهو عملنا جميعا ، كما أن الحياة الأدبية والحياة العاطفية، والحياة الدينية،وكل مايسمو على مجرد الوجود من التراب وإلى التراب ،تتألف من إشعاعات حالما تنفصل لاتعود مرةأخرى، ولعل يومية أو بضع رسائل قديمة أو بضع صفحات تحوى أفكاراً أو تأملات تحفظ الصلة بيننا فى الوقت الحاضر والجانب الأفضل من ذواتنا فى الماضى ، ولشد ما تأثرت كشاب بنصيحة كاتب روحى بأن يقرأ المرء مذكراته الخاصة ذات الطابع الروحى ويفضل منها ما كان متعلقاً بكتاب مشهور ، ويبدو أن جميع القديسين قد فعلوا هذا ، وحالما ندرك أن أية فـكرة ، سواء أكانت ملـكا لنا أم مستعارة ، من الامتلاء بحيث لا تتبدد هباء ، ومن الأصالة بحيث لا يحتمل أن تعود مرة أخرى ، فيلزمنا إثباتها على الورق ، فينبغى أن تـكون

مخطوطاتنا مرآة مطالعتنا وتأملاتنا ومثلنا العليا ونمط معالجتنا لها فى حياتنا؛ ويعلم كل امرئ، اعتاد مبكرا أن يسجل نفسه بهذه الطريقة ، أن ضياع أوراقه يعنى أيضاً ضياع إمكانيات تفكيره .

(هـ) طراز الذهن الذى ينتجه هذا النظام العقلى :

ولقد عرفت شخصياً عدداً كبيراً من الرجال الذين ساعدنى ارتقاؤهم العقلى ماديا فى وضع هذا الكتاب ، ولقد أثر على اثنان منهم أكثر من بقيتهم لأسباب سأطلع عليها القارئ فيما بعد .

ويساهم أحد هذين الرجلين بالكتابة فى مجلة ذائعة الصيت ، وهو كاتب ذو شهرة عالمية فى معرفته بالسياسة وعرضه لها ، ويرقب بشغف مقالاته الدسمة المتألقة كثير من المهتمين بمشكلات الشرق الذين لم تتهيأ ذات الفرص لاختيارها بأنفسهم ؛ ويناقشها جميع الإخصائيين باحترام ، ولقد رأيت أنه كان لآرائه ، فى أكثر من مناسبة ، سلطان قوى جدا على مواقف رجال السياسة .

والرجل الثانى مؤرخ للأديان ، فمن الأمور الصعبة النادرة معالجة تاريخ الأديان بتوقير ومع ذلك باستقلال ، لضمان الإنصات لهذه المسائل من النقاد الأحرار دون إهدار لاحترام المحافظين ؛ ولقد حقق هذا العالم اللاهوتى ذلك ، فالعشرات القلائل من المتخصصين المهتمين بالميدان ذاته يظهرون بلهجتهم فى مناقشة آرائه أنهم يعتبرونها نتاج رغبة مخلصة لإيثار الحق على الرأى

ولقد عرفت هذين الرجلين البارزين منذ أيام شبابنا ، وتقريراً للحقيقة المذهلة ـ ولكنها مثقفة ـ أذكر أنهما اعتادا، فى تلك الأيام الخوالى، ألا يتركا فى نفسى طابع البروز بل نقيض ذلك ، وبعبارة خالية من الزخرف ، كانا عاديين ،

والواقع أنهما أظهرا صفات المناضلين — ما نسميه إعلانات النعى بالنشاط الذى لا يقهر — وما من إنسان تصور قط أن ينكر عليهما أكثر من نصيبهما فى الذوق العام ؛ كذلك أحرزا ذلك الصنف الغريب من الطموح الذى لا يسهل تمييزه عن ذوق للبروز لابد أن يرفع المرء فوق تفاهته الأصيلة؛ ولكن خصائصهما الغريزية كانت عادية ، وما زال الأثر الأول، حين أقابلهما حتى الآن، هو شعور بالقلق خشية أن يفسدا نسيج احترامى لها بقولهما شيئاً لا ينسجم مع الرأى الرفيع الذى نكنه جميعاً لما يكتبان ؛ ولم يفعلا هذا قط ولكنى غير مطمئن تماماً أنهما لن يفعلا ذلك فى المستقبل ، وقد ألاحظ أحياناً بسمة ، أو نبرة صوتية ، أو تحولا فى صياغة الكلام ، الأمر الذى يجعلنى أحس أنى على شفا هاوية ، ولكن لا يحدث شئ ، ولم أعرف قط أى شخص ألف هذين الرجلين منذ صباهما ولم يساوره نفس الشعور الذى يساورنى ؛ وما من أحد يتحدث عنهما باعتبارهما من العباقرة ، ولكن كل إنسان يعتبرهما فعلا من الثقات فى الأدب الجاد ؛ وأعرف أن وجهة نظرهما الأصلية كانت ضيقة ، ولكنهما يبديان اهتماماً دائماً بتيارات الفكر الرفيعة وحين يثيران بعض الدهشة قلما يظهرانه من سرف فى نفورهما الواضح من الصغائر ، فثقافتهما لا تحد ، وظاهر أنهما ولدا ولهما ذاكرتان ممتازتان حشداها بالعديد من المعلومات ، ابتداء من الآراء الفلسفية إلى مجرد التفاصيل الإنسانية أو الجمالية، وأقرر أنه لم يكن قط فيما يقولان أى شئ ينفذ للأعماق على غير ترقب ، ولكنهما متثبتان من رأيهما فيما يتعلق بطائفة كبيرة من الموضوعات ، فقد احتكا بكثير من النظريات وطالما كثيراً من المناقشات التى دارت حولها حتى لم تعد المحاولات لتدهشهما أو تزعزعهما، فمخزن الذخائر عندهما ملىء بالوقائع التى لامناص للمحاولات من أن تأخذها فى الاعتبار،

أو بالنظريات المضادة التى تحددها ، وإذا كان كل هذا غير موسد فى لغة خالية من كل نضارة كان لها مثل هدير التدفق الطبيعى من عقول قوية ، لأن ثمة ضوءاً يشع من جميع الوقائع الصعبة التى يعالجونها ، ويكفى الإشعاع كى يسكت تحفظنا الباطنى .

وهذان الرجلان ، وهما الظاهرة الحية التى تساعد على التفكير ، كما ورد شرحه فى الفصول السابقة ، ينتجان شيئاً يشبه الفكر إلى حد لا يمكن تمييزه عنه ، ويهيئ للمرء أفضل تفكير بدلا من أسهل ضروبه ؛ وكانا طموحين مجدين ، وقد استعاضا عما يسميه الناس لذة بمباهج العقل ، وآثرا الموضوعات المتوغلة فى النبل عما هى أقل نبلا ، وتخيرا دراسة الوسائل ، فلم يقتصر جزاؤهما على تقدير أندادهما ، أو على تأثيرهما الحصيف على الأحداث ، ولكنهما جمعا إلى ذلك الوعى بإحراز سلامة عقلية نادرة وباستخدام قواهما بأقل قسط من الضياع ، وتستحق هذه النتيجة بجدارة الجهد الأولى لتفضيل شىء على لاشىء ورفض الفراغ الشامل .

وقد أتيحت لى ، أكثر من مرة ، فرص للموازنة بين هذين الرجلين وغيرهما من الناس الذين يبزونهما كثيراً فى المواهب ، والذين اعتدت اعتبارهم ممن قدر لهم التألق فى الحياة ولكنهم أفسدوا كل شىء منذ البدء ، وذوت مواهبهم النادرة حتى أصبحت ضحلة سطحية ، والمجتمع ملىء بمثلى هذه الحالات من الفشل الذى يبدو أنه جاء طبيعياً ، ولكنك ستجد مثل هذه الحالات أيضاً فى مراكز كان ينتظر منها نقيض ذلك ، وكثير من شباب الأساتذة الجامعيين والأطباء والمحاميين خيبوا الآمال المرتقبة وأثاروا النفور أخيراً لأنهم ببساطة حشدوا العقبات بدلاً من المساعدات فى طريق تفكيرهم .

فماذا أعوزهم ؟ ذوق للكتب الجيدة ، فلقد آثر هؤلاء القوم الحديث غير

الدسم وأوراق اللعب ، أو خمول أندية الريف ، على ما كان باديا أنهم قد ولدوا للتعلق به ، ومن ثمة انحدروا تبعاً لذلك ، ويقدم لنا القديس سمعان معرضاً من مجموعة لأمثال هؤلاء الفاشلين فى وصف شديد القسوة فى وضوحه وتألقه ، ولكننا فى غير حاجة إلا أن نتطلع حوالينا فنرى صوراً حية منهم .

ستقول: إن المعرفة والمعلومات لاترادف الفكر فى معناه ، وإنه لا يمكن أن يكون فى تعليم المرء لنفسه هو فن التفكير ، من المؤكد أن الأمر ليس كذلك فى حالة العبقرية ، ولا شك فى أن تزويد العقل بأفضل الطعام ورعايته بأفضل القواعد الصحية هو الطريق الوحيد كى لاتقضى القدرات العقلية العادية على نفسها ، استبعد القرائن والمعلومات فيحل الظلام مكان البقع المضيئة ، ألسنا نقول إن الله يعرف كل شىء بدلا من القول بأنه تعالى يفهم كل شىء ؟ تصور الفرق فى عقليات كالتى للبرانش أو لروسو إذا كانت أقل رضا بتألقها وأشد ميلا للعمل الشرعى ، ومن ذا الذى يستطيع أن يشك فى أن الفرق بين عهد كالقرن السابع عشر ، المتسم بالرزانة الكاملة ، وعصرنا الذى لا يملك زمام نفسه من فرط عصبيته ، صادر أصلا من تجهيزات العهد الأول ؟ فماذا يهيئ لذوى الحدة من الفرنسيين تلك البساطة السياسية الغريبة التى تثير دهشة الأجانب سوى نقص فى المعلومات ؟ وماالذى جعل بوسويه ، وهو عبقرى ، أدنى مرتبة فى الجدال من ريتشارد سيمون ، وهو دارس لا أكثر ، إن لم يكن عدم التساوى فى الدراية بمشكلات الكتاب المقدس ؛ فما من قدر من العبقرية، بالغ مابلغ، ليغنى عن الوقائع ، إذا كانت هناك حاجة للوقائع وليس للعبقرية ، ومن الناحية الأخرى فإن التمكن التام من ملابسات مشكلة ما يهيئ للمرء ، إلى جانب الإتقان ، تلك السرعة فى الجدال التى لايسعنا إلا أن نسميها تفكيراً متألقاً ، على الرغم من أنها فى الواقع معلومات فحسب .

(و) مزيد من التقرب صوب الفكر المبتكر :

وللتدليل على قيمة الوسائل المقترحة فى هذا الباب الثالث، تعمدت أن أختار نموذجين من المستوى العادى ارتفعا فوق إمكانياتهما الظاهرة بالتدريب الذى فرضاه طواعية على نفسيهما ، ولكن استخدام نفس التدريب مع مواهب حقيقية من شأنه أن يسفر عن نتائج تملأ مؤرخى الأدب ، ولا يمكن اختيار نموذج لتمثيل هؤلاء أفضل من أرنست ، رينان

فكلنا نعرف أن رينان لم يكن عبقرياً، فهو لا يمكن مقارنته ، كفيلسوف أو دارس أو كاتب، بالمتفوقين حقاً من الناس ، ومع ذلك فيا للذكاء ! ياللبصيرة النفاذة إلى الأعماق والرؤية التى تحيط بظواهر الأشياء ! ياروعة التقديم الذى يهيئه كتاب مثل « ماركس أوريليوس » لقراءة ذكية فى التاريخ ! ، إن التغيير الذى طرأ على معنى كلمة « ذكى » والهالة التى أحاطت بها فى الوقت ذاته ، تعود فى مبدئها إلى رينان ؛ وحين يكتب السيد لانسو Lanson عن فيكتور هيجو ، فيقول إنه من المؤسف أن يدرك المرء أن مثل هذا العبقرى لم يكن ذكياً ، يعرف فوراً إن وجد الناقد الأدبى الفارق العقلى الطفيف الذى يؤكده بمثل هذه الجسارة ؛ فرينان ، أكثر من الرجال الذين يزيدون عليه قوة، سيظل النموذج للقدرة على الإدراك الواعى ؛ وقد أظهر لفيف من المريدين — من بينهم أناتول فرانس وجول ليميتر — كيف يمكن تعلم الطريقة بسهولة مع ضمان نتائجها المؤكدة .

١ — لم يقتصر ما أحرزه أى مطالع لأفضل الكتب — ليست روائع الأدب فحسب إنما أيضاً نتاج نقاد الأدب ورجال العلم فى الجيلين الماضيين — على المعلومات فقط ولكنه أحرز نهجاً للتفكير أيضاً؛ وينتقل الذكاء بالاحتكاك

كما كان حال الرشاقة وسرعة البديهة فى القرن الثامن عشر؛ وليس هذا ملاك الأمر؛ فقد اعتاد تين القول بأن الفكر عملية جماعية لا فردية ، وحين نتحدث عن « العقل فى التصنيع » نعنى أن نقول بالضبط : اختبار المبادئ وتنميتها ، وتحسين المسائل ، استكمال وجهات النظر ، جعل عمل العالم بأسره ملكا لكل باحث فرد يعنى بضم نتائجه ، وبعبارة واحدة « امتداد آفاق الفكر » .

* * *

٢ — والمتعلمون الذين يستوعبون بهذه الصورة نتائج الجهود الجماعية ينساقون دائماً لرؤية صلات بين الآراء أو بين الوقائع ، ويعتادون على البحث بأنفسهم عن هذه الصلات؛ ولا يستطيع رجل حديث أن يفكر فى موسولينى دون أن يفكر أيضاً فى نابليون ، وتساعده فرنسا بعد عام ١٨٧١ على أن يفهم وجهات نظر معينة عن العقلية الألمانية بعد عام ١٩١٩، وتلقى وسائل الاستعمار فى بريطانيا ضوءا على وسائل روما والعكس صحيح ، وهذا ما يفعله رينان فى كل صفحة ، فعقله اليقظ لا يكف عن قوائم من القرائن ، يوفق بينها أو على النقيض ، يباين بينها ، وهذه المعالجة الإيجابية لها من شأنها أن تنير كل خطوة ، ويظهر هذا النهج ذاته جلياً فيما اعتاده السنيور فريرو من تصور رؤية الحاضر فى الماضى ، ومداومته على إيحاء العمنية بمجموعته المختارة من الألفاظ ، وهذا هو بلا شك نهج جميع المؤرخين المحدثين ، وما من أحد يستطيع أن ينكر أن النتائج تفوق إلى أقصى حد طريقة مجرد السرد التى استخدمها الكتاب الأوائل.

* * *

٣ — وداخل هذه العادة ، عادة عدم رؤية شيء دون تصور شيء آخر بجانبه أو خلفه شيء حيوى يحصل لها نفس الخصائص التى تتسم بها طرائق

كاتب الدراما ، فالانطباع والخيال متهيئان دائماً للعمل ، ويقضى كثير من المثقفين والمثقفات ساعات هنيئة فى بعث الماضى ، فيعيدون بناء حادثة تاريخية عظمى ، وينصتون لشخصية تاريخية كبيرة تتحدث ، ويختبرون فلسفة بنتائجها العملية المحتملة ، أو يتخيلون المستقبل ، فطوال الوقت لا تكف المخيلة المبدعة عن العمل .

فأى شىء ذلك إن لم يكن هو « الفكر » ؟ ومع ذلك فهو فى دائرة المستطاع لدى عدد لا حصر له من الناس ، إنما لا بد أن يظلوا بمنأى عن سفاسف الأمور ، وأن يحشدوا عقولهم بالمعرفة بدلا من ذلك ، أجل وأن ينطلقوا أحراراً فى هذا الخضم من القرائن ، وستكون الثمرة هى الفكر فعلا .

* * *

« ياللعار ! فعلى الرغم من وجود الكثير مما أحبه بهذه الفصول مثل : الوحدة ، سبينوزا ، الموسيقى ، الانتشاء والتسامى ، وسائل لعدم النسيان ، نوع من الطرق السهلة لجعل الحياة نافعة كما هى جميلة ، أجل على الرغم من ذلك فإنى أشعر بخيبة أمل ، هل أفضى لك بالحقيقة ؟ الواقع أننى ظننت أن هذا الباب الثالث سيقدم « وصفة » حقيقية للتفكير ، أعنى طريقة عاجلة لجعل ذهنى نشيطاً أخاذاً ، طريقة كالبرق تجعل كل شىء يتم فى لحظة . . . . »

« أو أقراص عقار ، أجل إنه لمن العار ألا توجد أقراص عقار للتفكير ، إذن لاشتريت أنا أيضاً بعضها ، حسناً ، ألا تستطيع أن تتناول قدحاً من الشاى القوى الأثر ، وتتمدد على أريكة ، كما جاء فى مستهل الفصل الأول ، وترى عما إذا كانت مشكلاتك ستحل نفسها ؟ أو ألا تستطيع الإبحار إلى إيطاليا

ولا تنبس ببنت شفة حتى تصل إلى نابولى ؟ إن الكتاب يذكر أنه لا يوجد شيء أيسر من هذا وأنه سيحقق الخدمة » .

« أوه ، أجل ، ولكنه لن يحققها ، فالتى تحققها هى الكتب الجيدة ، ومطالعة الروائع فحسب ، وعدم القراءة قط بل الدراسة دائماً ، وبالاختصار ، معالجة معركة برزخية عقلية منظمة ، أعرف أننى لا أستطيع الإذعان لها كما لو كانت معركة حقيقية ؛ ومع ذلك أعلم أننى لو عدت لمطالعة هذه الفصول ثانية لوقعت على عشرات من الأشياء التى يتضح لى كلما تغلغلت فى القراءة ، أننى كنت مشوقا للقيام بها ، فأنا أهوى الفتاة الصغيرة الشغوفة بتاريخ يوليوس قيصر ، وأمقت صغائر التفاصيل ، وأظن أننى فعلت هذا دائماً ، ذلك لأنى لو كنت حقاً تافه التفكير ، لما رحت الآن أطالع هذه المادة التى تسبب العناء بإغرائها ومناعتها ، فقط كنت أود لو أمكن تيسر الأشياء كما تبدو أحياناً .

« إنك تمقت صغائر التفاصيل ، أو بعبارة أخرى ، التعميم والوضوح ، وإنك لتهوى الوحدة وسبينوزا ورهبان القديس برونو الغيورين فى صوامعهم البيضاء ، والكتب الجيدة التى لن يقرأها أحد سواك ، والتاريخ الرومانى والفتيات الصغيرات النادرات ، والموسيقى والفلسفة والحماسة الواعية ؛ كل هذا يعنى أنك قارئ نموذجى لهذا النوع من الكتاب ، مرشح غير عادى للتفكير الحقيقى ؛ إن ما تستهدفه هو قواعد الصحة العقلية ، زيادة عشرين أو ثلاثين سعراً عقلياً ، وما أشبه ، أليس كذلك ؟ » .

بالضبط ، إنك تصف الأمر برمته كما لو كان يساورك نفس شعورى ؛

أجل ، إن قواعد الصحة لأمر بغيض ، فاستحضر لى عشرة جراحين بدلا من عالم واحد فى التغذية ، وأنا كفيل بأن أكسب الصفقة بما فيها المخدر وكل ما عداه » .

« لا ، إنك لا تبغض قواعد الصحة ، فإنى أراك ممتطيا صهوة فرس شهباء كل يوم ثلاثاء ؛ فالذى تخشاه هو حشد النصائح المفيدة ، حتى لكأنها جبل من الجليد ؛ والواقع أنه يبدو أن النصيحة هى كل ما يستهويك فى هذا الكتاب، وأنك لتكنز كل نصيحة لدى مجيئها ولكنك حين تحاول أن تتذكر المئات منها ، تهبط عليك جماعة كجلمود صخر حطه السيل من عل ، حسناً لنفترض أنك ستتناول واحدة فقط على انفراد ، وتنسى الباقى إلى حين ، ولنفترض أنك ستبدأ بمطالعة صحيفة « التايمز » كصفحة تاريخ و . . . . »

« بخ بخ سأفعل ذلك ، وإنى لواثق بأنى مستطيع أن أفعل ذلك ، فلا تزودنى بأكثر من هذا ، ولا تخبر أى شخص آخر ، فإنى أريد أن أرى كيف ستؤثر فى » .

« تؤثر ! من المؤكد ألا شك فى أن الحكمة تؤثر ، وإذن فأتح الفرصة لصحيفة التايمز ، وحبذا لو أنك اقتصرت ، منذ الآن ، على مطالعة فصل واحد من هذا الكتاب فى المرة الواحدة ، فإن فكرة قرص العقار الذهنى تربض هناك » .

الباب الرابع

الفكر الخلاق

كلمة تمهيدية

هل يعطى « الفكر الخلاق » معنى العبقرية ؟ أجل ، ولكن تذكر أن أى خلق ، من أى وصف ، سواء أكان صادراً من أقل الصناع شأناً أم من أكمل الناس ذهنا ، إنما هو نتاج حالة عقلية ينبغى تسميتها بالعبقرية .

وهل يعطى هذا معنى الخلق الأدبى ؟ لا أكثر من أى خلق آخر ، وينبغى ألا يستنتج القارئ من فقرة أو اثنتين بهذا الباب الرابع أن الصفحات التالية مفرزة أصلا للكتاب ، فما من خطأ يكون أشد وبالا من هذا ، لتشويش هدف هذا الكتاب ، ذلك لأن هدفه الحقيقى هو أن يجعل الفكر ، حتى فى أرفع أشكاله وفى أى نطاق ، ميسراً لنا جميعاً .

الفصل العاشر

الإبداع

هذه كلمة أخاذة ، ففكرة إنتاج شيء من لاشيء ، أو استبدال الحركة بالسكون تبهج حتى الأطفال ، فلقد سبق تمثال فينوس دى ميلو عدد كبير من تماثيل فينوس نصف العارية ، ولكن لم يكن من بينها أى تمثال من الحجر له مثل هذا الأثر الروحى القوى ، فإننا لا نكاد نراه حتى ندرك فوراً أن ثمة باعثاً علوياً كان موجهاً وعاملا ؛ والآف من الناس قد تطلعوا فى نزوع وتأمل إلى هزار يختفى فى طبقات الجو ، ولكن شلى وحده هو الذى كتب مقطوعة موسيقية خالدة فى هذا الصدد ؛ كذلك فإن الموسيقى الجديرة باسمها تعنى إبداعاً عجيباً ، فقد كانت روحنا خاوية ، وهنا تمتلىء بصور ذهنية ومشاعر تتبعها أعظم الوسائل قدراً فى عدم ماديتها ، وحين نحاول التفكير فى الألوهية سرعان ما نلتقى باللانهائية والخلود بعيداً ، لما يسببانه من عنت وإجهاد ، أما عملية الخلق فنتدبرها ونمعن التفكير فيها دون عناء .

وينبعث التوقير ، وكثيراً ما تكون الهيبة التى نمارسها إزاء العبقرية حين يضمنا مجلسها ، من التماثل بين موهبتها وسمة الطبيعة الإلهية ، فنحن مسوقون

دائماً للمبالغة فى نقصنا ، وحين نتطلع إلى التماثيل النصفية الخاصة بعظماء الموسيقيين أو عظماء الفلاسفة ، نلاحظ الجباه القوية والعيون النفاذة ، فننظر إلى مرآتنا وعندئذ نرزح تحت ثقل شعور بأننا من سلالة أخرى ، وعندما نطالع حياة أو وسائل هؤلاء القوم الممتازين ، لا تغمرنا الدهشة إذ نراهم يذكرون عن أنفسهم أشياء من شأنها أن تجعلنا أضحوكة حتى لو فكرنا فيها مقرونة بأنفسنا .

وإنه لمن الأمور المستحبة أن نطالع ما كتب عن العبقرية والعباقرة : فحيواتهم، المليئة بالجهود الرائعة رغم رفضها ، تؤثر على عقولنا كما تؤثر حيوات القديسيين على مواهبنا الروحية ، فنحن نشعر بنوع من الفخر بهم ، وهذا الفخر يشهد بأصلنا المشترك ويضيف حيوية جديدة لرغباتنا التى هى أكثر نبلا ، وأيضاً فإن وجود المتفوقين من الناس مقو معدوم النظير، بيد أنه من العبث أن نلتمس أى تفسير لموهبتهم ، فهم متفوقون لأنهم متفوقون ، هذا كل ما فى الأمر، وإذا سألتهم كيف أنهم كذلك كانت إجابتهم مثارا للضحك، الأمر الذى يزيد شعورك بالصغار .

وإنه لمن الخطورة أيضاً وضع أولئك الرجال على حامل وتقديس شبح مذل فى هيئتهم، وقد بولغ فى تقدير رجال الأدب والشعراء وكاتبى الدراما ورجال الفن من جميع الأنواع منذ أن حول أحدهم ، وهو ديديرو ، قدرة العقل القوى بأكملها إلى انتشاء موهبتهم ، فلم يكن من الصالح لرجل مثل فكتور هيجو ، أو لرجل فوق الكل مثل إسكندر ديماس ، أن ينصب نبياً لجيله ، وهكذا خلق من كل منهما شبح ، أقوى منهما ، دان له الجميع بالطاعة .

وكثيراً جداً ما ننسى أن العبقرية أيضاً تعتمد على القرائن والمعلومات التى

فى متناول يدها ، حتى إن أرخميدس نفسه ما كان ليستطيع أن يصمم مخترعات أديسون؛ كذلك كثيراً ما ننسى أن العبقرية ليست عبقرية فى كل الأوقات، على الرغم من تفوقها فى كل حين، فقد كانت هناك فترات طويلة بين إشراقات باستير الكبرى، وللشعراء دراية بالوحى ، ولكنهم يعرفون أيضاً فترات من النضوب والجفاف يعيشون خلالها على الرجاء والإيمان والذكرى ؛ ومن الناحية الأخرى فإن لنا ، نحن القوم الأدنى عنصراً ، فترات نتألق فيها ، ونشعر خلالها بأننا فوق ذروة الموج ، كما يساورنا أفضل تفكير ونؤدى أفضل عمل ، فإذا ما أدت بنا الحماقة لأن نتصور ، حين ننعم بهذه الخطوة ، أن موهبتنا ليست من الطراز الأول، فسرعان ما يبطل أثر الرقية ويزول سحرها .

وقد كان انحياز القرن الثامن عشر — الذى أشرت إليه — للتفوق العقلى المجرد ، ذا آثار مدمرة خاصة فى فرنسا ، فلم يوقر فولتير وديدرو العبقرية حين تكون مجسدة فى مؤسسى الأديان ، وما زال هناك لفيف من الناس الذين يؤثرون التألق على الصلاح ؛ فنقاد الأدب وأدعياء المعرفة يعاملون بازدراء المصلحين السياسيين أو الاجتماعيين ، وناشرى المعرفة ، وعظماء المنظمين فى أى مجال ، والرسل ورجال الإرساليات الدينية ، وأرباب الصناعة ، ومؤسسى الثروات الضخمة ، وكبار القادة وعظماء البحارين ، على الرغم من أن موهبتهم العقلية كثيراً ما تشبه فى ندرتها مواهب منافسيهم ، ومن أن تقاسيم وجوههم المعبرة القوية تشبه جباه هؤلاء المنافسين الشماء ؛ فبدائعهم أمامنا ، وسيذكر التاريخ الكثيرين منهم ؛ ولكن أهناك هيئة واحدة فى العالم بأسره ، يعوزها الدليل الملموس على أن الرغبة الجادة الملحة لتحقيق نتيجة نبيلة لا مناص من أن تبلغ

مأربها مادامت لا تكف عن المثابرة طوال الحياة ؟ فلماذا ينبغى اعتبار هذه الجهود أقل شأنا من الجهود العقلية خاصة حين يكون الانتشاء الذاتى ، كما هو الحال دائما — مرئيا بوضوح فى هؤلاء ؟ ومن ذا الذى يجرؤ أن يقول إنه ليس لفلورنس نيتنجيل نفس الحق فى أن تحظى باعتبارها مبتدعة مثل جورج أليوت ؟ .

وقد نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنقول إن كل حياة بارزة على أى وجه، حتى وإن لم يطلها أثر متين ، إنما هى إبداع من طبيعة فنية أحيانا ، أو أدبية فى أحيان أخرى ؛ وهناك أشخاص ذوو حصافة ولطف ، لن يتسنى للعالم أن يعرف أسماءهم قط، بيد أن حياتهم تبدو من الروائع لأولئك الذين عرفوهم جيداً ؛ وقد ولد أولئك الناس ولهم مثل ما لنا من فرص ومواهب عقلية ، ولكنهم فطنوا لما يمكن عمله منها وحققوه ؛ وكان من المحتمل ألا تنشر قط يوميات جوبير أو رسائل كوبر ، ولكن القوم الذين أحبوا جوبير أو كوبر أكثر مما فى كتاباتهما سيراودهم ، حتى يوم مماتهم ، السحر المنبعث من حياتهما فى غفوتها ؛ ولقد مر على وفاة مدام دى ريكامييه مائة عام ، ومع ذلك يقف أمام صورتها ، فى غمرة من التأمل والخيال ، عدد من الناس أكبر مما يقف أمام صورة مدام دى ستايل ؛ وهى لم تكتب للجمهور قط ، كما أنها لم تخطب أو تتكهن بالأحداث قط ، ولكن الحياة التى عاشتها بتلك الغرف الثلاث فى « أبى أوبوا » ما زالت مثلا أعلى لنساء عديدات سمعن عنها ، فهل نستطيع القول بأن هذه الهالة المتألقة الفاتنة ليست من غراسها ؟ ثم أليس للقديسين ما للعباقرة من جاذبية وفتنة ؟ .

وازن بين هؤلاء القوم الذين فعلوا أشياء ، أو كانوا هم الشيء ، بأولئك القـوم الآخرين الذين لم يفعلوا أي شيء على الإطلاق ، وكان من المحتمل ألا يـكونوا شيئاً لولا قدرة متواضعة على تدوين ما كان يفعله الآخرون ، أيهما هو المبتدع الحقيقي : ذلك الشخص الذي يبتدع الوحي أو من يتلقاه فحسب ؟ -

* * *

الفصل الحادى عشر

أصل الإبداع : الأفكار

أن أصل الإبداع سوء أكان نظرياً أم فنياً أم عملياً هـو ، بالتأكيد ،
فكرة؛ وتنمو هذه الفكرة بالتدريج، عن طريق الاتصال بجاراتها أو باستخدامها.
وتصبح مأرباً متحكماً لا يمكن مقاومته، وفى النهاية تسفر عن ضرب من الإبداع ،
فهو ذا « تين Taine » يقع فى غرام هرة، ويصبح مفتوناً بالقطط، فيكنز ويرعى.
ذكريات لا تحصى عن إغراء القطط ، وحين يبدو أكثر شبهاً ، عن ذى.
قبل ، بدارس ضئيل طاعن فى السن يروح ينتج المقطوعات الغنائية الشهيرة عن.
القطط ، وثمة رجل آخر لاحظ قطة ضالة فى الشوارع : وقد رأى المخلوقة.
المسكينة الصغيرة تتطلع أحياناً فى ضراعة إلى حد المارة الغافلين ، وأحياناً
أخرى توهم نفسها أنه ليس ثمة ضير فتروح تعدو كما لو كان لها منزل حقاً
وأنه منها قاب قوسين أو أدنى ، ويروح هذا المنظر يذكى ضرامه عبر السنين ،.
ومن المحتمل أن يترجمه رجل آخر فى لغة غثة ركيكة ، أما هذا فيتحدث عنه فى
كلمات رقيقة تتغلغل إلى شغاف القلوب ، وبعدحين تأتى الثمرة منزلا للحيوانات.
الضالة .

وما من شيء أوفر بساطة ، فالبساطة خاصية جميع الأفكار الخلاقة ، ولا مراء أن أناتول فرانس وموريس باريه هما الفرنسيان اللذان كان لهما أعظم نفوذ على مواطنيهما خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر والجزء الأول من القرن العشرين ، ولما اعتمل فى عقليهما قبل الفلسفات التى صدرت عنهما ، رد فعل بدوره ، على ملايين من العقول الأخرى ، فأناتول فرانس إذ تطلع إلى السماء بنجومها المتلألئة تخاذل واستخذى إزاء تفاهة الإنسان بأطماعه وأهوائه ! والأرض التى فى ضآلة الذرة بإمبراطورياتها الحقيرة ، أما باريه إذ وقف عند قبر والده بساحة كنيسة شارم بينما كان الجرس يدق حداداً والوجوم المهيب يطوى القرية أدرك الاستمرار القائم بين أسلافه و نفسه ، وكذلك أدرك ما دعاه بحقوق التربة ومطالبها ، وقد ملأت هذه الرؤى حياة كل من الرجلين ، وما زالت هى الروح التى تسرى فى أربعين مجلداً ، والتى تحكمت فى تفكير الملايين من الناس .

والمشكلة فى وضوح هى كيف يمكن إحراز مثل هذه الأفكار التى تملأ الروح وتصوغ الحياة .

إن روحنا خضم ، وعلى الرغم من أن إمكانياتها وانطباعها ومرونتها غامضة خفية وقلما يحدها نطاق معرفتنا فليس فى الاستطاعة إنكارها ، وما نختزنه خلال حياتنا غامض خفى كذلك ولكنه بعيد المدى دون شك ، وقد حدث أن عجوزاً من الألزاس بفرنسا راحت تتكلم بالعبرية فى مرضها الأخير وكانت فى الثمانين من عمرها ، وقد مر خمسة وستون عاماً منذ كانت تقوم بالخدمة وهى صغيرة فى منزل حاخام القرية ، حيث كانت تسمعه وهو يطالع سفر التكوين ، وهى بالمطبخ ، ولم تكن يهودية ، كما أنها لم تكن تهتم على الإطلاق بهذه المطالعات ،

وعلى الرغم من ذلك فقد انطبعت سلسلة الأصوات الأجنبية بأسرها على واحدة من ملايين أسطوانات التسجيل فى ذاكرتها؛ ومن منا لم تستبد به الدهشة أو الحيرة، باستعادته للحياة عبارة غلفتها أكفان النسيان، كان قد سمعها منذ أعوام، وكان مبعث هذا بعض مقاطع تحمل لها شبها ضعيفاً؟ فتقع الكلمات المنسية على آذاننا، غريبة ولكن دون أن ننكرها أو لا نتعرف عليها؛ وعلى غير ترقب تحيي فينا نغمة موسيقية، أو عبير زهرة، حالات عقلية انتزعنا أنفسنا منها، فى الطفولة أو فى سن المراهقة، لأن امتلاءها الغامض جعلها صعبة الاحتمال. كما أن نفاذها جعلها صعبة الإرضاء، وهناك مناطق كاملة فى أرواحنا لا تشترك فى شيء مع جدب حياتنا اليومية، يكشفها الإلهام، وهو حالة التوتر الشديد التى يهيئها لنا الوجدان أو الفصاحة أو الموسيقى أو مجرد قدح من القهوة القوية، كذلك كثيراً فى حياتنا، ولكن أكثر فى فترات معينة منها فى فترات أخرى، نحس أن رؤيتنا العقلية أشد حدة مما ظن الناس، بل مما ظننا نحن أنفسنا، وقد نسمع قوماً يتحدثون، وبينما تمر الكلمات بعضها ببعض، نسجل البواعث عند الناس كما لو كنا نطالعها؛ وقد نتوجه لسماع محاضرة، فنقدرها أو ننقدها، خلال إلقائها، كما حدث نادراً من قبل، فنحن نعى كل ما يسطع داخل عقولنا، وفى غضون ذلك نعرف أن إشراقات، أقل جلاء قد تستجمع ضوءاً إذا راقبناها دون ادعاء بأننا نفعل هذا، وقد يأتى فى أعقاب ذلك وهج نادر.

أما ما نراه عندئذ، وما ندونه أحياناً على قصاصات من الورق نحرص عليها حرص البخيل على ماله، فهى البذور الحية التى ينبثق منها الإبداع، أو التى

تنمو منها حياة أكثر امتلاء ؛ وقد تكون قصيرة العمر غير مستقرة ، أو حجبها عن البصر مدافعة غيرها لها ، ولكنها لا تختلف في طبيعتها عما يصبح في النهاية ، بالعقول الموهوبة الرفيعة ، عمل العبقرية ، أما المشكلة فهي في طريقة إمكان مضاعفتها ، أو تقويتها ، أو فوق كل شيء ، طريقة إمكان الوصول إليها حين تتراجع إلى منطقة اللاوعي أو العقل الباطني .

* * *

الفصل الثانى عشر

كيف نستطيع التوصل لآرائنا الخاصة

إن الفلاسفة الجديرين بالاسم حقاً يراودهم جميعاً الطموح بأن يقدموا تفسيراً عن العالم ، ويدرك معظمهم مقدار ما فى تلك المحاولات من تكهنات مجردة ، وعلى النقيض يؤكد معظمهم تزكيتهم لبعض العمليات العقلية التى نستطيع عن طريقها أن نتوصل للحق ، هذه الكلمة التى أخذت تبلى من السرف فى استعمالها ، والتى تقف اللاأدرية الحديثة على حذر منها ، ولكن ما من أحد يعترض إذا فهمنا أنها تدل على الإشراق الذى يصحب احتكاك عقلنا بما نسميه الحقائق ، وحين نعى مثل هذا الإشراق يصل بحثنا العقلى إلى ختامه ، ويأخذ الهدوء مكانه من العقل .

ويبحث العقليون من أمثال أرسطو ، وفلاسفة النصف الثانى من القرون الوسطى ، وديكارت ومعظم العلماء المحدثين ، عن هذا الإشراق فى المنطق السليم ، فهم يريدون بياناً كاملا واضحاً من القرائن ، ويضعون قواعد مضبوطة للعمل بموجبها وتحقيق النتائج التى تسفر عنها ، فتبدو فكرتهم كمجموعة علمية ،

أحسن وضعها بقاعة فسيحة ، ورتبت فى تتابع منطقى حتى إن الزائر لا يحدوه الميل فى أى وقت كى يقف فى غير وثوق أمام النماذج المعروضة ليقوم بفحصها .

وهناك طريقة أخرى ، عكسية تماماً ، استهوت دائماً القوم ذوى النزعة الدينية أو الشعرية ، أعنى ذوى الاتصال المباشر بالحقائق الروحية ، فشاعر الأغانى لايعود إلى دائرة المعارف حين يحس هبوط الوحى عليه ، ونحن ، جمهرة المترددين على الكنائس من عامة الناس ، نسر بعظة جيدة أو بكتاب دينى نافع يساعدنا فى تأملاتنا التى لا تتهيأ لنا إلا بعد لأى ، أما كبار المتصوفين فليسوا فى حاجة لأى عون من هذا القبيل ، فعقولهم تسبح سراعا ، إلى حيث لايعلمون ، وتمكث هناك ، حيث تحتويها نشوة التأمل ، أما إن عقولهم ليست فريسة للافتنان، بصرف النظر عن نبله ، بل إنها ، على العكس ، تتبع قواعد منطق معين ، فهذا يتضح من واقع الأمر ، وهو أن التأمل ، كما يظهر من كتاباتهم ، يكشف أصلا نفس الأشياء لهم جميعاً ؛ كذلك فإن فضيلة هذه العملية العقلية تظهر فى كتاباتهم ؛ ومن المؤكد أن التسامى هو سمة الأدب التصوفى ، ولكن السهولة العجيبة أيضاً سمة أخرى ، وقد اعتادت مدام جايو القول بأنها تستطيع الكتابة بلا انقطاع عن الحقائق الروحية ، وهى لاتختلف فى هذا عمن يفوقونها أمنا من المرشدين ، ولا يمكن اكتشاف أى أثر لجهد فى كتاب القديسة تريزا : (قلعة الروح) أو السفر الرابع من « المحاكاة » وتفيض مقطوعات عديدة من رسائل القديس بولس بالشعر الموسيقى أكثر من أى شىء عداها ؛ قارن التوتر المحموم الذى يكاد المرء أن يلمسه فى « أفكار » بسكال التى هى نتاج موهبته العقلية المجردة ، بالحالة العقلية التى يسهل استنتاجها من الأسطر القليلة ، التى خطها فى عجلة على رقيته المشهورة ، إذ كانت نتاج إشراق روحى ؛ ومن بلوتينس إلى

سوندنبرج راح جميع ذوى الإشراق الروحى يسهبون فى الكتابة عن فيوض النور التى تنتجها عملية التأمل التى تضفى عليهم البهجة ؛ ولكن هل هناك فرد واحد ، رجل أو امرأة ، لم يختبر شيئاً من هذا النوع ؟ .

وللمحدثين من ذوى الجلاء العقلى غير المقيد ، مثل نيومان وبرجسون ، صلة وثيقة بالمتصوفين ؛ ولا يستطيع قوم لهم مثل هذه الثقافة ومثل هذه القراءة المستفيضة إلا أن يعرفوا قيمة المعلومات الدقيقة ، ولكنهم يؤمنون باستخدامها بطريقة منطقية رفيعة ؛ وكانت تراود باستير ، دون انقطاع ، نوبات من الجلاء العقلى السائب ، التى كان يجد بعد ذلك عناء شديداً فى كبحها وإخضاعها لقوانين العلم العادية ، ومثل هذه النوبات من الجلاء العقلى ليست إشراقات روحية، بل هى ثمرة مقارنات خاطفة كالوهج ، أو متناقضات من مجموعات من الصور الذهنية المختزنة فى العقل ، والتى تزيد فى مرونتها على المعادلات العقلية التى فى أغوارنا ، والتى يسميها نيومان « فكرية » باعتبارها نقيضاً لغيرها وهى «الواقعية » ، ولو طالعت كتاب « قواعد الاتفاق » أو كتاب « التطور الخلاق» لتحققت من أن معالم فن التفكير الواضحة هنا قد زاد اعتمادها قطعاً على الخبرة وقل اعتمادها على مجرد العرض ، فهذه أكثر من النصيحة التى أسداها ديكارت ، أو ، فولك ، أو هربرت سبنسر ، ولكنها تستهدف بالضبط نفس المأرب ، وإن عملية انطواء المرء فى شغف على مشاعره الباطنية لأفضل من عملية ظاهرية ، ولكن الهدف المنشود فى كلا الحالين هو إحراز أفكار خصيبة مثمرة ؛ وبالنهج ذاته يصعب مطالعة مايقوله الشعراء عن إلهاماتهم ، أو مايقوله الفنانون عن فنهم دون أن ندرك أن هؤلاء الناس ، الميالين دائماً لتوجيه

قدراتهم لأحسن المناحى ، يضعون فى الواقع لأنفسهم مبادئ فن التفكير ؛ وتصف كتابات رجلين من المحدثين هما نتشه وباريه ، طريقة لإنتاج الفكر .

فهل فى الاستطاعة تلخيص مايقوله جميع هؤلاء الانطوائيين فى طرائق مختلفة هائلة العدد ؟ أجل ، طالع مايكتبون ، وأنصت لما يقولون ، وحلل طرقهم ، واختبر موقفهم فإنك ستجد أنهم يعيشون ويفكرون ، وهم ملتصقون قدر الاستطاعة بمبدأين أساسيين : —

١ — كن فى إهابك .

٢ — التمس نفسك .

الفصل الثالث عشر

كن نفسك في إهابك

« كن أنت نفسك أو كن فى إهابك إذا شئت أن تبتدع شيئاً مبتكراً » ... هذه حقيقة واضحة لا يختلف فيها اثنان ، فكيف تستطيع أن تفعل أى شىء لن يكون حقاً فعلك إذا لم تكن مدركا لشخصيتك ، أو إذا كنت أى شخص سواك ، بل إذا كنت كل شخص سواك ، أو إذا لم تكن بالضبط الرجل الذى تعرف أنك تستطيع أن تكونه .

وهناك عقبتان رئيسيتان فى طريق رجل يرغب فى أن يكون فى إهابه : الادعاء والاستخذاء ، فقليــل من الناس هم الذين لا يعرقلهم أو لم يعرقلهم ، فى أية مرحلة من حياتهم ، إحدى هاتين العقبتين .

وليس الادعاء أو التصنع هو الثقة ، فالثقة حين تصحبها صفات أصيلة ، لا تكون بعد ذلك مجرد ثقة ، إنما ندعوها تألقاً ، ولقد كسب بلزاك نفسه فى حديث بطريقة خدشت ذوى الأذواق المرهفة إلى حد السرف ولكنها سرت علماء النفس ، ونفس الخطأ شائع بين الفنانين الذين يعجزون عن كبح ابتهاجهم بما

تتمخضه عقـولهم من صور ذهنية ، ثم ابتهاجهم تدريجياً بأنفسهم ، وجميع الناس الموهوبين بحيوية قوية أو بخيـال حاد ، ومعظم الناس ذوى النزعة للاستقلال التى تـكبتها الحياة بقسوة ، لا يخشون أن يشقوا لأنفسهم طريقاً إلى المقدمة ؛ وتسفر إضافة الأنجلوسكسونيين إلى إيمانهم بحقوق الفرد ، عن نتائج مماثلة ؛ وأولئك الذين يظنون أن الأنجلوسكسونيين ينزعون للصمت أو للتحفظ قد شاهدوهم فى ظرف معين كبحوا فيه جماح أنفسهم ، أو أنهم لم يعيشوا معهم فى غير كلفة .

كذلك فإن ازدراء الطبيعة البشرية نفسه ليس على الدوام تصنعاً ؛ فهو فى أعلى صورة ليس سوى سرف فى الإخلاص يشوبه غرور أو تأكيد روسو أنه مامن أحد أفضل بكثير من نفس الإنسان ، ولقد وجدت دائماً متعة فى تصريح باريسية متوقدة القريحة بأنهـا « لن تـكون طبيعية مالم تـكن متصنعة » ؛ إن معظم الناس يموتون دون أن يقولوا أى شىء يماثل هذا فى إيجازه الرائع ؛ وقد تـكون مارى بشكرستيف ، وقد أصبح لدينا الآن بعض أقسام من يومياتها على حقيقتها دون ماتدخل من أندريه ثيرييه فى إعادة صياغتها ، ملـكة للغزلات أو للمتحذلقات ؛ ولـكن المؤكد أنها مؤلفة لإحدى الوثائق البالغة حد السرف فى صدقها وإنسانيتها ، التى نمـلكهـا ؛ وهل فى الأدب الإنجليزى كتاب أشد مضايقة من أفالينا ؟ ، ومع ذلك فإن هـدوء فرانس أربلاى النفسى عجيب فى صفائه حتى إن الـكتاب بعد قرن ونصف لم تقض عليه غلطاته .

والاستخذاء ، أو فقد المرء ثقته بنفسه ، هو ضرب من عـدم الإخلاص بدرجة تجعل من المستحيل على الدعى ألا يشعر بتصنعه ، وهو يحمل معنى قيام

المرء بدور المتظاهر بغير حقيقته ؛ وكيف يتيسر تخلف أية حيوية للتفكير الشخصي ما دامت تستنفد في هذه المتاهة ؟، وكيف يتيسر لامرئ أن يأمل في أن يصبح مبتدعاً، حتى في أقل نطاق، مادام يصر على أن يكون ممثلا؟...والقوم الذين يدعون أنهم يتتبعون ، دون عناء ، مناظرة متشعبة الأطراف والذين يدعون بأنهم خبراء في السياسة الخارجية ، لأنهم سافروا وكانوا في جنيف عند انعقاد آخر دورة لعصبة الأمم ، والذين يتظاهرون بمعرفة أناس لم يقابلوهم قط ويقولون « صديقي فلان » عن شخص بارز قابلوه مرة واحدة فقط ، والعديد من الناس الذين يظنـون أنه مما يشينهم أن يقولوا : « لا ، لم أقرأ قط رسائل ولتربيج ، ولكنى أقرأ توافه كل مساء وأنا بالفراش » ، والقـوم الذين يصفقون لخطيب أجنبي لم يتعلموا لغته قط ، هـؤلاء الناس ممثلون ، بعضهم بارعون كأى ممثل على خشبة المسرح ، ولـكنهم لم يتفوهوا قط بلفظ يعتبره أي شخص عداهم جديراً بالتذكر ، ولن ترد على خواطرهم أية فكرة تمنحهم الرجاء بأن يكونوا أفضل من مجرد جهاز الحاكي .

وقد ينساق الكتاب المحترفون بالعشرات والمئات ، لأن يصبحوا غير مخلصين ، ومن ثم يفقدون جميع الفرص المتاحة للتحسن الأمين ؛ ويكاد الكثير منهم أن يضطروا ليكونوا كذلك ؛ لقد كانوا في مبدأ الأمر مخلصين في تعلقهم بالأدب ، ولـكن لم يكن لديهم ما يقـولون سوى القليل ، وحين قالوا هذا القليل لم يكونوا في مركز يسمح لهم بالوقوف ، فقد كانوا كتابا ولا مناص لهم من الكتابة ، وهـكذا فإنهم يكتبون ، في موضوعات شتى ، دون حافز حقيقي ؛ ولـكنهم ، مع الأسف يملئون الصحف ، وأن طلاقتهم الجوفاء ، مع تفاديهم لـكل مايحتمل أن يحرجهم ، ومزاجهم المصطنع ، لاتستهوى لحظة واحدة ، حتى القارئ غير المحترف الذى تعوزه المعلومات ويدرك أنه

لايحصل عليها ، ولـكن على الرغم من ذلك فإن تلك الـكتابة هى أغنية الطفولة التى تهدهد العقل الحديث لينام ، ولتلاحظ أنه حتى أولئك الذين يسمون بالمتخصصين أو الحكماء يستطيعون تصغير أنفسهم بمثل هذه الحيل ولقد طالعت مؤلفات خبراء فى الطب وعلم الآثار الذين كانوا خبيرين قبل كل شىء بقول نعم ولا فى العبارة الواحدة .

والأساليب الأدبية مدمرة لشخصية الكاتب، فلشد ما اعتاد رجال الأدب الرومانسى الفرنسيون أن يجهدوا أنفسهم للصعود إلى مرتفعات فكتورهيجو ! وما أكثر القرائح الفرنسية التى لابد أن تكون قد هلكت فى ظلام الأدب الواقعى ! وما أكثر عدد الكتاب ، بين عام ١٨٩٠ ، وعام ١٩١٠ الذين راحوا يحاكون إيقاع أناتول فرانس الرضى دون أن يستطيعوا اللحاق بمدى تصويره ، أو حصافته أو حتى صفة تبذله ! ومن ذا الذى يستطيع أن يذكر قدر قوة الملاحظة الأصيلة للحياة أو للقلب البشرى يمكن أن يدمرها مجرد انتحال إيقاع ما؟،وكل من راح يجرب يده فى محاكاة فنية يعرف قطعاً مدى الغرابة التى تساعد بها هذه التسلية ما يحتاج إليه من إلهام خاص،وماتذكيه فى المرء من تيسير للإنجاز ، ولـكن أليس هذا هو مايحدث بمحاكاة هزلية بحجة الرسم ؟ ومحاكاة الصفات الظاهرية معوق للإبداع الحقيقى وهو — على حد قول هربرت — يصبح فى النهاية وبالا على الخلق، وعدم الإخلاص بالفعل أو القول أو الـكتابة ، من شأنه أن يدمر الشخصية ويؤدى إلى نتائج سلبية ، وبقدر ماتزيد محاولتنا لنبدوا على غير حقيقتنا ، تقل فرصتنا لنصبح قادرين على استكمال ما نستطيعه من نمو حقيقى .

وانعدام ثقة المرء فى نفسه هو الخطأ الثانى الذى يمنعنا من أن نكون فى إهابنا ، وله الحق فى قدر من الاهتمام والتعاطف أضخم بكثير من قرينه المماثل .

ويلزم التمييز بعناية بين انعدام ثقة المرء بنفسه وبين الخمول الذى كثيراً مايتنكر هو الآخر فى زى التواضع ؛ ولا يستطيع الكثيرون أن يكونوا قط هم أنفسهم لأنهم يعجزون عن أن يصمدوا طويلا حتى يشعروا بشخصيتهم الخاصة ، فهم الرجل الذى ينصتون إليه أو الكتاب الذى يطالعونه : إنهم ليسوا فى إهابهم ؛ وفى الطفولة ، يستطيع الطب أو التمرينات الرياضية علاج هذا الضعف ذلك لأن الجهد من أى نوع يكفى لأن يخلق بداية الشخصية ، كذلك تستطيع المنافسة الطموحة المهذبة أو الاهتمام الذاتى السليم مساعدة التعليم فى مهمته لتنمية الإمكانيات الفردية ، ويظل الرجاء قائماً ، فى مرحلة متأخرة من الحياة ، إذا كان فى الاستطاعة ابتعاث الرغبة فى مقومات الفردية أو فى رؤيا النعيم الذى تشمله أعياد العقل ، ولكنهم قلما يستطيعون ، بل إن الكوارث ذاتها تترك الخمول دون أدنى تأثير عليه .

وقد يكون التخاذل أو فقد المرء ثقته بنفسه ضربا من الغرور : من الأفضل أن ينكمش المرء داخل ذاته عن أن يظهر كما هو ، أو بتعبير آخر ، أدنى مما يود المرء أن يكونه ؛ وكثيراً أيضا ما يكون هو الوعى بأن المرء سيىء التأهب ، بالميل الفطرى أو بالمواهب الطبيعية أو بالتعليم ، أو بالظروف الراهنة ، لفعل ما يقوم بفعله ؛ أو هو تقريع ضميرنا الغامض حين لا يكون استعدادنا العاجل ما كان محتملا أن يكون ؛ والدعى المحتال لا يهتم ، أما الرجل الشريف ،

وخاصة الرجل الذى يعيش على أمل ، قل أو كثر ، أن ينتج جمالا يوما ما ، فإنه يخشى ضياع فرصة أخرى متاحة ، بعد ضياع الـكثير غيرها .

وبدهى أن تجد الأوهام من كل صنف فريسة سهلة فى الطبائع الحساسة ؛ ويشتهر الفنانون بأنهم ، على حد تسمية غير الفنانين لهم ، غير متزنين ، وقـد يكونون راضين تماما بمـا قاموا به فى المـاضى : فـكثيرا ما تغمرهم بالمتعة قصيدة أو فصل من قصة كتبها أحدهم منذ عدة سنين وابتدأ يطويها النسيان بدرجة يجعلها لا تبدو مثل عمل أى شخص آخر ؛ ولـكن هذه القصيدة وهذا الفصل كانا مبعثا للضيق لا الرضا فى أثناء كتابتهما ؛ ويحمل الفنان فى ذهنه دائمـا فـكرة كمال مستحيل ، فحينما يعمل أو قبيل بدئه بالعمل يكون ذهنه مليئا بالصور الذهنية المراوغة ، ولـكنها موفورة الفتنة ، ممـا يؤمل أن يثبتها بالـكلمات ، وحالمـا يحاول أن يفعل هذا ، بل يحاول أن يرى هــذه الصور الذهنية عن كثب ، فإنها تختفى مخلفة فقط شذرات من التعبير الذى راح يلفها فيه ؛ وهذه المخلفات كافية لإثراء الروائع ، ولـكنها إذا قورنت بالمظاهر الغامضة التى سبقتها فإنها تـكون كالزبد الذى يذهب جفاء ، طالع يوميات كاترين منسفيلد وعندئذ تدرك ما الذى عانته كاتبة تبدو كل لمسة لها حاسمة ، مع شعورها بأن كل ما كانت تفعله ، وهو بعيد عن أن يكون نهائيا ، كان تجريبيا وناقصا ، والفـكرتان : « يمـكن التعبير عن هذا بصورة أفضل » ... أو « هناك من هو واثق أنه يعبر عن هــذا بطريقة أفضل » هما وهمان يشلان الفـكر ، والاستخذاء لفظ ملطف يصف أثرهما .

وكم من مرة سيفـكر الفنان فى ند له ، قــد يحبه أو لا يحبه ، ولـكنه

معجب به ، ويتصور أن هــذا الشخص سيؤدى نفس العمل بسهولة عجيبة وبأسلوب أفضل كثيرا ، وكثيرا ما يراوده الشك فى موضوعه ، ويعتبره أدنى مرتبة من بضع موضوعات قد يكشفها له عاجلا قدر ضئيل من التفكير ، وقد تستبد به أيضا نوبات أخلاقية فيتخيل الآثار العملية لما يقوم بإنتاجه على العقول التى يبالغ فى ضعفها أو حساسيتها ، وتكاد شارلوت برونتى أن تقول إن ضميرها ما كان ليسمح لها أن تكتب ، مرتفعات وذرنج ، حتى ولو كان إلهام شقيقتها قد تهيأ لها ، وجميع هــذه الأفكار ، الأجنبية عن الفكرة التى ينبغى أن تحتكر الانتباه ، ما هى إلا أوهام تحجب القوة العقلية وتضعف قوة الإرادة اللازمة للإنجاز الفنى ، وإذا افترضنا تجمع ما يكفى منها ، أو إلحاح واحدة منها مدة طويلة كافية لخلق عادة ، كف المرء عن أن يكون هو نفسه بعد ذلك ، أو لم ينقطع عن أن يكون هو نفسه ولـكن فى صورة مصغرة .

فماذا يستطاع عمله ؟ ، إن دومنيك يتخاذل فى قصة فرومنتين الأدبية الرائعة متوهما أنه من الأفضل أن يكون فى إهابه كسيد ريفى على أن يحس كما لو كان قزما بين الشعراء ، وهـذا حل قانط للقضية ، فبلزاك كان حريا ، بعد فشله السابع أو الثامن ، أن يلجأ إليه هو الآخر ، ويكتفى بكونه من رجال الطباعة فحسب ، كما كان قطعا فى ذلك الحين ، ولـكن الوحى هبط عليه بعد عام أو عامين ، ولم يزايله بعد ذلك أبدا ، ولعل الجهد الذى بذله كأحد رجال العمل حفظ قوة إرادته كفنان فى عنفوانها ، ويستفيد كل شخص بمزاولته مهمة ما ، خيرية أو ذات طابع آخر ، تفرض تبعة ذات سمات محددة، وبوجوده فى صراع من أجل فكرة حقيقية ، وبتحدثه عنها علانية ، والفنان ، الذى

ليس له حرفة أخرى ، ويشعر بأشباح جاثمة على صدره ، هو شهيد ، وينبغى أن يصنع شيئا للفرار من العذاب والإذلال .

وسنجد ، مهما كانت الطريقة التى نلجأ إليها ، أن أى مثل أعلى أو فكرة قوية فينا ، تشفى التخاذل ولا تخلق شدة مراس فحسب بل جاذبية أيضا ، وحالما نشعر بأية من هاتين القوتين تملأ عقولنا وحياتنا ، سنشعر أيضا بعدم القدرة على مقاومتهما ؛ وهكذا فمسألة كيف يكون المرء فى إهابه هى فى الختام مسألة خلقية ، بمعنى كيف يستخدم المرء مواهبه العقلية على أكمل وجه ؟ .

الفصل الرابع عشر

التمس نفسك

إن معنى أن يكون المرء فى إهابه ، فى آخر المطاف ، هو كما قلنا ، تصلب فى الانتباه أو الإرادة ، أما معنى أن يلتمس المرء نفسه فنقيض ذلك ؛ فنحن حين نسرف فى الانتباه للأمور الخارجية لا نكون عائشين مع أنفسنا ؛ وقد نحس أننا فى أقصى حالات الوعى بشخصيتنا حين نكون فى ذروة النشاط ، وحين ننكب بكل عصب فينا على متابعة موضوع ما ، ولكننا لا نحلم أبداً أن نقول إننا نلتمس أنفسنا حين نكون فى خضم هذه الحالة التى تعج بالعمل ، بل على النقيض فنحن حريون بأن ننشد ختامها ، ونحنّ لفترة من التأمل الهادئ لنمتلك روحنا فى سلام ، واللغات مليئة بالاستعارات التى تصف تلك الحالات الوجدانية المضادة .

وإننا « لنجد أنفسنا » فى أى جو عقلى يستعيد لذا كرتنا ذلك الجو المتعلق بمجرى ذكريات فى عزلة ، وبحلم يقظة فى الشفق الحالم أو فى منظر خريفى هادئ ، وبأزمة معنوية تعيد لنا حيويتنا دون أن تسحقنا ، وإننا لنعرف أوقات من الجيشان الوجدانى قلما نعرف طريقة انبثاقها ، ولكننا نشعر إبانها بانعزالنا

عن بقية العالم ، ولـكن بتعاطف وتفاهم مع كل شىء ؛ ومن ضمن البواعث لذلك : كتاب عظيم ، حضور عبقرى أو قديس ، موسيقى ، ولـكن توجد بواعث أخرى ، أحياناً تـكون غير محتملة كتلك التى تبتعثها ظاهرة التنويم المغناطيسى التى تتغلغل بنا إلى حيث توجد أغوارنا الحقيقية ، ولا شك فى أن عازف الـكمان ، حين احتضانه لآلته فى شغف أخاذ ، يحبها لما تضفيه عليه ، ولـكن التألق الناعم الذى يـكسو وجهـه يعنى بداية نشوة مبعثها استمتاع الروح بنفسها ، وكل الطبائع التى تمارس النشاط الفـكرى ، وكل الطبائع المثمرة تنزع لمثل هذه الحالات .

وقد اعتادت أسرتى ، وأنا غلام صغير جداً ، التنزه فى واد جميل تحت خميلة من أشجار البلوط تظلل الأسوار الرمادية والسقف الإردوازى الحائل اللون لطاحونة قديمة ؛ وكانت الجماعة تقوم ، قبل الرحيل ، بزيارة الطحان لمدة ربع ساعة ، فتمتلئ الردهة بحيوية غير مألوفة ، وكنت عادة أفلح فى التسلل ، دون أن يرانى أحد ، من خلال بهو يفتح على درج حجرى ؛ وكان هذا الدرج غارقاً فى ضوء خافت كأنه الغسق حتى جعله يبدو موحشاً كقبو تحت الأرض ، وكان يهبط بالمرء دائرياً ، لا أقل من ثلاثين درجة ، وكلما اقترب من القاع اشتد الضوء سطوعاً ولـكن بلون أخضر عجيب ، ثم يصل إلى السامع صوت اندفاع المـاء السريع فوق الحدباء ، وأخيراً يتجلى المنظر الذى طالما ساقنى الحنين إليه ، وهو غور عميق فى أحشاء طبقات من الصخور الإردوازية المصقـولة ، وقد تدلت من كل شق رطيب طحالب وأعشاب مزهرة من شتى الأنواع ، ومن فوقها جميعاً تتألق لدائن الصخور كأنها قلائد العقيق ، وعلى يمينى بدت العجلة الضخمة هائلة متوثبة كأنها الوحش الكاسر ، فـكنت أنأى ببصرى عنها ،

لعلمى بأنى سأفزع إن هى بدأت تدور فجأة مطلقة ضوضاءها الصاخبة ، لدى تحريك آلة الحديد والحجر التى فوق ؛ ولكن عن كثب كان النهير ، فسيحاً ضحلا ، عجيباً فى صفائه وبرودته ، يعكس كل لون أخضر من الأسوار المحيطة والقليل من اللون الأزرق من فوق ، وكنت أمكث هناك زمناً أظنه طويلا ، وأنا أحياناً متوتر الأعصاب ولكنى عاجز عن الرحيل ، وبدا لى أن كل ما رأيته وما سمعته وما أحسسته وما جال بخاطرى فى هذا المكان المسحور ، ملكا لى بحق الاكتشاف ، أكثر من أى شىء آخر .

ولم يعد فى استطاعتى قط أن أطالع أى شىء عن تيار الأحاسيس دون أن أستعيد لذاكرتى نهير الطحان ؛ وإننا لنستطيع فقط أن نصل إلى أقرب وأدق ما هو شخصى فينا ؛ أعنى عقلنا الباطن ، بترك عجيج العالم حيث هو ، والبحث فى أعماق السكون عما يميزنا عن بقية الرجال والنساء ،

وفيما يلى نسوق ما يبدو أعظم القواعد العملية للنجاح فى هذا البحث : —

١ — تلمس مزاجك الخاص ، ومعنى مزاجنا هو الطبقة الباطنية من أحاسيسنا البالغة الخصوبة والتى ستقدم أكثر الثمر ، وبعبارة أخرى أنه يعنى الأشياء فى أية صورة يحتمل أن تكون ، التى تدور حولها أفضل أفكارنا فما هى تلك الأشياء ؟ من المؤسف أنه لا مناص من القول : إن علم النفس الردىء ، الذى كثيراً ما يؤثر على التربية والتعليم ، يجيب قائلا : « إنها الأشياء التى تصرف فيها أعظم قدر من الدراسة » ، بينما ينبغى أن يكون الجواب ، على النقيض من ذلك ، هو : « إنها المادة للتفكير التى ينبغى أن تتناولها بأكبر قدر من اليسر وأكبر قدر من الاستمتاع » ويستحيل إمعان الفكر فى مبادىء

للتفكير دون أن يعترف المرء لنفسه بأن ما يحاول فعله هو تخطيط طريقة تقربنا جميعاً من العبقرية، والآن فإن العبقرية مبدئياً هي القوة الناتجة فى يسر ونعومة، فالعبقرية لا تشق طريقها متثاقلة متجهمة أبداً، وحين يعرفها «بفون» Buffon بأنها « جلد طويل المدى » فإنه لا يعنى جلد الجهامة والعناد ، بل مثابرة الاستمتاع، ومن ذا يصدق أن نيوتن ، خلال السبعة عشر عاماً من بحثه عن قانونه ، لم ينل اللذة الغامرة مما تسميه خطأ « عمله » إنما مما ينبغى تسميته ، استغراق ذهنه الساحر ؟ وليس يغرب عن بالنا أبداً أن العبقرية تستطيع أن تكرس لعملها مدى أطول مما تستطيعه الموهبة العادية التى تحتاج لفترات من الاسترخاء، وعلة ذلك أن استرخاء العبقرية قائم فى شعورها بتأديتها لما تحب أن تفعله، وتبغض أن تتخلى عنه ، ولعل « بوب » الذى كتب مرة يقول :

«من الأديرة الهائمة الغارقة فى أحضان الكروم »

كان يعلق متهكما على شلى ، ولكنه ما كان ليستطيع قط أن يكتب قصيدة مرتفعات يوجانا ، ولنتخيل ديكنز يكتب قصصاً عن المجتمع ، فقد تصحب العبقرية مواهب أخرى ، وقد يخدعنا تألقها بإنجازاته العديدة الأشكال، ولكننا لا نخلطها قط بالتقلب غير المستقر .

أية كتب تطالعها ببالغ اللذة ؟ فعلى أرففنا بعض مجلدات تكون أسرتنا ، وبعض آخر مجرد زائرين ، فأى الفريقين هو الأول ؟ أيهما نجد أنفسنا متلبسين عقلياً بالاقتباس منه لأنفسنا ؟ وأية موضوعات تهيئ لنا المتعة حقاً ؟ وعن أيها نتحدث بأوفر سهولة ، وبأكبر متعة ، لأنفسنا وللآخرين ؟ وأن التعليم ، والفكرة المشئومة بإنه لا مناص من أن يصحب الجهد كل شيء عظيم-

انحراف غريب فى كثير من العقليات الرفيعة — مسئولان عن الأوهام المضحكة، وكان أنجريس يفضل أن يمتدحه الناس على موهبته كعازف كان أكثر من عبقريته كمصور ؛ وكان فاجيير النحات يطلع زائريه على لوحاته ولا يطلعهم على تماثيله، وفى يوم ما اصطحب فلجيير صديقه «هنر» وراح يريه لوحاته وهو ينتقل به داخل مرسمه ، وأمام كل لوحة يصيح قائلا : « مذهل ! رائع ! « الأمر الذى كان يضفى البهجة على فلجيير ، وعند مرورهما على تمثال صغير — تخطاه فلجيير دون أن يلقى نظرة واحدة عليه — وقف زميله فجأة وقال بلهجته الإلزاسية : « آه ! ولكن هذا عظيم ! »

إن مزاجناهو أقرب الأشياء إلينا وفى متناول يدنا،ولكن إقناعنا به يستلزم حظاً أو خبرة ، فالبحارة الإسبانيون الذين خرجوا إلى المحيط من مصب نهر الأمازون لم يستطيعوا أن يصدقوا الوطنيين وهم يخاطبونهم بالإشارات بأن الماء حول السفينة صالح للشرب وماعليهم فقط إلا أن يملئوا منه دلاءهم ، عبارة « عصية على البحث » هى عبارة تنطبق ، فى معناها الشامل ، على معظم مانقوم بعمله، ومع ذلك فكلنا ندرك أن أكثر ما نحبه فى كاتب هو المؤلفات التى تعكس فى أصالة تامة موهبته الخاصة ومزاجه الخاص ؛ ومن الذى يطالع أشعار بوسويه الثقيلة الظل ؟ إننا نهوى الأشياء التى توفر لنا الأثر بأنها تنسكب انسكاباً ، ومرة ثانية أى كاتب لايدرك أن أروع صفحاته هى تلك التى سببت له أقل قدر من المشقة ؟ .

٢ — تكلم أو اكتب وفق مزاجك ، فالناس فى غمرة الحب أو سورة الغضب، أو حين يستبد بهم اقتناع قوى أو رغبة عارمة ، يكونون دائماً فصحاء

وقليل منا من لم تتح له الفرصة لسماع خطب أشد إثارة مما اعتدنا سماعـه من أعظم الخطباء ، يفيض بها أشخاص لا يهتمون قيد أنملة بالفصاحة، ولـكنهم فى حاله مرهفة من التوتر العصبي الشديد . ومن المعروف تماماً أن الـكتاب ذوى الدعامة المعنوية العميقة يمتلـكون مزاجاً أوفر خصوبة من مزاج غيرهم من رجال الفن فحسب ؛ فلماذا يؤثر الناس فى الوقت الراهن « ليون بلوى » الفظ الغليظ عن أناتول فرانس؟ وماالذى يجعل ليون دوديه ، على الرغم من ضروب تحامله، وعدم إنصافه وغروره ، فتى هذا الجيل ؟ وكل شخص يسير على مثل هـذا المنوال يوفر مثل هـذه النتائج ، والناس على حق فى عبثهم بمبالغات الخاصة من الـكتاب الواقعيين ، وقـد راح مستر جيمس أوريلى ، فى كتاباته بصحيفة « السياسى الإيرلندى » عن مستر جيمس جويس ، يصف طريقتهم دون تعاطف أو تقريظ فقال :

«اجلس فى بقعة مستحبة حيث يستطيع العقل التركيز على نفسه — أو على لاشىء إطلاقا — وضع نفسك فى أغوار حالة من السلبية أو الاستقبال قـدر الاستطاعة ؛ وحين تفكيرك فى لا شىء محدد اكتب عاجلا أى شىء يرد على خاطرك — عاجلا حتى لا تستبقى فى عقلك شيئاً وحتى لا تعيد الـكتابة — وحين تشعر أن الرشاد قد أخذ يسدد يدك فى الـكتابة ابدأ ثانية ، فاكتب مثلا سلسلة مكررة من حرف معين حتى تبدأ كلمة بهـذا الحرف على غير وعى ، وتواصل سلسلة أفكارك المسير ؛ وهاك هى الطريقة .

ولا مشاحة أن هذه هى طريقة الـكثير من رجال الدعاية العملية الذين يسمون أنفسهم خاصة الـكتاب الواقعيين ، ولـكنها ليست طريقة بعض الشبان

الموهوبين حقا من بينهم ، كما أنها ليست طريقة اثنين من أعظم أسلافهم شهرة ؛ وعليك بمطالعة كتاب « جان دارك » لمؤلفه « بجوى Peguy » وهو من روائع الكتب التى وضعها المؤلف فى سن الثانية والعشرين ، وعليك أيضا بمطالعة معظم مؤلفات كلوديل ، وعندئذ تدرك معنى كتابة المرء وفق مزاجه ؛ وكل المدارس الأدبية الناهضة هى غراس خبرة عقلية تظهر لفئة قليلة من الكتاب الأصليين أن الحرية والفطرة من مستلزمات الإلهام ؛ وجميعهم يعيدون اكتشاف نفس المبادئ ؛ ولقد سبق أن قلت أن القرون الوسطى مدينة بإبداعها المنقطع النظير ، فى جميع مناطق الفن ، لتحررها من الأوهام ؛ وهكذا فعل كتاب الأدب الرومانسى الفرنسيون حتى عرقلهم وهم الإعجاب ؛ ويود خاصة الكتاب الواقعيين أن يكتبوا من أغوار عقلهم الباطن ، أو بعبارة أخرى ، يودون أن يكتبوا فى إنسانية وخصوبة وانطلاق قدر المستطاع ؛ فكل امرئ يود أن ينتج وفق مزاجه ؛ وحين أسمع عن راسين ، وهو كمال عصره الكامل ، أنه اعتاد أن يكتب مسرحياته بالنثر قبل تغيير صياغتها إلى الشعر الدرامى الرائع الذى يصعب على الأجانب تسميته شعرا ؛ أشعر دائما بالميل لأن أظن أن تلك المسودات الأولى كانت انبعاثات من ذروة الأدب الواقعى مختلفة عن « فيدر » أو « أثالى » كما اختلفت طبعة فلوبير الأولى من كتابه «إغراء القديس أنطونيوس» عن الطبعة التى أصدرها فى النهاية وأفسدها دون شك ، ألم تلاحظ قط ميل معظم الفنانين لأن يصفوا أول رؤية تطوف بخواطرهم لعملهم فى لغة مألوفة أو أسوأ من ذلك؟ ، جهد فى ذروة الأدب الواقعى لاستبعاد الإنشاء الأدبى بقيوده وأوهامه أطول وقت ممكن .

وبعض الإيقاعات الشعرية — آخذين الكلمة فى أوسع معانيها — تجعل الكاتب أقرب إلى عقله الباطن من أية إيقاعات أخرى ، ويؤدى إيقاع شعر

هوميروس هذه المهمة بتوفيق أكثر من غيره ، وستشعر به في كتب مستر بيلوك حتى وإن لم يفض لك المؤلف بذلك ، كما صرح لي مرة ، أن هوميروس هو القصصي الوحيد الذي يطالعه ، وستشعر به أيضاً في أفضل كتب باريه « التل الملهم » الذي أخذت عنه أيضاً شهادة المؤلف ؛ وعادةالاشتغال على مثل هذا الإيقاع الشعري تنتج ما يكاد أن يكون إحساساً بدنيا غامرا يبين لنا أننا نتصرف وفق ما يضطرم في أعماقنا من مشاعر .

٣ — اعرف قيمة الحدس،والحدس هو العمل العقلي الذي ننتجه بأعظم قدر من الفطرة وبأقل قدر من سبيكة العناصر الخارجية المحسوسة ؛ وعلى حين بغتة يشرق علينا تألق ذهني لعلنانكون قد حننا إليه أو لعلنا لا نكون ؛ وفي لحظة واحدة نرى ، كما يفيد اللفظ ، مالم نره من قبل ، ونشعر بالطمأنينة التي تصاحب الاقتناع .

وهنالك أمثلة على الحدس نستطيع أن نسوقها بالمئات، منها مايلي : حل مشكلة استعصت علينا مدة لعلها طالت ؛ التغيير الذي يطرأ ، كأنه السحر ، على موقف بأكمله كنا ننظر إليه بتشاؤم فاختلفت نظرتنا الآن تماماً ؛ الاهتداء على غير ترقب لتفسير طبيعة شخص اعتدنا أن نقف أمامها حائرين ؛ التكشف الذهني للشيء غير الموصوف الذي نسميه معالم مدنية ؛ فكرة لأجل عملنا ؛ منظر مسرحي كامل نتخيله كما لو كان يمثل أمامنا ، إقناع قوي ، كالذي ملأ باستير وسبق أن ملأ ثلاثة أو أربعة رجال من قبله ، طريقة تبدو للآخرين غير معقولة ، هي على الرغم من ذلك معقولة كما تبدو لنا .

وخلال هذه التكشفات الذهنية القصيرة المدى ولكنها تخطف البصر لا نشعر بتوتر عصبي ، بل على النقيض بإحساس من الامتلاء والحرية ، وإذا

كانت لديك موهبة تقليد الآخرين ، فإنك تعرف أنك فى اللحظة التى تتخيل نفسك الشخص الآخر ، لا تحتاج إلى أى جهد للتفكير والكلام والإشارة كما يفعل ، وقد يعنى هذا بالنسبة لمثل متخلف ، دراسة مطولة لكل تقليد فردى ، أما بالنسبة للمثل الحائز على هذه الموهبة فإن الشىء بأكمله يتم فى بداهة ودون عناء .

وليست ضروب الحدس خصيبة دائماً كتلك التى سقناها ، فقد تكون لمحات خاطفة فحسب تختفى قبل أن نجد الوقت للإمساك بها ، وفاتنة مثلما هى مغرية صعبة المنال ، ولكنها دائما فاتنة ، وهى لاتشترك فى شىء مع المخاوف المنغصة أو الشكوك المكدرة التى كثيراً ما تبرز عبر منطقة وعينا بما يشبه نفس هذه الحالة ، والتى تبتعثها بعض الكتب وأحياناً أى كتاب ، وعندئذ نمارس ازدواجا عجيباً ، فنستمر مع الكتاب لأننا نهوى الإشراقات التى تصحب مطالعتنا ، ولكننا نكون على حذر منها ، لأننا ندرك أننا لو أوليناها كل اهتمامنا قطعنا أيضاً حبل الرؤية السحرية التى سببتها ولكنها لم تبتعثها ، وبذلك نستعيض بالحصباء عن الجواهر التى نداعبها فى رفق .

وكثيراً ماتأتى صغريات الحدس زرافات ، أو فى تتابع عاجل ، ولكن فى أكثر الأحيان دون اتصال ظاهر ، وحين نحلم ونحن متيقظون ، أو تحت تأثير الموسيقى ، بتزايد عددها إلى حد يتعذر معه الإحصاء ، عندئذ نبددها هباء ، على الرغم من أننا نعرف قيمتها لأنها أحياناً تتطور إلى مسلسلات مطولة من الفكر ، ندرك أن ذهننا يقوم خلالها بعمله على أكمل وجه ، ولكنه يؤديه دون إرهاق لتعاوننا ، وهذا مانود إعادة ابتعاثه بعد اعتراض أثر الرقية ، وهذا ما نسميه بالتفكير ، وذكر فن للتفكير يعنى أصلا بالنسبة لنا إمكان

إعادة ابتعاث حالة عقلية مماثلة كلما أردنا ، وأن ماندعوه بالفهم أو الإدراك هو اللاحق الرفيع لنوع من نمو القوى العقلية ، أما التعلم أو الاستنباط ، على حد ما يعلمنا الجبر أو المنطق ، أن نفعل ، فإننا نعتبرهما من العمليات التى هى أدنى مرتبة التى تسفر عن معارف مكتسبة غير بهيجة .

٤ — عامل ضروب الحدث برفق . تقتبس الكتب الروحية ، بين الفينة والفينة ، قولا لا تينياً مأثوراً معناه : « اخش عبور يسوع لأنه لا يعود » وهذا يصل فى معناه للقول : « لا تدع ضروب الحدس الدينى تفلت منك ، لأنها لا تقبل مرتين » .

وإنه لمن المبالغة القول: إن ضروب الحدس لا تأتى مرتين أبداً ، ولكنها لا تأتى مرتين بنفس الجاذبية ؛ وحالما نحس مجيئها ، يتم هذا كما لو كنا قد رأينا تحريك الماء فى بركة بيت حسدا[1] وينبغى أن نعلم أن فرصتنا عن كثب ؛ ولا بد أن يسود الصمت فى الخارج والداخل ، وينبغى أن نكون منتبهين ولكن دون تلهف، وفوق كل شىء ، دون رغبة فى الاستطلاع؛ فالزائر الجميل كفراشة ، حالما نصطادها تفقد رونقها ، ومن ثمة يلزم عدم اصطيادها ؛ وإذا تلمست يدك بطاقة ورحت تخط عليها فى عجلة بضع كلمات خشية أن تقتلع الفكرة الأولى فكرة أخرى، فإنك ستحفظ لنفسك الجميل حتى ولو اضطررت ، مراراً كثيرة ، أن تندم على الاقتضاب الذى أقحم عليك ؛ أما إذا أسرفت فى التعقل، وإذا كنت فى لحظة ابتهاجك بالطيف الزائر ، فقد حاولت ألا تغيب عن بصرك

---

(١) يشير الكاتب إلى ما ورد بإنجيل يوحنا الإصحاح الخامس من أن ملاكا كان ينزل أحياناً فى هذه البركة ويحرك الماء ، فمن نزل أولا بعد تحريك الماء كان يبرأ من أى مرض اعتراه . [المترجم]

أية صورة له ، مقحماً له فى دورة منظمتك العقلية وملاحظاً فى جشع ما يقوله لك. فى امتلائه الخصيب ، قضيت عليه . . . ما أفضل ما فى ذكريات بسكال ؟ ، بالتأكيد هى الأجزاء التى لم تنته ، فكلما زاد إيجاز هذه الذكريات ازداد المنظر عمقاً وتغلغلا .

ولا يستطيع معظم الكتاب الفرنسيين أن يمسوا القرطاس بالقلم دون أن يكونوا قد فعلوا ما يسمونه ـــ مع بالغ الحق وما يقرب من القسوة ـــ معاناة فكرتهم لإبرازها ، وهناك يربض ما كان ينبض بالحياة حيناً وقد تم تشريحه إلى فقرات ، ولم يعد فى الاستطاعة أن يجول بالفكر مرة أخرى ولكن يمكن كتابته فحسب؛ وإلى هذا تعزى السلاسة الفرنسية التى يفاخرون بها ،ولكنه أيضاً علة ما يسميه الناس أحياناً بمجافاة النزعة الشعرية ؛ أما الكتاب الإنجليز ، ويفوقهم الكتاب الروس ، فإما أن شعورهم بوجود إلهامهم أكثر عمقاً ، وإما أنهم لا يتعجلون تثبيت أفكارهم ، وإما أنهم حين يفعلون هذا لا يكون تفكيرهم قد انقضى ، وهم لا يكتبون لأنهم قد فكروا ولكنهم يفكرون وهم يكتبون ؛ وكثيراً ما يسفر هذا عن غموض المعنى وحشد الألفاظ وانعدام الاتزان ؛ وقد اعترف نيومان بأن ثمة مقطوعات لم يفهمها جاءت بكتابه «قواعد التوفيق» ولكن ماذا فى ذلك مادام الكاتب يجعلك تفكر بدلا من مجرد تعليمك ؟ وإنى لأعتقد أن الكتاب الفرنسيين هم أحرى من غيرهم بأن يشعروا بانعدام أوجه المقارنة بين ما كانت تعج به أذهانهم أولا وبين ما يرونه فعلا بين دفتى كتاب بسبب طريقتهم المسرفة فى الوعى .

وليس معنى العمل بفكرة هو التركيز العقلى من الصنف المعتاد ، فالعرق الكادح لا يكفى هنا ، ومن الضرورى توفير عزلة مليئة بالابتهال مع فترة من

التجرد والتهجد فى مجرى حياتنا اليومية ، ثم ما دعاه تندال ، وهو يصف إنتاج المخترعات « إدمان الفكر » ومادعاه نيوتن « التفكير فيه كل الوقت » ويبدو كما لو كانت الرغبة الجادة لتحقيق الشيء بأكمله ينبغى أن تكون هى الشيء الرئيسى الذى يؤثر ، دون شك ، على عقلنا الباطن ؛ وخبرة معظم الفنانين هى أن صنف إنتاجهم قائم فى تمشيه مع جدية رغبتهم المركزة ؛ وكما سبق أن قلت إن سير ولتر سكوت ، وهو يطالع كتباً لا علاقة لها قط بموضوعاته ، أو أن شارلس ديكنز وهو يطوف بالشوارع المهجورة ليلا ، يحاول أى منهما الإبطاء لا الإسراع بما نسميه الفكر الصافى ، ولكن ينبغى تسميته « الفكر النهائى » .

ويتألف العمل الصادق وإدمان الفكر الصادق من تعمير العقل بصور ذهنية متآلفة ، أحياناً تستدعيها رغبتنا للقدوم ، وأحياناً أخرى تبتعث من ذكريات ترد عفواً دون أن يكون لها نسق معين ؛ وحين يأتى الضوء كاملا يقدر ما نستطيع توقعه ، فمهما فعلنا ، فلنتحاشى وضع رسم تخطيطى لما اكتشفنا فى شكل منظر شامل عام ؛ ووضع الأعداد والأقواس أيضاً ، خلافاً للتفكير ، فإنهما يستعيدان أول ظهور له .

٥ — اغرس الأمزجة المستنهضة . توجد طبقة أكثر حساسية من الباقى نعرفها ، ونستطيع الذهاب إليها كلما أردنا ، وقد يقول عالم سلوكى إن حتمية الاستجابة عن تلك الطبقة ، فى منطقة وعينا تثبت أنها من خصائص علم الأحياء، ولكن كل ما أريد قوله هو أننا نعرف بالخبرة أن الاستجابة مؤكدة ؛ وإذا عشنا طويلا مع أنفسنا أضفنا المزيد إلى شخصيتنا، وإذا استعدنا وقائع أو فترات معينة أو صورا من الشعور إلى حياتنا ، أعلينا قدرة الأستقبال الذهنى لدينا .

وحياتنا بقممها — التي نعرفها — من العاطفة ، والجهـد ، والنبل ، أو الذكاء المتزايد ، هي منجم حقيقي للأمزجة المستنهضة ، وتكفي دقائق من الفراغ كي نستعيد لأنفسنا مثل هذه الأمزجة ، وحالما نعيها يبدأ وهج موهبة الحدس في تألقه ، ويعرف الشعراء هذا جيدا ، وخبرتهم الخاصة ، المحصورة أحيانا في مظهرها إلى حد يرثى له ، هي المدد الدائم لإلهامهم ، وهم ، وكذلك الفنانون ، يشبهون الأطفال شبها عجيبا ، ولم يقطعوا أبداً الخيط الذي يصل مراحل حياتهم المختلفة ببعضها البعض ، كأناس يعيشون في العالم ، وللعالم سيعملون؛ وطفولتهم خاصة ، بثروتها من الانطباعات وعمقها فيها ، حاضرة لديهم في أكثر الأحايين ، وما من شيء أكثر استحضاراً لعبير الماضي من ذكرى الأعوام الباكرة ؛ وأية قصة عن طفولة ، من دافيد كوبرفيلد إلى دي كوتيه ده شيه سوان ، لا تضفي علينا البهجة حتى وإن أعوزت كاتب القصة أو مدون اليوميات موهبة ديكنز أو براوست ؟ والعلة هي أن كل الانطباعات المسجلة تتسم بالجدة ، وترتبط في الحال بما يمتلكه من انطباعات هي أكثر جدة ؛ وبمرور الوقت تهتصر الحياة منا تلك الذكريات كي نهتم بما ندعـوه مصارعتنا ، وهي ، في معظم الحالات ، أي شيء غير نبيل ، ولكن حتى صغار السن من الناس يدركون قيمتها لأنفسهم ؛ وقد اعتدت أن أعرف تلميذاً بالمدرسة كان ، قبل معالجته لمقال ما ، يعود إلى انفعالات طفولته وأحزانها ، فيتخيل أنه وجد نفسه في الحال بالجانب المثمر من نفسه .

وبعض الحالات القصية من منطقة الوجدان ، التي يصعب تعريفها في حينها ، لأنها كانت خصيبة ، والتي لا تستهلك قط تماماً على الرغم من كثرة الأخذ منها ، ما زالت تحتفظ بصفة ترددها بين الفينة والأخرى وبقدرتها على استحضار

عبير الماضى ؛ ولن يتيسر لى قط أن أعالل كيف أننى قبل زيارتى لإسبانيا بوقت طويل شعرت بشىء إسبانى فى الجــو المحيط بيوم الجمعــة الحزينة فى عام كنت إبانه فى التاسعة أو العاشرة من عمرى ، نفس الجــدية ونفس العنف الملىء بالانفعال المذهل الذى أستطيع حتى الآن ، استعادته فى ظرف لحظات قصيرة ؛ وكان ظهر يوم متألق من نوفمبر ، الأمر الذى لا يتفق مع مناسبة اليوم الحزين ، وكانت السماء عالية بعيدة الأغوار ، وريح شرقية فى نشوة ملتاثة ، متغلغلة فى أحشاء طرقات الحديقة الفسيحة ذات الأشجار على الجانبين ، وقد غمرتها أشعة الشمس ورنت فى أجوائها الأهازيج ، ومن شجرة زيزفون باسقة ملكية بدت آلاف من أوراقها الذهبية تثب فى زرقة السماء ، كأنها أرواح صغيرة قد أطلق سراحها أخيراً ، فانطلقت فى أجواز اللانهائية ؛ ولم يكن القصر قد هجره قاطنوه إلى باريس ، ولكنهم لم يكونوا خارجه ، وكنت أنا الكائن الحى الوحيد الذى أتطلع إلى هذا المنظر الرائع ؛ وقد شعرت كما لو كنت أمتلكه بأسره وبكامل سحره ، وكما لو كان سر جمال الخريف قد تكشف أخيراً ؛ ومع ذلك فلابد أننى كنت عاجزا عن تحليل المنظر وتأثيره علىّ .

ومن ذا الذى لا يستطيع تذكر مثل هــذه اللحظات ، والذى ، إذا تذكرها لا يدرك أنه يكون حيث تكون روحه أكثر إيجابية ، على الرغم من أنها لا تفعل شيئاً لتحطيم سلبيتها ؟ مثل هذه الخبرات ، المتجددة كلما أردنا ، أثرها يفوق أعواماً من الجهد الواعى والدراسة الشاقة لتعليمنا ما هية الفــكر وأين يكون .

الفصل الخامس عشر

الإنتاج الأدبى ميسور للجميع

الإنتاج الأدبى ميسور للجميع . . . تريدنا أن نكون كتاباً مثلك ، أليس كذلك ؟ أوه ، هل نشعر أن الكتابة هى الطريق الوحيد للوصول إلى الكمال فى التفكير ؟ .

« إن رغبة مثل هذا الشىء أبعد ما تكون عنى ! وإذا استطعت اختزال المادة المطبوعة إلى جزء فى الألف مما هى عليه ، فعلت هذا فى لحظة ؛ وإذا كان هنالك من يستحق الرثاء فهو الرجل أو المرأة ، حين يحاول أيهما الكتابة ، كما يحاول غيرهما الغناء أو التصوير أو التمثيل أو عمل أى شىء بغير موهبة » .

« حسناً ، وإذن فما هو الإنتاج الأدبى العجيب ، مادام ممكنا للجميع ، فهو لهذا ممكن لى ؟ كيف أستطيع التسلل بنفسى داخل تاريخ الأدب دون أن أضيف أى شىء إلى ذلك الجبل من المادة المطبوعة التى تقول إنك تمقتها ؟ » .

« هل تعتبر كل ماخرج من دور الطباعة أدباً ؟ » .

« سؤال عصى ! فسلنى غيره . »

« إذن أتظن أن كل ماله حق أن يدعى أدباً قد تم طبعه ؟ » .

« لا ياسقراط ، لاأظن ، فكل يوم نسمع عن اكتشاف مخطوطات لم تنشر لكتاب مشهورين ؛ ولا مجال للشك فى أنها كانت أدباً منذ اللحظة التى دونت فيها ؛ وعام إثر عام نسمع أن مراسلات شخص ما أو يوميات شخص آخر قد اكتشفت حديثاً وأنها فى سبيل الطبع ، وأظن أن تلك المذكرات والرسائل من صميم الأدب ، وأنها كانت كذلك وهى مازالت مخطوطات » .

« أجل فرسائل مدام دى سفنييه أو شسترفيلد فى كل كتاب مرشد ، وكذلك مذكرات القديس سيمون ويوميات بيبى ، ومئات فوق مئات من مجموعات الرسائل أو المذكرات لمؤلفين أقل شهرة الذين ، على الرغم من هذا ، لا يمكن استبعادهم من محيط مايسمى بالأدب ؟ فلماذا ؟ » .

« مكتوبة بإتقان على ما أظن » .

« ولكن ماهى الكتابة المتقنة ؟ » .

« عجباً ، إنها اللغة المميزة ، أو اللغة الرشيقة المعنى ، أو المؤثرة ، أو اللغة التى تفتن الألباب بأية صورة من الصور ، وأكبر الظن أن كل مايعلو فوق المستوى العادى لما نكتبه جميعاً ، يعتبر مكتوباً بإتقان » .

« رائع ! إنك تدرك أنه لامناص من إيجاد فارق بين الألفاظ المجردة والعواطف التى تعبر عنها هذه الألفاظ ، فلو أن جان دارك ، التى قطعا لم تكن من الدارسات،خلفت رسالة لكانت أدباً دون شك » .

« ياللعجب ! ولو أزيح الستار عن رسائل الغرام التى أرسلها تومى جونس إلى مس براون وأذيعت لكانت أدباً ؛ لقد أطلعنى مرة على واحدة منها فنهش الحسد قلبى ، ومع ذلك فجونس ليس كاتباً ، بارك الله فيه » .

« إنك تعنى أن كل عاطفة عميقة أو قوية ، يفصح عنها بأمانة ، تكون أدباً ؛ وهى كذلك ؛ وهذا يفسر علة حبنا للرسائل التى من هذا القبيل ، ونكاد نلتهمها ونحن نطالعها بعد مرور خمسين عاماً على كتابتها ، كما فعلت الخادم منذ خمسين عاماً حين وجدت الرسائل على مكتب سيدتها ؛ إننا نبغض محبة الذات ولكننا بصورة أو بأخرى نحب أن نسمع الناس وهم يتحدثون عن ذواتهم » .

« أتظن . . . . . أتظن أن رسائلى أدباً » .

« حتما كانت بعض رسائلك أدباً ، أما التى تكتبها فى الوقت الراهن فيقينا أنها ليست كذلك ، فإنك لاتقول كلمة قط عما تفكر أو تشعر ، بل تخبرنى بما تفعله أو مايفعله غيرك ، ولكن لا تحلل أبداً بواعثك النفسية أو بواعثهم كما يلزم ، وكما تفعل فى الواقع دائماً حين تناقش الناس بحجرة التدخين ، فرسائلك مليئة بالتوافه والعبارات الجوفاء المعادة ، ولا مراء فى أن رسائل جونس للآنسة براون لاتبدو كذلك » .

« أخشى أنك على حق ، حتى ولو كنت مثبطاً للعزم ، ولكن أتأذن لى أن أخبرك بأنى لم أكتب هذا النوع من الرسائل ، لم نكتب جميعاً نفس الرسالة ، كل حين ؟ حسناً ، هذا أثر شواغل العمل ؛ فإنك تتعود أن تملى عشرين مرة نفس الرسالة لأناس مختلفين ؛ وبعد حين يصبح عقلك عاجزاً عن أن يتحرر من

أغــلال أسلوب العمل ؛ وإنى لأكتب لزوجتى كما أكتب لك ، وكانت قد اعتادت أن تشكو من ذلك ، ولـكنها الآن لا تشكو ، فأكبرظنى أنها قد ألفته » .

«لقد أصبت المرمى هذه المرة ، فحين أقول إن فى استطاعتنا أن ننتج أدباً فى رسائلنا فإنى أعنى رسالة تتيح لنا فرصة منقطعة النظير للإفصاح عن أنفسنا ، فما من أحد يطالعها من فوق أكتافنا ، ومامن أحد ينتظر أن ينتقدها بعد تحريرها ، وفى المصطلحات المستعملة بهذا الـكتاب ما من وهم نخشاه أوعقدة نقص يحتمل ان تصيبنا بالوهن ، فنحن فى أفضل حالتنا لنعـــبر عن أفضل مانعرفه ، أعنى مشاعرنا التى يتلقفها وجداننا فوراً عن طريق الحواس ، وهـذا حرى بأن يسفر عن نزعة فطرية مجردة وهى الأدب ، وإنى لأعرف قصصية يلاقى المرء فى مطالعة كتبها أشد العناء، فالمسكينة العزيزة لاتـكون فى إهابها قط، ففى عام تلبس إهاب سنكلير لويس ، وفى العام التالى إهاب ويلا كاثر ، بمعنى أنها تحاول أن تـكون كذلك ولـكنها لا تنتج سوى صنوف رخيصة من المحاكاة مثل حائكة ملابس من «أوكلاهاما» حين تحاول تقليد أزياء باريس ، ولـكن هذه الـكاتبة ذاتها تحرر رسائل ترى فيها حياتها وروحها فى ضوء شفاف ، كل لفظ يعمل كشعلة ساطعة صغيرة لا بقعة قاتمة صغيرة .

« أوه ، أعرف ما تعني دون شك ، ولـكن ما الذى يلزمنى على أن أكتب أدباً ؟ » .

» لا أحد يريد منك أن تـكتب أدباً ، وأنا لا أعترض إلا على الضياع ، فـكل يوم تضيع فرصة ، بل فرصاً كثيرة فى الواقع ، للتغلغل إلى أغـوار

وجدانك بالإفصاح عن ذاتك كما ترى ذاتك ، وهذا أمر يرثى له ، لأنه يجعلك عاماً بعد عام ويوماً بعد يوم ، أكثر شبهاً بأى شخص آخر وأكثر جهلا بشخصيتك، ولا يغرب عن بالك أنك قد تكون حائزاً اليوم على قدر من القوة، أو ماتسميه بالقوة أكثر من يوم مغادرتك للكلية ، ولكنك كنت متمتعاً بقدر من الفردية وأنت فى الحادية والعشرين مما لك الآن، فقد كنت أشد قرباً إلى نفسك وإلى كتبك الجيدة ؛ أو بعبارة أخرى ، لمستوى من التعبير المرضى ، ومن المؤكد أنك حررت فى تلك الأيام رسالة أفضل جداً ، لقد تصلبت وتكلست من الكسل الخالص الذى أسفر عن تقليد شائن ، وعليك أن تتحمل نصيبك من الملام بسماعك نفس الحديث عشر مرات إذا ذهبت لعشرة أماكن مختلفة ، وأقول لك إن الأدب هـو الإفصاح عن الذات ، والإفصاح عن الذات هو الخصائص الفردية ، وخصائصنا الفردية هى نفسنا ، التى ينبغى أن تكون اهتمامنا الرئيسى ، ولكننا نغنى تلك النفس الفقيرة التى لنا طوال حياتنا بالمال ، وطوال حياتنا نفقرها إذ نختلس منها ما يجعلها نفسنا حتى لا يتبقى شىء منها ، ولا تكون اللغة مسرفة فى دقتها إلا حين تتحدث عن النكرات أو الإشارات الرمزية ، والعالم عدد ضخم مؤلف من أرقام قليلة وأصفار لا تحصى ولا تعد ، وإذن تصلب، قاوم، قل لا ، بحق السماء، فإن فعلت أصبحت رجلا حقيقياً ، وأصبحت رسائلك رسائل حقيقية قد تطبع كما طبعت رسائل كثيرة من قبل . »

سأدون مذكرة بكل هذا، فهو جدير بذلك ،وأظن أن هذا هو ما تسميه أدبا. »

« دع الأدب جانباً ، ولكن يقينا دون مذكرات ، فإذا دونت كل ما تسمعه ، أو تظن أنك تشعر أنه جدير بالتذكر ، كانت المجموعة مدونة ذات قيمة ، طالع مدونة إميل فلن تشعر بالسأم ، وسترى ما يمكن أن يحدث فى

حياة قضيت ببلدة سويسرية صغيرة لم يقع بها حدث على الإطلاق ، فاحتشدت المدونة بالأشياء الوحيدة ذات الأهمية : الأفكار والعواصف .

« حسناً ، إنى أود أن أنتج أدباً من النوع الذى تصفه ، ولكن لشد ما أبغض أن أظهر بحروف مطبوعة . ! »

« اعرف هذا ، فأنت لا تطبع إلا ميزانية مصرفك ، وهذا يكفى ، ويظن كثير من الناس أنها من روائع ما يلزم قراءته ، ولكن دعنى أؤكد لك أن كتابا عديدين ممن يصل ذكر كتبهم إلى مسامعك أحرزوا من القدرة على قراءة مشاعرهم الخاصة أو الإفصاح عنها نصيباً أقل مما لكثيرين من الرجال الذين جعلهم القدر من المصرفيين ورجال المال . »

* * *

وصفوة القول : إن كل واحد منا يستطيع أن يكون شخصياً ، أو بتعبير آخر ، مبتدعاً ما لم يكن معرضاً لضياع شخصيته فى خضم الانطواء الذاتى ، أو بين الأوهام التى تحاصر كل من يحاول الإفصاح عن نفسه وتشل حركته ، وهذا يعنى أنه يصبح فى الحال موضع اهتمام، ومصدر متعة لزملائه البشر، وغير مكترث فقط لشخص سيغرق نفسه فى الحشد الجامع ، وهذا الاهتمام هو أساس الأدب ، وهكذا يتضح أننا جميعاً نستطيع أن ننتج ما يستحق أن يسمى أدبا ، ولكن لزام علينا ألا نفكر فى الأدب ونحن نفعل هذا ، والنظرية التى يقوم على أساسها هذا السفر هى أن الفكر وحده هو موضع الاعتبار ، ولا يستطيع الفكر أن يشترك فى وجوده مع أى شىء غير ذاتنا فى أعلى وأنبل إمكانياتها .

الخاتمة

لم يوضع هذا السفر للأدباء على الرغم من أنه كان لزاما أن يقوم على أساس من خبرة كاتب؛ ومامن شيء يمكن أن يكون أشد انحرافاً وبعداً عن هدفه من ميل لاعتبار المفكر متخصصاً بدلا من اعتباره مجرد رجل جدير بالاسم ؛ ويشعر المؤلف باحترام عميق لأى رجل حائز على مبادئ رفيعة تتحدث خلال سلوكه كما تتحدث خلال كلماته ؛ فهذا الرجل ، مهما كانت نقائصه ، هو فكر متجسد .

هيئ لمثل هذا الشخص وسائل تقوية ملكته الفكرية بإفساح مجال فكره ورفع مستواه ، فتجعله وتجعل نفوذه أكثر عظمة بنسبة مطردة ؛ وبين له إمكانية الوصول للرؤية الذهنية أو الإبداع ، فترقى به إلى ذروة العلى .

ذلك هو مايحاول هذا السفر فعله ، فهو لا يستطيع إيجاد الرغبة فى التفكير حيث لا توجد الرغبة ، ولكن عند توافر هذه البذرة الحية التى لا غنى عنها ، ينبغى أن يوفر الشرائط اللازمة لبلوغه حد النضوج ؛ فسل أولئك الذين تعهدوا بإنماء ذلك الشيء الذى جعلهم يشقون طريقهم للنجاح ، فتغمرك الدهشة لبساطة إجاباتهم واختلافها ؛ فلعل الأمر قد كفت فيه بضع كلمات من كتاب ،

أو قائمة كتب بمدرسة ، أو مجــرد التخطيط لطريقة ما ، أو الأثر الذى خلفه رجل غير عادى ، أو مايلحقه من رد فعل إزاء الذكاء أو البلاهــة ، أو تعبير وجهه ، أو ضروب صمته .

ويمــكن إنتاج أثر مماثل ، أو فى كل الحــالات ، يمــكن إعــداده ، عن طريق جملة عابرة فى صفحات مليئة كهذه برغبة لمعونه الفــكر ، وستقع النصيحة « طالع الصحيفة اليومية كأنها صفحــة من التاريخ » على مسامع بعض الناس كما لو كانت أحجية ساخرة ، ولــكنها قد تــكون لقوم آخرين نقطة الانطلاق لحياة عقلية جديدة ، وثمة آخرون قد يجدون العون عن طريق مجرد جرس هذا المؤلف أو محتوياته ، أو عنوانه فقط .

وهنا تبرز الحاجة ، كما هو الحال فى باقى الأشياء ، إلى بداية وطريقة ، والبداية هى من أمر ربى ، أما الطريقة فهى من أمرنا ، ويمــكن استيعابهــا فى بضع ساعات ، حتى من كتاب مثل هذا ، وليس للــكاتب مطمع غير ذلك وهو لا ينشد تحقيق أمل أعظم من أن يكون نافعا .

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة ٩٠ عماد الدين : القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦

مطابع سجل العرب
شارع بستان الدكة - ٩ عماد الدين ، القاهرة
تليفون - ٩٣٢٧٠٦

١٩٦٧